هكذا نقرأ السيرة

عبد الزهراء عثمان محمد

دار الهادي

هكذا نقرأ السيرة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ ـ ٠٣/٨٩٦٣٢٩ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري ـ بيروت ـ لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

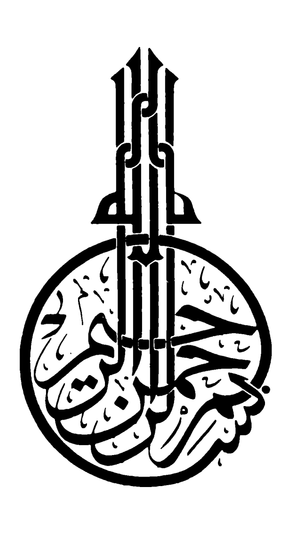
هكذا نقرأ السيرة



بقلم

عبدالزهراء عثمان محمد




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد، وأهل بيته الطيبين الطاهرين..

«هكذا نقرأ السيرة».. نقرأ السيرة الشريفة للهداة من أهل بيت الرسالة، كما تمثلت على واقع الحياة، ونستنطق أحداثها، ودوافعها، وما حققت للإسلام والإنسان على ظهر هذا الكوكب...

نقرأ في هذه المحاولة، فصولاً من السيرة النبوية الشريفة، ونعيش مقاطع من تاريخ الأئمة الهداة من آل محمد (ص)، وهي تجسد رسالة الله تعالى، وقيمها، وأحكامها واقعاً حياً، متحركاً، في دنيا الناس، لتضيف للرسالة الإلهية، بعداً غضاً، ينبض بالحياة، والديناميكية والصدق، والاستقامة...

وعبر فصول هذه الدراسات الموثقة نجد الدور الرسالي العظيم الذي باشره قادة الأمة، وهداتها، والمناهج العملية التي أسدوا من خلالها أعظم الخدمات لهذا الدين، ولمسيرة الإنسان باتجاه التكامل، وعلو الشأن..

حيث نقرأ عبر هذه الفصول التي نقدمها بين يدي القارئ الكريم نظرية العمل الاجتماعي، والسياسي، وتطبيقات منها عند النبي الخاتم (ص)، والأئمة الهداة عليهم الصلاة والسلام..

كما نقرأ الاهتمام الرسالي الذي باشره الرسول والأئمة (ع) بالإنسان، كل الناس، سواء في عرض الرسالة، أو في الدفاع عن

حقوق الإنسان، أو مواجهة الطغيان، أو تبني المحرومين، أو في الحرص على تطبيق الشريعة الإلهية في مجالات العدالة، والمساواة، وحفظ كرامة الإنسان وحريته!

إن هذه الدراسات تتخطى طريقة الدراسات التاريخية التقليدية التي ألفناها عادة عند عرض السيرة، وحوادث التاريخ الإسلامي، ووقائعه المختلفة، فتستلهم القيم الإنسانية العالية، والخطط والبرامج، والمشاريع الخالدة التي باشر رسول الله (ص)، وأهل بيته عليهم السلام، عملية تنفيذها في ظروف مختلفة، سياسية، واجتماعية، وثقافية..

ان غرضنا الأساس من طرح هذه الدراسات الموثقة أن نوفر للإنسان المعاصر دروساً عملية من خلالها، تساهم في بناء الحضارة الإنسانية الرفيعة.

وبالله التوفيق

المؤلف

ذو القعدة الحرام ١٤٢٢هـ

شباط ٢٠٠٢م

هوامش على سيرة رسول الله (ص)

﴿هو الّذي بعث في الأُميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مُبين ﴾[1].

مقدمة

نافَ عمر محمد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) على الستين عاماً حتّى رحل إلى ربّه الأعلى عزّوجلّ، وكان قد أنفق ثلثها الأخير في إطار الدعوة لأعظم رسالة وشريعة عرفها هذا الوجود.

إذ أنه بُعث بالرسالة الخاتمة، وأذِن الله له بالدعوة على رأس الأربعين عاماً من عمره الشريف ﴿ .. قُم فأنذر، وربّك فكبّر، وثيابك فطهّر، والرجز فاهجر.. ﴾[2].

وقد حظيت السنوات الأخيرة من عمر النبي (ص) بالاهتمام من قبل المؤرخين والدارسين بسبب الحركة التغييرية الكبرى التي أحدثها النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في تاريخ الإنسان، وما صحب ذلك

---

(١) الجمعة، ٢.

(٢) المطلع الشريف من سورة المدّثر.

من فعل تاريخي مؤثر وردود فعل معاكسة من المعارضين للرسالة..

وكان لهذا الاهتمام من قبل المؤرخين والمحدثين ما يبرره قطعاً حيث برز بشكل واضح في مضامين السور القرآنية كلّها، حتى أن الاستقراء لآيات القرآن الكريم يطلعنا على رصيد ضخم من أحداث التحرك النبوي العظيم وما واجهه من صعاب ومعارضة كان القرآن الكريم قد دونها عبر ثنايا آياته التي تتنزل من عند الله تعالى، حتّى إن أحداث «السيرة» التي حفظها القرآن الكريم تكاد تؤلف سيرة مميزة بذاتها:

وهذه نماذج من السيرة المطهرة في القرآن الكريم:

١ ـ ﴿يا أيّها الّذين آمنوا ان تطيعوا الّذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولٰيكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأويٰهم النّار وبئس مثوى الظالمين * ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أريٰكم ما تحبون منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في اخريٰكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثمّ أنزل عليكم من بعد الغم امنة نعاساً يغشىٰ طائفة منكم وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قُل انّ الأمر كلّه لله يخفون في أنفسهم ما لا

يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور * انّ الذين تولوا منكم يوم التقىٰ الجمعان انّما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم انّ الله غفورٌ رحيم ﴾ (١).

٢ ـ ﴿والنّجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلّا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرَّة فاستوى * وهو بالأُفق الأعلى * ثمّ دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * افتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنّة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربّه الكبرى * افرأيتم اللّات والعزى * ومنوٰة الثالثة الأخرى * الكم الذكر وله الأُنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هي إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون إلّا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى ﴾ (٢).

٣ ـ ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً * هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع

---

(١) آل عمران، ١٤٩ ـ ١٥٥.

(٢) النجم، ١ ـ ٢٣.

إيمانهم ولله جنود السمٰوات والأرض وكان الله عليماً حكيما ❊ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفّر عنهم سيّآتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ❊ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله سوء ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنّم وساءت مصيرا ولِلهِ جنود السمٰوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ❊ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ❊ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ❊ إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾[١].

ورغم الاهتمام القرآني الكبير واهتمام المؤرخين بأحداث السيرة المطهرة منذ البعثة المباركة بالرسالة الخاتمة، إلّا أن القرآن الكريم والحديث الشريف وروايات المؤرخين، والمحدثين قد حفظت مفاهيم وأرقاماً وأحداثاً هامة قد جرت لرسول الله (ص) قبل بعثته بالرسالة كرسول للعالمين نذكر مصاديق منها:

١ ـ يتحدث النبي (ص) فيقول: «خلقني الله نوراً تحت العرش قبل أن يخلق آدم عليه السّلام باثني عشر ألف سنة، فلما أن خلق الله آدم (ع) ألقى النور في صلب آدم (ع) فأقبل ينتقل ذلك النور من صلب إلى صلب حتى افترقنا في صلب عبدالله بن عبدالمطلب وأبي طالب،

---

(١) الفتح، ١ ـ ١٠.

فخلقني ربّي من ذلك النور لكنه لا نبي بعدي»(١).

٢ ـ يقول الإمام علي (ع) متحدثاً عن النبي (ص) قبل بعثته: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثرامه يرفع لي في كل يوم علماً من أخلاقه ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوّة»(٢).

ومع أهمية تلك الأحداث والظواهر التي مرّت على النبي (ص) خلال السنوات الأربعين الأولى من عمره الشريف ـ وهي تشكل في المساحة الزمنية ثلثي عمر النبي (ص) ـ إلّا أنها لم تنلْ من الدراسة والاهتمام ما يناسب رغم كثرة المعلومات والوثائق التي حفظها القرآن الكريم والحديث والتاريخ حول هذه الفترة الزمنية الطويلة نسبياً من سيرة النبي (ص).

وللحق نقول: إن بعض ظواهر سيرة النبي (ص) ـ التي جرت منذ طفولته حتى بلغ الأربعين من عمره ـ قد حظيت باهتمام مناسب من قبل المؤرخين، ولكن مساحة هذه الظواهر تكاد تكون محدودة جداً بالنسبة لطول الفترة الزمنية المذكورة، وما جرى فيها من أحداث غاية

---

(١) بحارالأنوار، للعلّامة المجلسي، ج ١٥، ص ٧.

(٢) نهج البلاغة، خطبة القاصعة.

في الأهمية حيث شُكِلت شخصية النبي (ص) وصُنِعت على عين الله تعالى.

وهنا لا أريد أن أطفف من قيمة الأبحاث والدراسات المذكورة إلّا أني أريد أن أشير إلى إهمالها لموضوعات عظيمة يتعلق بعضها بتشكيل شخصية رسول الله (ص) وبمسيرة الكثير من أحداث الصدر الأول من تاريخنا ممّا يحاول البعض اسدال الستار عليها أو التعامل بشك معها لقصور فهمه لها...

وقد لعب المستشرقون دوراً سيئاً في التعامل مع الكثير من ظواهر الحياة النبوية المحمدية من حيث الاهمال أو الشك أو التفسير المتعسف لها، وقلدهم في ذلك تلاميذهم في العالم الإسلامي من أمثال طه حسين ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين ومن إليهم.

ويعود السبب في إهمال الكثير من الأحداث المركزية التي عاشها النبي (ص) كالأحداث التي ساهمت في تشكيل الشخصية النبوية أو الشك فيها أو تشويهها ـ إذا أسدلنا الستار على الخبث واللؤم ـ إلى عدم التشبع بالروح التي تُدرك بها حوادث التاريخ الإسلامي...

فحوادث أي تاريخ إنساني تصطبغ بروحية خاصة في حركتها الواقعية وآثارها، فالأحداث التي تتشكل في دورة تاريخية تظللها الوثنية لابدّ أن تحمل آثار الوثنية المادية وطابعها وخصائصها، والأحداث التي يظللها الوحي الإلهي والاشراف الرباني لها خصائص وروحية بعيدة عن فهم الماديين الحسيين الأمر الذي يفوِّت على المؤرخ المادي فرصاً كثيرة لفهم كثير من الحقائق التي يحاول أن

يصفها بأنها غيبية على أقل تقدير لا تقع تحت طائلة البحث! هذا إذا لم يشك بها ويشوهها.

وإذا وضعنا في الحساب إن السيرة النبوية المطهرة تنطوي على نسبة عالية جداً من الظواهر ذات العلاقة بعالم الغيب كقضايا الوحي، وطبيعة نزول القرآن الكريم، وتدخل الملائكة في بعض المعارك لصالح الجبهة الإسلامية، وطريقة اعداد النبي اعداداً روحياً خاصاً، وحل الكثير من المشاكل الروحية والفكرية والاجتماعية من خلال التدخل الإلهي وما إلى ذلك...

أقول: إذا وضعنا في حسابنا حجم الظواهر ذات العلاقة بعالم الغيب لرأينا إن إهمالها أو التشكيك فيها أو تشويهها سيؤدي إلى خسارة حضارية وعلمية هائلة!

وإذا أضفنا إلى ذلك بأن اتجاه المستشرقين في دراسة السيرة والتاريخ الإسلامي عموماً، هو الذي يحتل مواقع الإلهام في الدراسات التاريخية المعاصرة في العالم الإسلامي عموماً، أدركنا عمق الخسارة التي يتعرض لها المسلمون بسبب هذا الاتجاه المتعسف الذي يسود الدراسات في الجامعات، والمراحل الدراسية التي تسبقها فضلاً عن الأبحاث التي تشهدها المكتبة في العالم الإسلامي عموماً.

الأبحاث التاريخية المعاصرة ومسألة الاعداد الإلهي لشخصية الرسول (ص)

من أهم الأحداث التاريخية التي لم تحظَ باهتمام ذي بال في

دراسة السيرة لدى المتأخرين: قضية الاعداد الإلهي لرسول الله (ص)، وهي من أهم الأحداث في سيرة النبي الخاتم (ص) في السنوات التي سبقت بعثته (ص) بالرسالة الخاتمة.

فرغم أهمية هذه المسألة من الوجهة التاريخية، من حيث دراسة التطورات التي رافقت النبي (ص) منذ طفولته حتى نزول أول سورة عليه من القرآن الكريم تؤذِن بابتعاثه رسولاً يدعو الناس إلى الله عزّوجلّ.. أقول: رغم أهمية هذه المسألة التاريخية بذاتها، فإنها ذات قيمة حضارية في دنيا المسلمين ومسيرتهم الحياتية خصوصاً فيما تلقي من ظلال عقائدية ذات أهمية بالغة على قناعاتهم ورؤاهم العقلية.

ولذا فإن الثغرات الواسعة في فهم هذه القضية أنتج ارتباكاً كثيراً في الدراسات العقائدية وأبحاث السنن لدى قطاعات من المسلمين، حتى إن البعض من الباحثين في السيرة والعقائد صوَّر الرسول (ص) كما لو كان إنساناً عادياً كمعاصريه وإن تميّز في بعض الخصائص الأخلاقية المقبولة، لذا اقتنع هذا الفريق بامكانية ارتكاب النبي (ص) للكبائر من الآثام قبل البعثة[١] ـ والعياذ بالله تعالى ـ بينما «يتسامح» البعض الآخر فيجيز ارتكاب النبي (ص) لصغائر الذنوب دون كبائرها قبل بعثته بالرسالة الخاتمة.

على أن خطّاً مميزاً من المسلمين يعتقد إن النبي (ص) لا يرتكب كبيرة ولا صغيرة قط قبل بعثته بالرسالة بالنظر لخضوعه لحالة خاصة

(١) أوائل المقالات، للشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (المفيد).

من التبني الإلهي المميز لشخصيته المباركة.

إن هذا التناقض في التصوّر عن النبي (ص) قبل البعثة ـ ناهيك عمّا بعدها ـ ناتج عن تناقض المعلومات والأخبار الواردة عن سيرة النبي (ص) قبل البعثة بالرسالة المباركة، وكيفية التعامل معها..

إلّا أن جميع المعلومات والأخبار ـ وهي كثيرة جداً ـ التي تضافرت عن سيرة النبي (ص) في تلك المرحلة ودراستها بعقل مفتوح من حيث السند والمتن، وفرز غثها من سمينها وصحيحها من سقيمها ـ وهو أمر ميسور جداً ـ يجعل الدارس يقطع إن النبي (ص) كان يخضع لعملية اعداد إلهي خاص «من لدن ان كان فطيماً»[(١)] وكان يصنع على عين الله تعالى لينهض بأعباء أكبر عملية تغيير حضاري فيدنيا الناس على الاطلاق وليحمل أكبر رسالة إلهية عرفها تاريخ الوجود...

ومن خلال المعلومات المتوفرة لدينا يتضح أن النبي (ص) تعرض إلى نمط من الاعداد الرباني تشكلت عنه شخصيته المميزة... بيد أن هذا المنهج يلوح منه خطان يكمل أحدهما الآخر:

أولاً: سدُّ منافذ تأثير المحيط الاجتماعي والثقافي بشخصية النبي (ص) وعزله عن التلقي من واقعه المعاش، وقد حصَّن الرّب جلَّ وعلا كيان النبي (ص) الروحي والفكري منذ طفولته، ليكون في منأى عن أي فكر معاصر له أو سلوك أو موقف يخالف نهج الله عزّوجلّ.

فرغم أن النبي (ص) كان يمارس حياته العادية في المجتمع الذي

---

(١) فقرة من خطبة القاصعة لأميرالمؤمنين علي (ع)، نهج البلاغة، ص ٣٠١.

عاش فيه حيث شارك في الحياة الاجتماعية العادية، ومارس التجارة، وسافر، وباشر كثيراً من الأمور التي تفرضها الحياة الطبيعية العادية، إلّا أنه كان محصناً عن التأثر بأي نمط ثقافي أو عرفي يخالف شرع الله عزّوجلّ، وهو معنى مبحث العلماء والكلاميين حول الشريعة التي كان يتعبد بها النبي (ص) قبل بعثته بالرسالة الخاتمة.. وما في ذلك من تفصيلات ورؤى واضحة حول كونه يتعبّد بشريعته هو دون سواها.(١)

وإذ نحن بصدد الحديث حول قضية الاعداد الرباني المخطط لشخصية النبي (ص) من خلال الأرقام والوثائق فلابدّ من سوق بعض الأرقام والوثائق التاريخية حول هذه القضية بأبعادها المختلفة.

وهذه إحدى الوثائق حول هذه العملية:

روى محمد بن حبيب في أماليه قال: قال رسول الله (ص): «أذكر وأنا غلام ابن سبع سنين، وقد بنىٰ ابن جذعان داراً له بمكّة، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدر في حجورنا فننقله فملأت حجري تراباً، فسمعت نداء من فوق رأسي: يا محمد أرخِ أزارك، فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً إلّا أني أسمع الصوت، فتماسكت لم أرخِه، فكأن إنساناً ضربني على ظهري فخررت لوجهي، وانحل ازاري وسقط التراب إلى الأرض، فقمت إلى دار أبي طالب عمّي ولم أعد»(٢).

(١) أنظر سيد عبدالله شبّر (رض)، حق اليقين في معرفة أصول الدين، ص ١٣٥، وغيره من كتب العقائد.

(٢) بحارالأنوار، للعلّامة المجلسي، ج ١٥، ص ٣٦٣.

ثانياً: تعبئة النبي (ص) تعبئة روحية وفكرية من قبل الله عزّوجلّ، وتزويده بكل الإمكانات المطلوبة لمهمته الآنية والمستقبلية:

وإذا صح أن تتسم الحالة الأولى بالسلب فإن الحالة الثانية تستبطن الفعل الايجابي، لأن العملية الأولى تتسم بالتدخل للمنع والحيلولة دون التأثر بالواقع، والثانية تتسم بالفيض والامداد والاعطاء لبناء الشخصية المحمدية ـ كما يشاء الله عزّوجلّ ـ للنهوض بدورها المرسوم من قبل الله عزّوجلّ.

وهذه العملية التعبوية التي تتم بارادة الله تعالى وفيضه المبارك على عبده ورسوله المختار (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد أكدتها جملة من الوثائق التاريخية الصحيحة نذكر منها ما يلي:

١ ـ ففي حديث للإمام علي (ع) حول الاعداد الإلهي للنبي (ص) ـ وعلي (ع) أكثر الناس معايشة للرسول قطعاً ـ يقول: «ولقد قرن الله به من لدن ان كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثرامه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به»[١].

٢ ـ وعن حفيد الرسول الإمام محمد بن علي الباقر (ع) يقول: «ووكل بمحمد ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات، ومكارم الأخلاق ويصده عن الشر ومساوئ الأخلاق..»[٢].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة القاصعة.

(٢) بحارالأنوار، للشيخ المجلسي، ج ٥، ص ٣٦٢.

٣ ـ ويتحدث الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن ذلك الملك المرافق للنبي (ص) منذ بداية أمره فيصفه أنه أعظم من جبرئيل وميكائيل (ع).[١]

من نتائج الاعداد الرباني للنبي (ص)

من أهم نتائج ذلك الاعداد الرباني الخاص للنبي (ص)، أنه بدأ حياته بين الناس نبياً من الله عزّوجلّ إلّا أنه لم يكلف بالدعوة لرسالته حتّى بلغ الأربعين من عمره الشريف حيث نزل عليه القرآن الكريم منجماً مؤذناً ببداية الدعوة..

ومن خلال الوثائق التاريخية الدقيقة يتضح أن النبي (ص) قد صاغ الله تعالى شخصيته وفقاً لمفاهيم القرآن الكريم، وصنعه على عينه بمبادئه حيث جرت عملية اعداد القائد من قبل الله عزّوجلّ قبل المباشرة باعداد الأمة ـ كما عبّر عن ذلك المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه في حديث له حول ذلك ـ[٢] وكما تفيد قناعات العلماء أصحاب الاختصاص بذلك حين يؤكدون أن النبي

---

(١) يراجع تفسير آية ٥١ من سورة الشورى في تفسير الميزان للسيد المرحوم العلّامة محمد حسين الطباطبائي (بحث روائي).

(٢) من كلمة للمفكر الشهيد القيت عنه نيابة في احتفال في كلية الاقتصاد في بغداد ونشرت في «رسالة الجمعية الخيرية» التي كانت تصدر في كربلاء في منتصف الستينات.

(ص) كان يتعبّد في بداية حياته بشريعته لا بشريعة رسول آخر قبله.[١]

ولعلّ القرآن الكريم ـ إذا اتخذناه هنا مصدراً للسيرة ـ يعبّر عن هذه الحقيقة بوضوح فإن الآيات الكريمة التي تتناول مسألة نزول القرآن الكريم تتحدث عن نمطين من النزول القرآني:

أ ـ آيات تتحدث عن نزول كلّي للقرآن المجيد كما تفيد الألفاظ التي استعملها القرآن للتعبير عن ذلك: ﴿شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن هدىً للنّاس وبيّنات من الهدىٰ والفرقان..﴾[٢].

﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر...﴾[٣].

﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منذرين﴾[٤].

ب ـ آيات تتحدث عن نزول مفرق لآيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على النّاس على مكث ونزّلناه تنزيلا﴾[٥].

إن هذا الاختلاف بين الآيات الكريمة التي تتحدث عن حالات نزول القرآن الكريم، تؤكد وجود حالتين لنزول القرآن كما أشرنا وهي

---

(١) راجع المرحوم السيد عبدالله شبّر، حق اليقين في معرفة أصول الدين، ج ١، ص ١٣٥.

(٢) البقرة / ١٨٥.

(٣) القدر، ١ ـ ٢.

(٤) الدخان، ٣.

(٥) الإسراء، ١٠٦.

تفيد بالتالي إن «الإنـزال» الأول كـان لصـنع شـخصية النـبي (ص)، والتنزيل المفرق المنجم كان لصنع الأمة تباعاً.

هذا ويشير حديث الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طـالب (عـليه الصّلاة والسّلام) الذي ذكرناه آنفاً إلى نفس المعنى حيث إن النص يقطع إن النبي (ص) منذ صغره كان مقترناً مع أعظم ملائكة الله تعالى يسلك به طريق المكارم ومحاسن الأخلاق، وهذا بالطبع أحد مقومات النبوة وأعلى مظاهرها.

وقد ذكر المؤرخون ظواهر عملية كانت بارزة على شخصية النبي (ص) قبل الدعوة يخالف فيها سائر قومه نذكر منها ما يلي:

١ ـ اعلان المصطفى (ص) التوحيد لله عزّوجلّ جـهاراً مـنذ أيـام حياته الأولى وكفره وسخطه على الأوثان والعقلية الوثنية السائدة بين قومه، ونذكر هذه الواقعة التي جرت له وهو في سن اثنتي عشرة سنة حيث جرى بينه وبين الراهب النصرانـي بـحيرا حـوار فسـأله الراهب المذكور واستحلفه باللّات والعزى فـقال (ص): «لا تسـألني بـاللّات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما»[١]، إضافة إلى أنـه (ص) كـان منذ مطلع حياته لا يشارك قومه أعيادهم الوثنية مطلقاً.[٢]

---

(١) بحارالأنوار، ج ١٥، ص ٤١٠.

(٢) سـبل الهـدى والرشـاد في سـيرة خـير العـباد، ج ٢، ص ٢٠١، للشـيخ محـمد بـن يوسف الصالحي الشامي.

٢ ـ كان يؤدي الصلاة منذ سني طفولته الأولى[١] كما كان يلتزم حج بيت الله الحرام قبل دعوته.[٢]

٣ ـ التزامه بأعلى درجات الفضيلة في نفسه وفي تعامله مع قومه، ولهذا سماه قومه بالصادق الأمين.

٤ ـ التزامه بالتسمية على الطعام والشراب عند تناولهما وحمده لله عزّوجلّ بعدهما[٣] كذلك كان يعزف عن تناول كل ما ذبح على النصب، والأوثان من الأنعام وسواها.[٤]

إلى هنا نكون قد أعطينا ملامح لدراسة جديدة لسيرة رسول الله (ص) قبل بعثته بالرسالة الكبرى آملين أن ينفع الله بها المسلمين خصوصاً من يهتم بدراسة السيرة المطهرة أو كتابتها.

---

(١) بحارالأنوار، ج ١٥، ص ٣٦١.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٨.

(٣) بحارالأنوار، ج ١٥، ص ٣٦٠.

(٤) الوفا بأحوال المصطفى، ج ١، ص ١٣٩، ابن الجوزي برواية أحمد بن حنبل.

المعالم الأساسية للمنهج التغييري
عند الرسول الخاتم (ص)

تمهيد

قضى المصطفى محمد بن عبدالله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ثلثي عمه الشريف نبياً لم يؤذن له من قبل الله عزّوجلّ بدعوة الناس إلى رسالته ـ كما أشرنا ـ ولم يعلن عن نبوته المباركة طوال تلك السنين:

«اعلم: إن الطائفة قد اجتمعت على أن رسول الله (ص) كان رسولاً نبياً مستخفياً يصوم ويصلّي على خلاف ما كانت قريش تفعله مذ كلفه الله تعالى، فإذا أتت أربعون سنة أمر الله عزّوجلّ جبرئيل (ع) أن يهبط بإظهار الرسالة، وذلك في يوم السابع والعشرين من شهر الله الأصم»[1].

ولهذه الحقيقة أشار أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) في حديث له جاء فيه: «ولقد قرن الله به ـ صلّى الله عليه وآله ـ من

---

(١) روضة الواعظين، للشهيد الفتال النيسابوري، ص ٦٢، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

لدن ان كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم: ليله ونهاره»(١).

حتى إذا نزل عليه جبريل بمطالع سورة المدثّر المباركة في اليوم السابع والعشرين من رجب المرجب ﴿يا أيّها المدثّر قُم فانذر، وربّك فكبّر..﴾ باشر عملية دعوة الناس إلى عبودية الله عزّوجلّ حيث بعث إلى الناس كافة وأذن الله له بالتبليغ.

ويلاحظ من حقائق السيرة النبويّة المطهرة إن النبي (ص) ـ ولأهداف استراتيجية ـ كان مأموراً أن يطلع ابن عمه وربيبه علي بن أبي طالب (ع) على التطورات التي كانت تجري له قبل نزول القرآن الكريم وبعده أولاً بأول حيث أشار الإمام علي (ع) لذلك بقوله:

«.. وقد علمتم موضعي من رسول الله صلّى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به ـ صلّى الله عليه وآله ـ من لدن ان كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم: ليله ونهاره.

ولقد كنت أتبعه: اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٢.

بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلّى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما أرى نور الوحي، وأشم ريح النبوّة. ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ـ صلّى الله عليه وآله ـ، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلّا انك لست بنبي، ولكنك لوزير وإنك لعلى خير..»[١].

ولعلّ الإمام أحمد بن شعيب النسائي الشافعي قد صوّر بعض مصاديق اختصاص عليّ (ع) بهذا الأمر بالحديث التالي الذي رواه عن علي (ع) قال: «ما أعرف أحداً من هذه الأمة عَبَد الله بعد نبينا غيري، عبدتُ الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين»[٢].

وتبنّي الرسول (ص) لابن عمه علي (ع) إنما هو جزء من الخطة الإلهية العامة التي تمسك رسول الله (ص) بانتهاجها منذ اجتبائه من قبل الله عزّوجلّ للنهوض بأعظم عملية تغيير في دنيا البشر..

ومن حقائق السيرة إن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يؤذن له بدعوة الناس إلّا بعد أن استكمل بناء شخصيته على عين الله عزّوجلّ، وحمل كافة المقومات الأساسية لحمل الدعوة الإلهية الخاتمة، من ناحية المضامين والقيم التي تلقاها، ومن ناحية بناء الذات

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٢.

(٢) خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي، ت ٣٠٣هـ، ص ٣، طبع مصر.

وفق تلك القيم الإلهية.

ولقد ميّز الفقيه والمفكر الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر (رض) بين حقيقة «التنزيل» وحقيقة «الإنزال» القرآني اللذين وردا في الآيات القرآنية معبرة عن كيفيّة نزول القرآن المجيد.

فقد عبّر المفكر الشهيد (رض) عن «الإنزال» بالنزول الكلّي لمفاهيم القرآن الكريم ولصياغة شخصية قائد المسيرة الربانية محمد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله، كما تفيد مجموعة الآيات التالية: **﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾**، **﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منزلين﴾**، **﴿شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن..﴾** ...

في حين اعتبر مصطلح «التنزيل» كونه نزولاً مفرقاً للقرآن الكريم حسب الحاجات والظروف لبناء الأمة التي يدعوها النبي (ص) للإسلام الحنيف، كما يفيد قوله تعالى: **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على النّاس على مكث، ونزلناه تنزيلا﴾**.

وهكذا فإن نزول سورة المدثّر كان إيذاناً بمباشرة العملية التغييرية العامة من قبل رسول الله (ص) وما تتطلبه تلك العملية العظمى من تخطيط استراتيجي، وتكتيكات آنية للوصول للأهداف الربانية الكبيرة على ظهر هذا الكوكب...

وإذا أجرينا استقراء فاحصاً للطريقة التي انتهجها القرآن الكريم ورسول الله (ص) في عرض القيم والأفكار والمفاهيم على الناس مضافاً إليها المنهج العملي الذي تمسك النبي (ص) بتفصيلاته من أجل هداية العباد فإن بمقدورنا أن نعرض الخطوط الآتية للمنهج التغييري

الذي تبناه النبي (ص) في عملية صنع الأمة الجديدة على خريطة الواقع..

المعالم الأساسية للمنهج التغييري عند الرسول الخاتم (ص)

١ ـ التدرج من أجل بلوغ الأهداف:

من استقراء واعٍ لطريقة القرآن الكريم ورسول الله (ص) في عرض الأفكار والمفاهيم للناس، مضافاً إليها ملاحظة الأساليب العملية التي سلكها النبي (ص) في دعوة الناس إلى الإسلام الحنيف، ومواجهة مشاكل العمل، فإن هذا الاستقراء يرينا تمسك الرسالة والرسول (ص) بمنهاج التدرج في العمل من أجل بلوغ الأهداف المتوخاة..

ويتجلى منهاج التدرج في العمل في حقلين:

أ ـ في تنامي الحركة النبوية العامة في الواقع الاجتماعي والسياسي: ففي هذا الجانب التزمت حركة النبوة التدرج ضمن خطوات متتابعة من العمل الأيسر إلى الأكثر تعقيداً، وقد وصف ابن قيم الجوزية هذا التدرج بالكلمات التالية:

«أول ما أوحى إليه ربّه تبارك وتعالى، أن يقرأ باسم ربّه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ثمّ أنزل عليه: ﴿يا أيها المدثّر، قُم فانذر﴾ فنبأه بقوله: ﴿اقرأ﴾ وأرسله ﴿يا أيها المدثّر﴾، ثمّ أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثمّ أنذر قومه، ثمّ أنذر من حولهم من العرب ثمّ أنذر العرب قاطبة، ثمّ أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوّته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية،

ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثمّ أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثمّ أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمّن اعتزله ولم يقاتله، ثمّ أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كلّه لله»[١].

إن هذه المفاصل العملية تعطي انطباعاً عن طريقة النبي (ص) في التدرج في المسيرة نحو الأهداف الربانية السامية منذ أن كانت الحركة النبوية «نواة» صغيرة يمثلها شخص النبي وربيبه علي بن أبي طالب وخديجة بنت خويلد (عليهم الصّلاة والسّلام)، حتى بلغت تلك الحركة هدفها الأعظم في إقامة الدولة الإسلامية، وكبت أعداء الله تعالى في الجزيرة العربية.

ب ـ إثراء القيم الإسلامية الكريمة تباعاً «كماً وكيفاً» ابتداء من قيم التوحيد والنبوة والإمامة والقيامة ومروراً بالفرائض والقيم الأخلاقية وانتهاء بقوانين الأسرة والمواريث ومسائل الحكم والحرب والسلم والأنفال وما إلى ذلك..

فهذه القيم والمفاهيم لم تشرع دفعة واحدة، وإنما استمرت بالتكامل والاثراء على مدار ثلاث وعشرين سنة، فالصلاة شرعت بعد البعثة مثلاً بينما شرع الصوم بعد الهجرة، والحرب شرع بعد السنة الأولى من الهجرة، بينما أحكام الربا والزكاة شرعت بعد ذلك وهكذا..

وقد مرت بعض المفاهيم بسياقات تربوية حتى استقرت على صيغها النهائية كأحكام الخمر والربا وما إلى ذلك.

---

(١) زاد المعاد، ابن قيم الجوزية (فصل في ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عزّوجلّ).

يتحدث الإمام أبو عبدالله الصادق (عليه السّلام) عن منهج الرسالة الإلهية الخاتمة المذكور، فيقول: «إن الله عزّوجلّ إذا أراد أن يفترض فريضة أنزلها شيئاً بعد شيء حتى يوطن الناس أنفسهم عليها ويسكنوا إلى أمر الله عزّوجلّ ونهيه فيها وكان ذلك من فعل الله عزّوجلّ على وجه التدبّر فيهم أصوب وأقرب إلى الأخذ بها وأقل لنفارهم منها»(١).

ويتحدث الإمام الصادق (ع) عن فلسفة هذا التدرج ومقاصده في طرح المفاهيم والقيم من قبل الرسالة والرسول (ص) بقوله: «إن الله رفيق يحب الرفق، فمن رفقه بعباده تسليله أضغانهم ومضادتهم لهواهم وقلوبهم، ومن رفقه بهم أنه يدَعَهم على الأمر يريد ازالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة فيضعفوا فإذا أراد نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخاً»(٢).

وهكذا كان التدرج في عمل الدعوة الإلهية وبرامجها قد شمل تفاصيل حركة الجماعة المنتظمة تحت راية الحق، والمحتوى الفكري الذي تتلقاه.

٢ ـ الواقعية في العمل والتخطيط:

الرسالة الإلهية الخاتمة ورسولها الأعظم لم يهدفا إلى صنع الإنسان المعلق في فراغ بعيداً عن الواقع، وإنما يحرصان أساساً على صياغة

---

(١) الكافي، ج ٥، ص ٤٠٦، مطبعة حيدري، طهران.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ١١٨.

الإنسان بعد وضع الواقع القائم أمامهما.

وهذه الواقعية التي تمسك بها الإسلام الحنيف تشكل روحاً تسري في المحتوى الفكري للرسالة، وفي معالجاتها لمشاكل الإنسان وفي منهاج التغيير الذي تبناه النبي والأئمة الهداة (عليهم السّلام) تخطيطاً وتنفيذاً..

ولا نريد هنا أن نسوق المصاديق حول الواقعية التي تحكم الأفكار والقيم والمفاهيم الإسلامية ـ لأننا لسنا بصدد ذلك في هذا البحث ـ وإنما لابدّ أن نعدد بعض المصاديق الواقعية في العمل والتخطيط ممّا مارسه الرسول (ص) عملياً في مهمته التغييرية الكبرى.

أ ـ انتهج رسول الله (ص) أسلوب سرية «الدعوة» لثلاث سنين على الأقل بالنسبة للجماعة التي خاطبها بالدعوة في بداية العمل وكان يأمرهم أن يستخفوا من الناس في عبادتهم، وكان منهم من يلوذ بشعاب مكة لأداء عبادته، كما أن لقاءاته معهم كانت سرية في أغلبها.

ب ـ بسبب الطبيعة القبلية المتحكمة في المجتمع المكي والعربي على وجه العموم، فقد خطط النبي (ص) في بداية الدعوة لتنفيذ مشروع التغيير الكبير في اطار عشيرته، حيث بذل جهداً كبيراً ومتكرراً من أجل كسب عشيرته الأقربين إلى صف الدعوة ﴿**وانذر عشيرتك الأقربين...**﴾.

ج ـ بعد تحجر مكة في وجه التغيير فكر النبي (ص) بيثرب بحثاً عن أرض جديدة للدعوة الإلهية، أكثر قدرة على استيعاب مهمته التغييرية الكبرى، وهكذا بدأ يعرض نفسه ودعوته على حجيج يثرب،

حتى وفقه الله للنصر في يثرب.

د ـ والهجرة حركة واقعية في النشاط التغييري الذي انتهجه النبي (ص).

هـ ـ كما أن المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين كانت درساً واقعياً لابدّ منه لحركة التغيير الكبرى.

ـ و... و...

٣ ـ المرونة في عمل النبي (ص) وتخطيطه:

رغم أن النبي (ص) كان أحرص الخلق على تحقيق أهدافه الربانية في دنيا الناس، ورغم مبدئيته المتميزة فإن استجابته لمتطلبات الحكمة، وطبيعة الواقع قضت أن يكون مرناً من الناحية العملية، وكلما عظم الهدف المتوخىٰ أن يصل إليه في مقطع زمني معيّن كلما كان أكثر مرونة واستيعاباً لمتطلبات الواقع، وهذه صور من مرونته العملية:

أ ـ بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة، وجد مجتمعاً خليطاً من الناحية الاجتماعية والدينية، وحيث أن هدفه الأكبر أن يرسي قواعد دولته الرسالية رويداً رويدا، فلابدّ من تحييد القوى التي تشكل خطراً على أهدافه الكبرى إذا هو ناجزها العداء في بداية الطريق وهكذا أبرم حلفاً مع اليهود «وكانوا قوة اجتماعية ودينية وسياسية كبيرة جداً» حفظ لهم فيه وجودهم، ووفر للمدينة المنوّرة ـ وكانت منطلق دولته ـ حماية من جميع القوى الاجتماعية التي تسكنها أو تسكن حواليها..

إن هذه المرونة في التعامل قد كفاه شر اليهود وأمثالهم منذ دخوله

المدينة مهاجراً حتى غزوة الأحزاب عام ٥ هجرية، مما أعطاه فرصاً كبيرة لارساء قواعد دولته خلال تلك السنوات الخمس بعيداً عن اثارات اليهود الذين بدأوا بنقض العهد قبل غزو الأحزاب للمدينة المنوّرة.

ب ـ وتجلت عبقرية المرونة العملية للنبي (ص) في صلح الحديبية بشكل صريح فحين أصرّ ممثل المشركين على محو عبارة «رسول الله» من الوثيقة التي كتبت بين المسلمين والمشركين، أمر الرسول (ص) علي بن أبي طالب أن يثبت اسم النبي (ص) واسم أبيه بدلاً من مصطلح الرسول (ص) استجابة لطلب الكفار، لأن الهدف الذي شاءه النبي (ص) كان أكبر ممّا تصوره المشركون وبعض الصحابة الذين لم تدرك قلوبهم حقيقة الأهداف التي خطط النبي (ص) لتحقيقها من وراء صلحه المذكور الذي أبرم عام ٧ هجرية.

وفي السيرة العطرة لرسول الله (ص) عشرات المواقف من هذا القبيل.

٤ ـ رفض التسويات على حساب الحق:

ومن معالم المنهاج التغييري عند النبي (ص) رفضه للتسويات، وانصاف الحلول إذا كانت تلك التسويات تناقض أسس الإسلام الحنيف.

صحيح أن النبي الخاتم (ص) كان يلتزم بأسلوب مرن في الخطط والممارسات إلّا أن تلك الخطط إذا تمخضت عن معارضة الأسس

العامة للإسلام أو الغائها فإنه يرفضها جملة وتفصيلاً.

ونذكر هنا موقفين (كنموذج من مواقفه الرافضة للتسويات على حساب الحق):

- روي أن نفراً من قريش اعترضوا لرسول الله (ص)، فقالوا: يا محمد هلمَّ نعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فقال: معاذ الله أن أشرك معه غيره، فنزلت سورة ﴿**قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي ديني**﴾.

- حين يبلغ الضغط القرشي أوجه على رسول الله (ص) وعلى عمه أبي طالب (رض) أيام المحنة في مكّة، وأخبره عمه بطلب قريش أن يتخلى الرسول (ص) عن دعوته قبال منحه أموالاً وفيرة، فإنّ رسول الله (ص) يعلن اصراراه على رفض التسويات على حساب الحق مهما بلغ الثمن:

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه».

وفي السيرة المطهرة شواهد كثيرة على هذا اللون من المواقف النبوية الثابتة.

٥ - النبي (ص) يعيش آمال الأمة وآلامها:

عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله (ص) إذا فقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له وان كان شاهداً زاره،

وإن كان مريضاً عاده»[١].

عن زيد بن ثابت قال: «إنّ النبي (ص) كنّا إذا جلسنا إليه، إن أخذنابحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا وإن أخذنا في الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا»[٢].

ومن سمو أخلاقه كذلك ما أشار إليه الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في حديث له «كان رسول الله (ص) يقسم لحظاته بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسوية، ولم يبسط رسول الله (ص) رجليه بين أصحابه قط، وإن كان ليصافحه الرجل، فما يترك رسول الله (ص) يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده»[٣].

ومن مصاديق رفقه بالأمة ومعاملته لها بالحسنىٰ: ما رواه يونس الشيباني قال: قال أبو عبدالله ـ الصادق ـ (ع): كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليل، قال (ع): فلا تفعلوا فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله (ص) يداعب الرجل يريد أن يسره.[٤]

وعن علي (ع) يقول: «كان رسول الله (ص) ليسر الرجل من

---

(١) بحارالأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٣، وأخلاق النبي (ص)، ٧٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٣٥، والشمائل للترمذي، ص ١٩٧.

(٣) الكافي، ج ٢، ص ٦٧١.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٦٣.

أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة»[١].

ومن حسن معاشرته لقومه يقول أنس ـ خادمه ـ «والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه: لِمَ فعلته؟ ولا لامني نساؤه، إلّا قال: دعوه، إنما كان هذا بكتاب وقدر»[٢].

وعن أنس يقول: «كان (ص) لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلّا قال: لبيك»[٣].

وعنه أيضاً: «.. ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويكني من لم يكن له كنية، فكان يدعىٰ بما كناه له ويكني أيضاً النساء اللواتي لهن أولاد، واللّاتي لم يلدن، ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم»[٤].

٦ ـ ومن المعالم العامة للمنهج التغييري عند النبي الخاتم (ص) أيضاً:

أ ـ الجمع بين العلم والعمل وإن أقواله ومفاهيمه هي صنو لعمله وممارساته فلا يقول ما لا يعمل، ولا يدعو لأمر يخالفه في سلوكه، حتى خاطبه ربّه عزّوجلّ بشأن عبادته لله تعالى: ﴿**طه ما أنزلنا عليك**

---

(١) سنن النبي (ص)، للسيد محمد حسين الطباطبائي، ٦٠ عن كشف الريبة للشهيد الثاني.

(٢) و (٣) سنن النبي، ص ٥٢.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

القرآن لتشقى ﴾.

ب ـ الاقتران في مسيرته وبرامجه العملية بين التفاؤل والحذر.

إن هذه الايجابية الواقعية في خطط النبي (ص) وممارساته العمليه لا تستغرق في التفاؤل المجنح، ولا الحذر المرعب الذي يقتل الآمال، وإنما هو بشير ونذير فيما أرسل به، وفيما يدعو إليه، ويدعو من خلاله.

ج ـ ومن معالم منهجه العظيم في العمل والتغيير أنه لم يترك التجربة الإسلامية دون أن يوفر لها من بعده من ينهض باعباء قيادتها قيادة توفر مستلزمات تحقيق أهدافها.

وهكذا باشر الاعداد المباشر لشخصية علي بن أبي طالب (عليه السّلام) ليكون إمام الناس بعد رسول الله (ص): «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي»، «من كنت مولاه فهذا علي مولاه».

د ـ ومن معالم المنهج التغييري عند النبي (ص) أنه يتعامل مع أفكار الآخرين ـ وان كانت بعيدة عن الحق ـ بعقل مفتوح، حتى يُشعر أصحابها بالاحترام، والتقدير. ﴿**وانا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾[(١)].

والطرح القرآني لمناهج الآخرين وأفكارهم، وطريقة التعامل معها، يمثل نماذج للهدي النبوي في هذا السبيل.[(٢)]

---

(١) سبأ، ٢٤.

(٢) تلاحظ سورة الشعراء والقصص وهود وغيرها.

هذه بعض معالم المنهج التغييري عند رسول الله (ص) التي سلكها (ص) في تخطيطه وبرامجه العملية، نسأله تعالى أن يوفق العاملين للإسلام للاستنارة بها على طريق دعوتهم إلى الله، ودينه القويم.

حول التجربة الاجتماعية لأئمة أهل البيت (ع)

مقدمة

تشكل سيرة أهل بيت النبي الخاتم (ص)، وخطوات مسيرهم في الحياة العامة والخاصة اطروحة متكاملة ومتميزة في العمل الإجتماعي الإسلامي، وتعود خلفيات ذاك التكامل في اطروحتهم (عليهم السّلام) في العمل إلى طبيعة مسيرتهم التي دشنها جدهم الرسول الأعظم (ص)، لتنتهي بخطوات الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري (عليه الصّلاة والسّلام).

فهذه المسيرة الهادية قد حملت مفاهيم وتصورات وخطوات عمل ومبادرات عديدة تبلورت في ضوء العديد من الظروف والتعقيدات والأوضاع، التي كيّف الأئمة (ع) أساليب عملهم وخطواتهم على ضوئها.

وهذه بعض الملاحظات الأساسية حول التجربة العامة لأئمة أهل البيت (ع):

١ ـ لو أجرينا متابعة واعية لخطوات الأئمة (ع) في مسيرة عملهم

الجهادي من أجل الإسلام وحركة التغيير باتجاه نهضة الإنسان لوجدنا إن كل خطوة من الخطوات التي سلكها الأئمة (ع) عبر مسيرة عملهم إذا لم تربط بظرفها الموضوعي الذي عاشه الإمام (ع)، وإذا لم تقيد بأرض الواقع الذي راعاه الإمام (ع)، فإن الخطوات والمبادرات ـ إذا لم تلحظ من خلال سياقها التاريخي ذاك ـ تبدو للمتابع متناقضة متنافرة أما إذا ارتبط كل حكم بموضوعه، وكل قضية بحيثياتها، فإن الباحث سيجد أمامه اطروحة عمل حية متكاملة ممتدة في أعماق التاريخ الإسلامي.

فالباحث إذا شاء أن يدرك القيمة المعنوية والعملية لمفهوم «التقية» عند أهل البيت (ع) مثلاً فلابدّ له من معرفة الظروف والأوضاع التي شرع من أجلها هذا المفهوم، ومن شاء أن يدرك مثلاً القيمة المعنوية والتاريخية لعمليات المقاومة التي مورست برعاية الأئمة (ع) مثلاً فلابدّ أن يعود إلى الأرضية التي اقتضت هذا اللون من التحرك، الأمر الذي يصلح للانطباق على سائر المفاهيم والمبادرات التي باشرها الأئمة (ع)، وبدون هذه العملية تبدو مبادرات الأئمة وممارساتهم ميتة أو مشوهة أو غير ذات قيمة.

٢ ـ تختلف اطروحة الأئمة (ع) في العمل الإجتماعي والتي تعني فيما تعنيه: عملية تطبيق مبادئ الدعوة إلى الإسلام الحنيف، وقيمه في ضوء الظروف والأوضاع التي عاشوها... تختلف عن سواها من تطبيقات الدعاة إلى الإسلام عبر التاريخ الإسلامي بأن مشروع الأئمة (ع) كان معصوماً وليس مجرد تجربة اجتهادية باشرها دعاة مخلصون فحسب.

وهذه الخصوصية التي تتميز بها اطروحة الأئمة (ع)، تساهم في تحديد الموقع الذي تحتله في التجربة الإسلامية الممتدة عبر التاريخ، إضافة إلى أن هذه الخصوصية تحدد طبيعة الموقف المطلوب تجاه هذا المشروع المبارك من قبل العاملين الإسلاميين عبر التاريخ.

٣ ـ ومبادئ أهل البيت (ع) في العمل الإسلامي يمكن استقراؤها في حقول ثلاثة:

أ ـ السيرة العملية للأئمة (ع) خصوصاً ما يتعلق منها بوسائل العمل في سبيل الإسلام كالاتصال بالجماهير، ووسائل نقل الأفكار، ورفع مستوى الخواص، والدعم الخفي للمقاومة المشروعة وما إلى ذلك.

ب ـ الأحاديث ذات الجنبة الأخلاقية على وجه الخصوص، والتي تشكل بمجموعها أساليب عمل، أو أسساً للعلاقات الطيبة أو غيرها، وقد اصطلح عليها بأحاديث الأخلاق، حيث جمعت أغلبها في كتب الأخلاق والفضائل النفسية كأحاديث حسن الخلق، وحسن الصحبة والكتمان، وذم الاشاعة وغيرها.[١]

جـ ـ الأحاديث التي اصطلح عليها بالحكميات من أحاديث أهل البيت (ع) من قبيل:

«كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب».

«صدر العاقل صندوق سره، والبشاشة حبالة المودة، والاحتمال قبر العيوب».

«خالطوا الناس مخالطة إن متّم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنّوا

---

(١) أنظر الكافي، المجلد الثاني.

إليكم».

«أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم».

«أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلّا ويد الله بيده يرفعه».

«لنا حق فإن أعطيناه، وإلّا ركبنا اعجاز الإبل وإن طال السرى»[١].

فمن هذه الحقول الثلاثة يتضح بجلاء الهيكل العام لاطروحة أهل البيت (ع) في العمل الاجتماعي بوجهها النظري والتطبيقي معاً.

(١) اختيرت هذه الحكميات من نهج البلاغة «باب المختار من حكم أمير المؤمنين (ع)».

من معالم منهاج الأئمة في العمل الإجتماعي

من الدراسة الموضوعية الشاملة لسيرة الأئمة الهداة (ع) تبرز العديد من المعالم والأهداف والمفاهيم والمزايا من خلال خط سيرهم المبارك، من أجل التغيير، والنهوض بالإنسان وبمقدورنا أن نسجل في هذه الدراسة المتواضعة في هذا المضمار المعالم الآتية:

١ ـ مصلحة الإسلام هي الحاكمة في المسيرة العامة وفي التفاصيل.

٢ ـ «العموم» و «الخصوص» في حركة الأئمة (ع).

٣ ـ الحفاظ على الخط وتغيير الوسائل.

٤ ـ موقع الأمة في خط أهل البيت (ع).

٥ ـ منهج التدرج في عملية البناء.

١ ـ مصلحة الإسلام هي الحاكمة، في المسيرة العامة وفي التفاصيل

لو اجريت عملية استقراء دقيق لخلفيات المواقف المدوية في سيرة الأئمة (ع) فضلاً عن سواها، للوحظ إن تلك المواقف التاريخية قد نتجت عن تقدير الأئمة (ع) لمصلحة الإسلام والمسلمين المتمخضة عن اتخاذ المواقف المذكورة دون سواها.

فمصلحة الإسلام كرسالة ومصلحة المسلمين كأمة كانتا محوراً

أساسياً لحركة الأئمة (ع) باتجاه السلب أو الإيجاب، حتى وإن تعلق تقدير الأئمة (ع) للمصلحة في تعرض حياتهم للخطر كما جرى للسبط الشهيد أبي عبدالله الحسين (ع) الذي أقدم على الشهادة بعد تقديره بأن حياة الرسالة وبقاءها يقتضي أن يواجه القتل صبراً في سبيل الله تعالى:

«إن هؤلاء قوم لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض، وأبطلوا الحدود، وشربوا الخمور، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين، وأنا أولى من قام بنصرة دين الله واعزاز شرعه والجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا»(١).

«حدثني أبي إن رسول الله أخبره بقتله وقتلي، وإن تربته تكون بالقرب من تربتي»(٢).

وإذا قدر لنا أن نحصي المبادرات التي باشرها الأئمة (ع)، وبرز فيها عنصر تقديم المصلحة الإسلامية العليا على أي اعتبار بشكل صريح لا يسمح بأي شكل من أشكال التأويل أو الصرف إلى وجهة أخرى لوجدنا الكثير الكثير.

فالإمام أميرالمؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) حين رأى أن كثيراً من مظاهر البلبلة التي أعقبت وفاة رسول الله (ص) بدأ أعداء الإسلام

---

(١) تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، (ت ٦٥٤)، ط ١٤٠١ هـ، مؤسسة أهل البيت، بيروت، ص ٢١٨.

(٢) مقتل الحسين (ع)، عبدالرزاق الموسوي المقرم، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩، ص ١٣٨.

يستثمرونها لصالح حرصهم على هدم البناء الشامخ الذي بناه المصطفى (ص)، وكان أبرز المخاطر ظهور حركة الارتداد واتساع رقعتها.. أزاء هذا الوضع جمد الإمام (ع) موقفه المعارض الصريح لما تمخضت عنه عملية «السقيفة» حرصاً منه على الإسلام، وحفظاً لبيضته. إذ يقول (ع) بهذا الصدد ما يلي:

«فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد ر جعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله إن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل..»[1].

والإمام السبط الحسن بن علي (عليه السّلام) إنما كان إبرام هدنته مع معاوية بن أبي سفيان ناجماً عن تقديره الواضح لمصلحة الإسلام والمسلمين، ورغم معاناته الشديدة من أجل بلورة هذا الأساس الذي بنى عليه تصوره لأرضية الهدنة بوسائل عديدة فإنه (ع) كشف النقاب في بعض المناسبات عن هدفه الذي لم يُدرك من قبل الكثير من أصحابه، يقول (ع) موضحاً الضابط الذي تحكّم في موقفه التاريخي ذلك:

«إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن

---

(١) نهج البلاغة، ط ١، بيروت ١٩٦٧، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص ٤٥١.

يكون للدين داع»[١].

وقد علق الإمام محمد بن علي الباقر (ع) على موقف السبط ذاك موضحاً أهمية ما حققته المسيرة الإسلامية من خلاله بقوله: «والله للذي صنعه الحسن بن علي كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس»[٢].

وإذا قدر لباحث أن يعدد المواقف العظيمة الشهيرة التي تنطلق بمفهوم حرص أهل البيت (ع) على تحقيق المصلحة الإسلامية، فليس له أن يتخطى سمو الروح السجادية التي تعامل من خلالها مع الجيش الذي ربما كان سياجاً لحماية السلطان الأموي في بلاد المسلمين فالسجاد علي بن الحسين (ع) رغم جرحه النازف الذي سببه حكم الأمويين من خلال مجزرة كربلاء الحمراء، فإنه لم يَرَ بداً من رفع يدي الضراعة إلى الله تعالى أن يحفظ جيش المسلمين، ويسدد رميتهم، ويشحذ أسلحتهم، ويرعب أعداءهم في دعاء خاشع مخلد اصطلح عليه بدعاء الثغور[٣]، كل ذلك رعاية لمصلحة الإسلام العليا التي ارتبطت بذلك الجيش بشكل ما في انتصار المسلمين على أعدائهم من الكفار والمتربصين بالإسلام.

---

(١) حياة الحسن بن علي / باقر شريف القرشي، ج ٢، ص ٢٨١، ط ٣، النجف الأشرف، ١٩٧٣م.

(٢) روضة الكافي، ح ٨، ص ٣٣٠.

(٣) الدعاء (٢٧) من الصحيفة السجادية.

من خلال هذه النماذج الحية من تاريخ الأئمة الهداة (ع) تتجلى عملية تقديم المصلحة الإسلامية العليا في سيرتهم الهادية على أية مصلحة أو عنوان آخر بشكل صريح، وفي السيرة المطهرة نماذج كثيرة مبثوثة هنا وهناك.

٢ ـ العموم والخصوص في حركة أئمة أهل البيت (ع)

تميزت حركة الأئمة (ع) من أجل التغيير الإسلامي باهتمامها بمحورين اثنين معاً:

أ ـ محور عموم الأمة.

ب ـ ومحور العمل الخاص الهادف لبلورة الكتلة الشيعية ضمن إطار الأمة لتحمل متبنيات الأئمة (ع) في الفكر والعمل.

فقد تناول اهتمام الأئمة (ع) في الحقل العام: المستوى الفكري للأمة وحمل همومها، والحدب عليها، والتخفيف من المظالم الواقعة عليها من الظالمين وما إلى ذلك من أمور.

وانصب الإهتمام في الإطار الخاص على انتقاء الأشخاص القادرين على تحمل أعباء المسؤولية، ومن ثمّ تأهيلهم فكرياً وروحياً وسلوكياً لحمل هموم الرسالة، ومباشرة عملية التغيير الإيجابي في الأمة.

وفي المسيرة المدونة عن أهل البيت (ع) مصاديق جمة حول حركة الأئمة (ع) على المستويين:

أ ـ من مصاديق العمل العام:

وهذه بعض مفردات حركة الأئمة (ع) العامة:

ـ فالإمام محمد بن علي الباقر (ع) يوصي عمر بن عبدالعزيز الأموي: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً، فارحم ولدك، وصل أخاك، وبرَّ والدك، وإذا صنعت معروفاً فربّه ـ أدمه ـ»[(١)].

ـ «أقبل أبو جعفر «الباقر» وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج..»[(٢)].

ـ «حججنا مع أبي جعفر عليه السّلام في السنة التي حج فيها هشام بن عبدالملك وكان معه نافع مولى عمر بن الخطّاب، فنظر نافع إلى أبي جعفر (ع) في ركن البيت وقد اجتمع عليه الناس، فقال نافع:

ـ يا أميرالمؤمنين من هذا الذي قد تداكَّ عليه الناس»[(٣)]؟

ـ «وعن زكريا بن إبراهيم: كنت نصرانياً، فأسلمت، وحججت، فدخلت على أبي عبدالله ـ الصادق ـ عليه السّلام بمنى، والناس حوله كأنه معلم صبيان هذا يسأله، وهذا يسأله»[(٤)].

ـ ويكشف أميرالمؤمنين علي (ع) عن أبعاد اهتمامه بالأمة، فيقول: «هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ح ٢.

(٢) حلية الأبرار، السيد هاشم البحراني، ت ١١٠٧، ح ٢، ص ٩٧، مط العلمية، قم.

(٣) نفس المصدر، ص ٩٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٤٥.

بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً، وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى... أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أميرالمؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش..»[١].

تلك مصاديق لحركة الأئمة (ع) على المستوى العام للأمة حيث يوفر الهداة (عليهم السّلام) الرعاية المعنوية والمادية لحركة الأمة وفقاً للامكانات المتاحة وما تتوفر من ظروف مناسبة.

ب ـ من شواهد التحرك الخاص:

أما على مستوى بناء جهاز «الخواص» من هذه الأمة، فللأئمة (عليهم السّلام) برنامج دقيق لبناء تلك الكتلة وتنميتها كمياً وكيفياً..

وهذه بعض مفردات ذلك البرامج:

ـ فمن وصايا الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، وتوجيهاته ما يلي: «اقرأ من ترى أنه يطيعني منكم، ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّوجلّ، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلّى الله عليه وآله.

أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإن الله كان يأمر بأداء الخيط، والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق

---

(١) نهج البلاغة، ص ٤١٨، ط بيروت، ١٩٦٧م.

الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هـذا جـعفري، ويسرني ذلك، ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جـعفر، وإذا كان غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره وقيل: هذا أدب جعفر»[١].

- «اتقوا على دينكم فاحجبوه بالتقية، فإنه لا إيمان لمـن لا تـقية له..»[٢].

- عن إسحاق بن عمار قال: «قلت لأبي عبدالله (ع) قد هممت أن أكتم أمري من الناس كلّهم حتى أصحابي خاصة، فلا يدري أحد عليَّ ما أنا عليه، فقال: ما أحب ذلك لك، ولكن جالس هؤلاء مرة وهؤلاء مرة»[٣].

«استقبلت أبا عبدالله عليه السّلام في طريق، فأعرضت عنه بوجهي ومضيت، فدخلت عليه بعد ذلك، فقلت: جـعلت فـداك إنـي لالقـاك، فاصرف وجهي كراهة إن أشق عليك، فقال لي: رحمك الله، ولكن رجلاً لقيني أمس في موضع كذا وكذا فقال: عليك السّلام يا أبا عبدالله، مـا أحسن ولا أجمل»[٤].

«عن علي بن الحسين (ع) قال: وددتُ والله إني افتديت خصلتين

---

(١) الإمـام الصـادق، محـمد الحسين المظفري، ح ٢، ص ٥٣، ط ٢، النـجف الأشرف، ١٣٦٩ هـ.

(٢) الأصول من الكافي، ح ٢، ص ٢١٨، طهران، ط ٣، ١٣٨٨ هـ.

(٣) مخـتصر بـصائر الدرجـات، الشيخ حسـن بـن سـليمان الحـلي، ط ١، ١٩٥٠، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ص ١٠٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٢١٩.

في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النزق، وقلة الكتمان»[١].

«إن أولياء الله وأولياء رسوله من شيعتنا من إذا قال: صدق وإذا وعد وفى، وإذا أؤتمنَ أدى، وإذا حمل احتمل في الحق، وإذا سئل الواجب أعطى، وإذا أمر بالحق فعل، شيعتنا من لا يعدو علمه سمعه، شيعتنا من لا يمدح لنا معيباً، ولا يواصل لنا مبغضاً، ولا يجالس لنا خائناً، إن لقي مؤمناً أكرمه، وإن لقي جاهلاً هجره، شيعتنا من لا يهر هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل أحداً إلّا من اخوانه، وإن مات جوعاً، شيعتنا من قال بقولنا، وفارق أحبته فينا، وأدنى البعداء في حبنا، وأبعد الغرباء في بغضنا»[٢].

وإذا تتبعنا حركة الأئمة (ع) من الناحية التاريخية لوجدنا إن كلا المحورين المذكورين من عملهم قد مورسا في عهد كل إمام منهم ولكن مساحة عمل أي إمام أو مجموعة من الأئمة (ع) على صعيد هذا المحور أو ذاك تتسع أو تضيق حسب الظروف المحيطة والامكانات المتاحة للحركة.

والإمام الذي تتاح له ظروف العمل بشكل مناسب يتسع إطار عمله العام، وعمله الخاص معاً، وعلى العكس تماماً تكون حركة الإمام الذي لا تتاح له ظروف العمل.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٢) من كلام للإمام محمد بن علي الباقر (ع) أورده الشيخ باقر شريف القرشي، في حياة الإمام محمد الباقر، ح ١، مط النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٧، ص ٢٤٧.

على إني لم أجد مبرراً كافياً للقول بأن الأئمة الأوَل من أئمة أهل البيت (ع) «وهم علي بن أبي طالب وولداه الحسن والحسين وحفيده السجاد علي بن الحسين» قد انصرفوا تماماً لامتصاص الصدمة التي خلفتها أوضاع ما بعد السقيفة، مع وجود أدلة كثيرة على تحركهم (ع) على المحورين معاً وأن كثفوا عملهم العام على امتصاص الصدمة المذكورة.

وبناء على ذلك فإن هذا قد يصح إذا أريد به تبرير حركة الأئمة المذكورين على مستوى العمل العام من بعض وجوهه، أما العمل الخاص، وصنع الكوادر، واعداد «الخواص» فهو عملية لم ينشغل عنها أي إمام أبداً.

٣ـ الحفاظ على الهدف وتغيير الوسائل

مهمة الحفاظ على «الخط» قيمة أساسية يحرص أئمة أهل البيت (ع) على التمسك بها تحت وطأة أي ظرف أو وضع، يبذلون لها الغالي، ويسترخصون لها النفوس، وأبو عبدالله الحسين السبط (ع) نموذج مجسد لهذه الحقيقة.

بيد أن مهمة الحفاظ على الهدف الكبير تساوقها عملية التبديل للأساليب كلما اقتضت الحكمة ودعت الظروف لذلك، الأمر الذي يفسر التفاوت في أساليب العمل في سبيل الله تعالى لدى الأئمة (ع)، بل ويفسر التفاوت في الأساليب التي يتبعها الإمام الواحد من أئمة أهل البيت (ع) في ظروف متفاوتة وأوضاع متباينة.

وفي تجربة الإمام السجاد (ع) والإمام الصادق (ع)، والإمام الرضا (ع) وغيرهم مصاديق حيّة لمن أراد أن يرسم خطاً بيانياً للأساليب والممارسات المتبعة لدى الأئمة (ع) حسب الظروف التي تمر بها مسيرتهم المباركة.

وهذه نماذج من وسائل الأئمة (ع) في العمل في سبيل الله:

أ ـ الأئمة يستخدمون القنوات المألوفة لنقل مفاهيمهم

حين يتعذر على الأئمة (ع) نقل الأفكار الصحيحة من خلال قنواتهم هم فإن من الأساليب التي يسلكها الأئمة (ع) لابلاغ مفاهيمهم ورؤاهم للأمة: أسلوب الاستفادة من القنوات والعناوين التي تقرها الأوضاع العامة، فبدلاً من أن يروي الإمام (ع) الأفكار والمفاهيم التي تلقاها عن النبي (ص) مباشرة أو بالواسطة فإنه رعاية للظروف التي لا تسمح بتبني عمل من هذا القبيل يباشر عملية نقل الأفكار على قناة أخرى تقرها الأوضاع الرسمية أو العرف العام.

فالإمام محمد بن علي الباقر (ع) مثلاً كان يروي المفاهيم التي يريد إبلاغها للناس بواسطة جابر بن عبدالله الأنصاري وعمر بن الخطّاب وعبدالله بن عباس وزيد بن أرقم وأبي ذر الغفاري وغيرهم.

فهو يروي عن عمر بن الخطّاب قوله: «سمعت النبي (ص) يقول: كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي»[1].

---

(١) حياة الإمام محمد الباقر، ص ١٧٢، نقلاً عن طبقات ابن سعد، ٤٦٣/٨.

ويروي عن جابر بن عبدالله الأنصاري قوله: إنّ النبي (ص) كان يتختم بيمينه»[١].

ويروي عن زيد بن أرقم قوله: «كنّا جلوساً بين يدي النبي (ص)، فقال (ص): ألا أدلكم على من إذا استرشدتموه لن تضلوا، ولن تهلكوا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هذا ـ وأشار إلى علي بن أبي طالب ـ ثمّ قال: واخوه، ووازروه، وصدقوه، وانصحوه، فإن جبرئيل أخبرني بما قلت لكم»[٢].

وهذا أسلوب سلكه كثير من الأئمة الأطهار (ع) لايصال مفاهيمهم وقناعاتهم إذا اضطروا إلى ذلك، أو لاحظوا تعقيداً في سلوك غيرها!

ب ـ مراعاة الظروف العقلية والسياسية والنفسية للأمة.

عن يعقوب السراج قال: «سألني أبو عبدالله (ع) عن رجل، فقال: إنه لا يحتمل حديثنا، فقلت: نعم، قال: لا يُغفَل، فإن الناس عندنا درجات منهم على درجة، ومنهم على درجتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، حتى بلغ سبعاً»[٣].

عن معاوية بن عمار عن أبي عبدالله (ع) قال: «قال لي يا معاوية أتريدون أن تكذبوا الله عزّوجلّ في عرشه؟ لا تحدثوا الناس إلّا بما

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٢، نقلاً عن علل الشرائع.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٣، نقلاً عن مناقب المغازلي الشافعي.

(٣) مختصر بصائر الدرجات، ص ٩٧.

يحتملون..»[1].

عن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبدالله (ع)، فسألته عن حديث كثير، فقال: هل كتمت عليَّ شيئاً قط، فبقيت أتذكر، فلما رأى ما حلّ بي قال: أمّا ما حدّثت به أصحابك، فلابأس به إنما الاذاعة إن تحدّث به غير أصحابك»[2].

٤ ـ موقع الأمة في خط الأئمة (ع)

الأمة في خط الأئمة (ع) أداة التغيير والنهضة، ومصلحة الأمة ورعاية شؤونها في نظرهم تحتل الموقع الثاني بعد مصلحة الإسلام كدين ورسالة.

وتتجلى أهمية الأمة في خط الأئمة من خلال محورين:

أ ـ محور الحرص على المسلمين كأمة.

ب ـ محور الحرص على رفع غائلة الظلم والأذى الذي يلحق المسلمين بسبب التطبيق المنحرف للتشريع الإسلامي.

وإذا كان المحور الأول مكرساً للاهتمام بالمسيرة العامة للأمة باعتبار فعلها الحضاري في التاريخ، فإن المحور الثاني من اهتمام الأئمة (ع) يدور حول المعاناة العامة واليومية للجماعات والأفراد التي تتمخض عن سوء التطبيق للشريعة الإلهية في دنيا الناس.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٠٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٠٢.

ونستطيع أن ندون قائمة طويلة من مصاديق عمل الأئمة (ع) على كلا المستويين.

ـ فمن مصاديق المحور الأول ما يلي:

علي ينصح عمر بن الخطّاب: «إنك متى تَسِرْ إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، ولا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مجرباً، واحفز معه أهل البلاء، والنصيحة، فإن أظهر الله، فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت ردأ للناس، ومثابة للمسلمين»[١].

«لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلّا عليَّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله..»[٢].

«إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض..».

ففي النص الأول ينصح الإمام علي (ع) الخليفة الثاني بضرورة البقاء في عاصمة الدولة الإسلامية دون أن يسير بنفسه إلى الفرس، لأن تعرضه إلى النكبة في حالة مسيره إلى جبهة الحرب سيسبب انتكاسه المسلمين وشيوع البلبلة في صفوفهم لا سيما وأنه الرجل الأول في

---

(١) من نصيحة الإمام علي (ع) حين استشاره الخليفة الثاني بخصوص غزو الروم أو الفرس. يراجع نهج البلاغة، ص ١٩٣. كانفة: ملجأ يلجؤون إليه. المثابة: المرجع.

(٢) من كلام الإمام (ع) بعد أن عزموا على بيعة عثمان بن عفّان خليفة، ص ١٠٢، من نهج البلاغة.

نظر العامة والعدو.

وفي النص الثاني يؤكد أميرالمؤمنين (عليه السّلام) على ضرورة سلامة أمور المسلمين رغم ما يقع على ذاته المقدسة من ظلم وأذى.

وفي المقطع الثالث يبرر الإمام السبط الحسن بن علي (ع) عهده مع خصمه معاوية بأنه عائد إلى حرصه على المسلمين وشوكتهم.

ومن مصاديق المحور الآخر لعمل الأئمة (ع) ما يلي:

ـ الإمام علي (ع) يربي عامل الإرادة لدى الأمة:

«فلا تكلموني بما تكلّم به الجبابرة، ولا تتحفظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل»[١].

ـ الإمام (ع) يأمر ولاته بالانصاف للأمة:

«انصف الله، وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك ألّا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده»[٢].

ـ رعاية الأئمة للمحتاجين من الناس:

عن عمرو بن ثابت: «لما مات علي بن الحسين، فغسلوه، جعلوا

(١) نهج البلاغة، رقم النص ٢١٦. البادرة: الغضب.

(٢) نفس المصدر، نص ٥٣.

ينظرون إلى آثار سواد في ظهره، وقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جراب الدقيق ليلاً على ظهره يعطي فقراء المدينة».

ـ مواساة المحرومين:

يقول أميرالمؤمنين (ع): «على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل واللباس ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير، فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً»(١).

ـ مع الأمة في عسرها:

عن حماد بن عثمان قال: «أصاب أهل المدينة غلاء، وقحط حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله، ويشتري ببعض الطعام، وكان عند أبي عبدالله (الصادق) (ع) طعام جيد قد اشتراه أول السنة، فقال لبعض مواليه: اشتر لنا شعيراً، فأخلطه بهذا الطعام أوبِعْه، فأنّا نكره أن نأكل جيداً، ويأكل الناس ردياً»(٢).

٥ ـ منهج التدرج في عملية البناء

التدرج في الدعوة للمبادئ وفي عملية البناء والتغيير الاجتماعي ضرورة تفرضها طبيعة مهمة تلك الدعوة، وليست هي حاجة آنية أو ظرفية تستغني عنها الرسالة إذا أنتفت تلك الحاجة أو تغير ذلك الظرف.

---

(١) تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، ١١٨.

(٢) حلية الأبرار، ح ٢، ص ١٩٣.

ثمّ إن التدرج في دعوة الناس للرسالة يتطلب تحقيق هدفين معاً:

أ ـ اعداد المخاطبين بالأفكار الجديدة نفسياً لتقبل تلك الأفكار قبل القاء «الفكرة الكلّية» عليهم دفعة واحدة.

ب ـ ونقل المخاطبين من أجوائهم وقناعاتهم السابقة، وتطوير عقلياتهم في اتجاه تبني الرسالة الجديدة.

فإذا تحقق هذان الهدفان للرسالة صار بمقدور العملية التغييرية في الناس أن تجري لحساب الرسالة، أما إذا أريد أن تجري عملية رفع الناس إلى مستوى الرسالة دون توفير الهدفين المذكورين فإن القاء الفكرة الكلّية بتفاصيلها على الناس دون مراعاة للظروف النفسية ولا للأجواء الفكرية، ولا لقناعات الجمهور ـ إن ذلك ـ سيؤدي إلى هزة أو ردة فعل عنيفة تفقد الرسالة أهم شروط النجاح في مهمتها:

يقول تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾.

وقد وفقت تجربة أهل البيت (ع) في العمل الاجتماعي في إعطاء ضرورة التدرج في العمل التغييري بعدها العملي الحكيم إتماماً لمسيرة المصطفى (ص) في هذا السبيل وربما كان لظروف الأئمة (ع) الخاصة، وطبيعة معاناتهم والأجواء النفسية والعقلية والسياسية التي عاشوها دوراً أساسياً في اثراء تجربتهم في هذا الجانب من خططهم ومسيرتهم الهادية.

ونستطيع أن نلتقي مع مئات الشواهد التي تكرس منهج الأئمة (ع)

التدرجي في العمل في سبيل الله تعالى من خلال وصاياهم (ع) في هذا الاتجاه أو من خلال الممارسة العملية أو من خلال المفاهيم التي يبثونها في الذين يندمجون بخطهم المبارك أو من حولهم.

ـ قضية التدرج في مستوى التخطيط:

وعلى مستوى التخطيط لهذه القضية يبث الأئمة (ع) فكرة التدرج في العمل الاجتماعي على أصعدة شتى، ومن خلال العديد من الاثارات الفكرية.

فالإمام محمد بن علي الجواد (ع) يبلور فلسفة التدرج في العمل الاجتماعي بالنص الواضح التالي:

«إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له»[(١)].

والإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) يوضح فكرة التدرج بعبارة دالة موحية:

«إنّ الله رفيق يحب الرفق، فمن رفقه بعباده: تسليله أضغانهم ومضادتهم لهواهم، وقلوبهم، ومن رفقه بهم أنه يدعمهم على الأمر يريد ازالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة، فيضعفوا، فإذا أراد نسخ الأمر بالآخر، فصار منسوخاً»[(٢)].

«يا عبدالعزيز! إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة، مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ط ٥، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٣٧.

(٢) أصول الكافي، ح ٢، ط ٣، ص ١١٨ (باب الرفق).

شيء حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة، فارفعه إليك برفق، ولا تحملن عليه ما لا يطيق، فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره»(١).

ـ التدرج في مستوى التطبيق:

حرص الأئمة (عليهم السّلام) على تنفيذ مشروع التدرج في العمل الاجتماعي الذي أشرنا إلى الحيثيات الموجبة لتبنيه في نظرهم، على مستوى حركتهم هم، وعلى مستوى حركة المندمجين في خطهم من المؤمنين وفي السيرة المطهرة للأئمة (ع) مصاديق كثيرة في هذا المضمار:

١ ـ عن عمار بن الأحوص قال: قلت لأبي عبدالله (ع): «إن عندنا قوماً يتولون بأميرالمؤمنين (عليه السّلام)، ويفضلونه على الناس كلّهم، وليس يصفون ما نصف من فضلكم، أنتولاهم؟ فقال لي:

نعم في الجملة، أليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولرسول الله عند الله ما ليس لنا، وعندنا ما ليس عندكم، وعندكم ما ليس عند غيركم إن الله وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثمّ قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل، ثمّ قسم لبعض الناس السهم، ولبعضهم السهمين، ولبعض الثلاثة الأسهم ولبعض الأربعة الأسهم، ولبعض الخمسة أسهم، ولبعض

---

(١) وسائل الشيعة، ح ٦، ط ٢، بيروت، ص ٤٢٨.

الستة أسهم، ولبعض السبعة أسهم، فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة أسهم، ولا على صاحب الثلاثة أربعة أسهم، ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم ولا على صاحب الخمسة ستة أسهم، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم فتثقلوهم وتنفروهم، ولكن ترفقوا بهم وسهلوا لهم المدخل».

ويقدم الإمام الصادق (ع) نموذجاً لأساليب العمل الخاطئة بقوله: «وسأضرب لك مثلاً تعتبر به أنه كان رجل مسلم، وكان له جار كافر، وكان الكافر يرافق المؤمن، فلم يزل يزين له الإسلام حتى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله فذهب به إلى المسجد ليصلي معه الفجر جماعة، فلما صلّى قال له: لو قعدنا نذكر الله حتى تطلع الشمس، فقعد معه، فقال له: لو تعلمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل، فقعد معه وصام حتى صلّى الظهر والعصر، فقال له: لو صبرت حتى تصلّي المغرب والعشاء الآخرة كان أفضل، فقعد معه حتى صلّى المغرب والعشاء الآخرة ثمّ نهضا، وقد بلغ مجهوده، وحمل عليه ما لا يطيق، فلما كان من الغد غدا عليه وهو يريد مثل ما صنع بالأمس، فدق عليه بابه، ثمّ قال له: اخرج حتّى نذهب إلى المسجد، فأجابه أن انصرف عنّي فإن هذا دين شديد لا أطيقه، فلا تخرقوا بهم، أما علمت أن إمارة بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور، وأن إمامتنا بالرفق والتألف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع

والاجتهاد، فرغبوا الناس في دينكم وفي ما أنتم فيه»[١].

٢ ـ عن أبي عبدالله (ع) (في حديث) أنه جرى ذكر قوم، قال: «فقلت له: أنّا لنبرأ منهم أنهم لا يقولون ما نقول، قال: فقال: يتولونا ولا يقولون ما تقولون تبرأون منهم؟ قلت: نعم، قال: فهو ذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم ـ إلى أن قال ـ فتولوهم ولا تبرأوا منهم أن من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولا صاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة، ولا صاحب الثلاثة على ما عليه صاحب الأربعة، ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة، ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاح الستة، ولا صاحب الستة على ما غليه صاحب السبعة. «ويقدم الإمام (ع) نموذجاً عملياً حول أهمية مفهوم التدرج في العمل» فيقول: وسأضرب لك مثلاً، إن رجلاً كان له جار وكان نصرانياً فدعاه إلى الإسلام وزينه له فأجابه، فأتاه سحيراً فقرع عليه الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضأ والبس ثوبيك ومرّ بنا إلى الصلاة، قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصلّيا ما شاء الله، ثمّ صلّيا الفجر، ثمّ مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانياً يريد منزله، فقال الرجل: أين تذهب

---

(١) وسائل الشيعة، ح ٦، ص ٤٢٩ ـ ص ٤٣٠.

النهار قصير، والذي بينك وبين الظهر قليل، قال: فـجلس مـعه إلى أن صلّى الظهر، ثمّ قال: وما بين الظهر والعصر قليل، فاحتبسه حتى صلّى العصر، فأراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنما بقيت صـلاة واحـدة، قال: فمكث حتى صلّى العشاء الآخرة ثمّ تفرقا، فلما كان سحيراً غدا عليه فضرب عليه الباب، فقال: من هذا؟ قـال: أنـا فـلان، قـال وما حاجتك؟ قال: توضأ والبس ثوبيك واخرج فصلّ، قال: اطـلب لهـذا الدين من هو أفرغ منّي، وأنا إنسان مسكين وعليَّ عـيال، فـقال أبـو عبدالله (ع): ادخله في شيء أخرجه منه، أو قال: أدخله من مثل هذه وأخرجه من مثل هذا»[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ح ٦، ص ٤٢٧.

دور أئمة أهل البيت (ع) في وحدة كيان الأمة

ـ صور ومصاديق ـ

مقدمة

تزامنت حالة الاختلاف والتصدع في صفوف المسلمين مع رحيل مؤسس هذه الأمة عبدالله ورسوله محمد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله وسلّم..

ولقد لاقى أهل بيت النبي (ص) أثرة واستضعافاً وتجاوزاً قابلوها جميعاً بالحكمة وقوة الارادة وكظم الغيظ بشكل لم يشهد له تاريخ الرسالات مثيلاً..

فقد ترفع آل النبي (ص) على كل حالات التجاوز والاستضعاف التي ألمَّت بهم حرصاً على وحدة الأمة، وسلامة خط سيرها ووحدة كلمتها وتحقيق أهدافها كما ضحوا بكل مصلحة من أجل وحدة الكلمة ورأب الصدع وحفظ كيان الأمة..

وإذا قدرنا أن نجري استقراء لما تمسك به الأئمة من أجل حفظ كيان الأمة، ووحدة المسلمين، وما تواصوا بالتزامه في هذا الطريق خلفاً عن سلف من خلال الوثائق والأرقام لألفينا حالة من حالات الايثار وتقديم مصلحة الإسلام والمسلمين ما لا نجد لها نظيراً في دنيا

الناس على الاطلاق بينما نجد في تاريخ المسلمين نماذج لا يثير اهتمامها إلّا تحقيق مصالحهم الشخصية، حتى وإن تحمل الإسلام أعباء الخسران والنكوص وتحملت الأمة ضروب الآلام والمحن والكوارث..

وإذا شئنا أن نجري حساباً دقيقاً لمواقف الأئمة من آل البيت (عليهم السّلام)، التي تقطر اهتماماً وحرصاً على كيان الأمة ووحدتها وسلامة شوكة المسلمين لتعذر علينا حساب تلك المواقف وتعدادها كثرة ومساحة.

ومن أجل ذلك، فإننا في هذه الدراسة المتواضعة سنذكر فحسب بعض الأرقام التي تشكل بذاتها منعطفات رئيسية في مسيرة الأمة والإسلام ولولاها لكان للأمة شأن آخر ربما يضعها في عداد الأمم البائدة التي تقرأ الأمم عنها في صفحات التاريخ...

علي بن أبي طالب (ع) الحامي الأول لكيان الأمة

تعرضت الأمة بعد رحيل مؤسسها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلى أزمة حادة كادت أن تعصف بها، وتنهي وجودها لولا الموقف الحكيم الذي وقفه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام)، فإن هذا العبد الصالح مع شدة إيمانه بحقه بضرورة النهوض بأعباء المرجعية الفكرية والاجتماعية والسياسية بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كما صرح بذلك مراراً:

ـ «أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشدون

برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ نوطاً، فإنها كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم الله، والمعود إليه القيامة»[١].

«فوالله مازلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً عليَّ، منذ قبض الله نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى يوم الناس هذا»[٢].

«إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردتَ أن تذمَ فمدحتَ، وأن تفضح فافتضحتَ وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه! وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها»[٣].

أقول: إلّا أن عليّاً (ع) مع ذلك حين رأى المخاطر تهدد كيان الأمة من داخلها ومن الخارج تحامل على جراحاته النازفة، وأعلن للتاريخ والأجيال موقفه الصريح من أجل حماية مستقبل المسلمين ووحدة صفوفهم..

وقد عبّر عن مواقفه المبدئية الصارمة تلك عبر مناسبات عديدة نذكر منها طرفاً:

---

(١) نهج البلاغة، ص ٢٣١.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٣.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٨٧، من جواب لأميرالمؤمنين (ع) على رسالة لمعاوية عيَّره فيها.

١ ـ بعد مبايعة اجتماع السقية لأبي بكر خليفة للمسلمين تخلف أبو سفيان «صخر بن حرب» عن بيعة الخليفة وطفق يجول في أزقة المدينة ويحرض الناس على الخليفة وهو يقول: «ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش، ثمّ جاء إلى علي عليه السّلام وقال له: أبسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فأبىٰ علي بن أبي طالب (ع) عليه وزجره قائلاً: والله إنك ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً»(١).

وقد ذكر المؤرخون تفصيلات أخرى حول تحركات أبي سفيان واصرار الإمام (ع) على زجره ورده.(٢)

٢ ـ واستمر أبو سفيان في تحركه السياسي المذكور فدعا العباس بن عبدالمطلب للضغط على الإمام علي (ع) ـ والعباس كبقية بني هاشم كان موتوراً مما جرى بعد السقيفة كما نعلم ـ، فلما حدّثا عليّاً (ع) بأصرارهما على بيعته والدعوة لخلع أبي بكر طالما الأمر في بدايته، والحكم لم يستتب بعد تحدث الإمام عليه السّلام حديثاً سيبقى غرة على جبين الزمان وقد جاء فيه:

«أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح هذا ماء آجن، ولقمة يغص بها آكلها، ومجتني الثمرة لغير وقت

---

(١) و (٢) راجع الكامل لابن الأثير (حديث السقيفة).

إيناعها كالزارع بغير أرضه»[١].

٣ ـ ومن الأمور الثابتة تاريخياً أن الفترة التي توفي فيها رسول الله (ص)، وما بعدها بقليل كانت من أخطر الفترات التي مرت بها هذه الأمة الوليدة فقد تحرك المنافقون وأرجفوا في داخل الاطار، وظهرت بوادر الردة عن الإسلام في اليمامة واليمن وغيرها حيث ظهر المدعون للنبوة من أمثال سليمة وسجاح والأسود العنسي[٢] وانتشرت دعوة الأول سريعاً فاستقطبت قبائل عربية عديدة، كما تحركت جيوش النصارى في شمال الجزيرة العربية، وأحدق الخطر بالأمة من كل جانب.

وفي هذه الظروف القاسية ذاتها كانت البيعة، قد عقدت لأبي بكر في السقيفة، فماذا يكون موقف علي (ع) ازاء رسالة إلهية هذا وضعها وأمة ودولة فتية هذه ظروفها؟

لقد كان الإمام علي (ع) يرصد حركة الواقع، ويرقب الأحداث من حوله ببصيرة نافذة وكان يعلم أنه إن صعّد من حملته على حكومة الخلافة، وجمع أنصاره والناقمين على الخليفة لأحدث هزة سياسية عنيفة تربك الأوضاع داخل العاصمة، أي إرباك، وربما يحقق مكاسب سياسية لحركته ومحوره لا سيما وإن كثيراً من عناصر القوة كانت إلى جانبه، لعلّ منها: موقف فاطمة بنت النبي (ص) من الخليفة وموقف

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ٥، ص ٥٢.

(٢) اغتيل المدّعي، اللعين: الأسود العنسي في أواخر أيام النبي (ص).

بني هاشم عموماً ـ وهم عشيرة النبي (ص) وأهله ـ إلى جانبه، وتحرك الزبير لصالحه، وموقف أبي سفيان من أبي بكر وما انتجت السقيفة.

إن هذه العناصر ـ مهما كانت دوافع بعضها ـ كانت كافية لهز كيان السلطة وارباكها...

بيد إن علياً (عليه السّلام) وبنَفَس مترفع، حريص على الإسلام ووحدة كيان الأمة، وموقعها في العالم لم يستعمل هذه الأوراق عندما حزب الأمر، وأنذرت الأحداث بالخطر على الإسلام والأمة وإنما ثبت موقفه وحقه في بداية الأمر، ثمّ تخلىٰ عن المواجهة الصريحة التي رأى أنها تربك مسيرة الأمة وتضعف كيانها.. يقول الإمام علي (ع) متحدثاً عن موقفه السامي المترفع ذلك:

«فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أهل بيته، ولا أنهم مُنَحّوه عنّي من بعده، فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه»(١).

(١) كتابه لأهل مصر، نهج البلاغة، ص ٤٥١.

٤ ـ لم يقف الإمام (عليه السّلام) عند هذا الحد وإنما باشر بنشاطات إيجابية في إطار الفكر والتربية والتشريع كلما سنحت له الفرصة.. صحيح إنّه لم يشارك في أي عمل عسكري لا في مستوى قيادي ولا في مستوى مقاتل طوال حكم الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه ولم يشارك في عمل إداري بالمرة إذ لم يعمل قاضياً ولا والياً، ولا عاملاً على الصدقات، ولم يتولَ أي أمر إداري بهذا المعنى أو غيره حرصاً منه (عليه السّلام) على التمسك بشرعية موقفه الذي اتخذه في بداية الأمر، إلّا أنه مع ذلك صار محوراً للتوجيه والتقويم لكثير من أمور المسيرة كلما سنحت الفرصة، وأتيحت له ظروف التصحيح.

وهذه مصاديق حيّة مما حباه الإمام (ع) لمسيرة الأمة في تلك المرحلة:[1]

١ ـ الرياض النضرة ١٩٥/٢ بسنده عن ابن عمر: «إن اليهود جاؤوا إلى أبي بكر فقالوا صف لنا صاحبك فقال: معشر اليهود كنت معه في الغار كأصبعي هاتين، ولقد صعدت مه جبل حراء، وإن خنصري لفي خنصره ولكن الحديث عنه صلّى الله عليه وسلّم شديد، وهذا علي ابن أبي طالب، فأتوا عليّاً فقالوا: يا أبا الحسن صف لنا ابن عمك فقال: لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالطويل الذاهب طولا، ولا

---

(١) جمع المرحوم الشيخ نجم الدين العسكري بعض التوجيهات والتعليمات والمشاريع التي أسداها الإمام (ع) لمسيرة المسلمين في تلك المرحلة فكانت كتاباً قيماً أسماه (علي والخلفاء).

بالقصير المتردد، كان فوق الربعة، أبيض اللون مشرباً حمرة، جعد الشعر ليس بالقطط، يضرب شعره إلى أرنبته، صلت الجبين، أدعج العينين، دقيق المسربة، براق الثنايا، أقنىٰ الأنف، كأنّ عنقه ابريق فضة، له شعرات من لبته إلى سرته كأنها قضيب مسك أسود، ليس في جسده ولا في صدره شعرات غيرهن، وكان شثن الكف والقدم وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر، وإذا التفت التفت بمجامع بدنه وإذا قال غمر الناس، وإذا قعد علا الناس، وإذا تكلّم أنصت الناس، وإذا خطب أبكى الناس، وكان أرحم الناس بالناس، لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالريم الكريم، أشجع الناس، وأبذلهم كفاً، وأصبحهم وجهاً، لباسه العباء وطعامه خبز الشعير وأدامه اللبن، ووساده الأدم محشو بليف النخل، سريره أم غيلان مرمل بالشريط، كان له عمامتان أحدهما تدعى السحاب والأخرى العقاب وكان سيفه ذا الفقار ورايته الغراء وناقته العضباء وبغلته دلدل وحماره يعفور وفرسه مرتجز وشاته بركة وقضيبه الممشوق ولواؤه الحمد وكان يعقل البعير ويعلف الناضح ويرقع الثوب ويخصف النعل»[١].

قال المؤلف وأخرج المجلسي رحمه الله هذه القضية في البحار والعلّامة المحلاتي في كتابه، ص ٢٠٩ من بحارالأنوار.

٢ ـ وجاء في تاريخ اليعقوبي ١١/٢ ما يلي: «أراد أبو بكر أن يغزو الروم فشاور جماعة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

(١) علي والخلفاء، بأسانيده، ص ٥٩.

فقدموا وأخروا فاستشار علي ابن أبي طالب (ع)، فأشار أن يفعل فقال: إن فعلت ظفرت فقال بشرت بخير فقام أبو بكر في الناس خطيباً وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم فسكت الناس فقام عمر، فقال: لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لانتدبتموه، فقام عمرو ابن سعد فقال لنا تضرب أمثال المنافقين يا ابن الخطاب فما يمنعك أنت ما عبت علينا، فتكلّم خالد بن سعيد وأسكت أخاه فقال: ما عندنا إلّا الطاعة فجزاه أبو بكر خيراً ثمّ نادى في الناس بالخروج وأميرهم خالد بن سعيد»[(١)].

٣ ـ البحار ٤٧٧/٩ عن المناقب ٤٩١/١ (قال): «وسأل رسول ملك الروم أبا بكر عن رجل لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولا يخاف الله، ولا يركع، ولا يسجد ويأكل الميتة والدم، ويشهد بما لم يرَ، ويحب الفتنة، ويبغض الحق، فلم يجبه (فقال عمر) ازددت كفراً إلى كفرك، فأخبر بذلك علي (ع) فقال هذا رجل من أولياء الله لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولكن يخاف الله ولا يخاف من ظلمه، وإنما يخاف من عدله، ولا يركع ولا يسجد في صلاة الجنازة، ويأكل الجراد والسمك، ويأكل الكبد، ويحب المال والولد ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ويشهد بالجنّة والنار وهو لم يرَهما، ويكره الموت، وهو حق»[(٢)].

٤ ـ كنزالعمال ٣٩/٤ عن البختري عن علي قال: «قال عمر بن الخطّاب للناس فضل عندنا من هذا المال، قال الناس يا أميرالمؤمنين

(١) نفس المصدر، ص ٦٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٩.

قد شغلناك عن أهلك وضيعتك وتجارتك فهو لك (قال علي) فقال لي: ما تقول أنت؟ قلت: قد أشاروا عليك قال: قل: قلت: لا تجعل يقينك ظناً، فقال لنخرجن مما قلت فقلت أجل والله لأخرجن منه أتذكر حين بعثك نبي الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ساعياً؟ فقلت لي انطلق معي إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فنخبره بالذي صنع العباس فانطلقنا إلى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فوجدناه خاثراً فرجعنا ثمّ غدونا عليه الغد فوجدناه طيب النفس فأخبرته بالذي صنع العباس فقال لك أما علمت أن عمَّ الرجل صنو أبيه؟ وذكرنا له الذي رأيناه من خثوره في اليوم الأول والذي رأيناه من طيب نفسه في اليوم الثاني فقال إنكما أتيتما في اليوم الأول وقد بقى عندي من الصدقة ديناران فكان الذي رأيتما من خثوري لذلك وأتيتما في اليوم الثاني وقد وجهتهما فذلك الذي رأيتما من طيب نفسي فقال عمر: صدقت والله لأشكرن لك الأولى والآخرة.

وقد أخرج على المتقي الحنفي في كنزالعمال الحديث المتقدم من خمسة كتب (مسند أحمد بن حنبل ومسند أبي يعلى وكتاب الدورقي وسنن البيهقي وسنن أبي داود) هذا وقد أخرج هذه القضية جماعة من علماء السنة والإمامية غير من تقدم ذكرهم (منهم) المحب الطبري الشافعي في ذخائر العقبى، ٨٢ ، بسنده عن موسى بن طلحة أن عمر اجتمع عنده مال فقسمه ففضل منه فضلة فاستشار أصحابه في ذلك الفضل فقالوا: نرى أن تمسكه فإذا احتجتَ إلى شيء كان عندك، وعلي في القوم لا يتكلّم! فقال عمر: ما لك لا تتكّم يا علي! قال: قد أشار

عليك القوم قال: وأنت فأشِرْ قال: فإني أرى أنك تقسمه! ففعل.. أخرجه السمان»[١].

وجاء في كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات، تأليف الإمام تقي الدين أبي بكر بن علي المعروف بابن الحجة الحموي الحنفي المتوفي سنة ٨٣٧ هـ المطبوع بهامش كتاب المستطرف (ج ٢، ص ١٥ ـ ص ٢٠ ـ طبع مصر، سنة ١٣٦٨ هـ) ما هذا نصه:

«إن المسلمين تكامل لهم فتوح الشام فأقاموا على دمشق شهراً، فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين واستشارهم في المسير إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس فقال له معاذ بن جبل أيها الأمير أكتب إلى أميرالمؤمنين عمر فحيث أمرك امتَثِلْه، قال له: أصبت الرأي يا معاذ، ثمّ كتب إلى أميرالمؤمنن عمر يعلمه بذلك وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي فسار حتى وصل المدينة فسلم الكتاب إلى عمر فقرأه على المسلمين واستشارهم، فقال علي (ع): يا أميرالمؤمنين مرْ صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس فإذا فتح الله بيت المقدس صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا أخبرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قال عمر: صدق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وصدقت أنت يا أبا الحسن، ثمّ دعا بدواة وبياض وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلّا هو وأصلّي على نبيه، وقد

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٨٣.

وصلني كتابك تستشيرني إلى أي ناحية تتوجه وقد أشار ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمسير إلى بيت المقدس فإن الله يفتحها على يديك والسلام. فلما وصل الكتاب إلى ابن عبيدة قرأه على المسلمين ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس وتقدمه الجيش إلى بيت المقدس، وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام، وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح لعدم الخوف (إلى أن قال)، فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال، وكتب أبو عبيدة إلى عمر يعلمه بالخبر على يد ميسرة بن مسروق فلما وصل الكتاب إلى عمر فرح، وقرأه على المسلمين، وقال: ما ترون فكان أول من تكلّم عثمان بن عفان فقال: يا أميرالمؤمنين إن الله قد أذل الروم فإن أنت أقمتَ ولم تَسِرْ إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف فلا يثبتون إلّا يسيراً، قال فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزّاه خيراً، وقال: هل عند أحد منكم رأي غير هذا، فقال علي ابن أبي طالب (ع): نعم عندي غير هذا الرأي وأنا أبديه إليك، فقال له عمر: وماهو يا أبا الحسن؟ قال: إن القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذل، وهو على المسلمين فتح، وقد أصابهم جهد عظيم: البرد، والقتال، وطول المقام وإن سرتَ إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة وكان لك في مسيرك الأجر العظيم، ولست آمن منهم إنهم إذا أيِسُوا منك أن يأتيهم المدد من طاغيتهم، فيحصل للمسلمين بذلك الضرر، والصواب أن تسير إليهم، ففرح عمر بمشورة عليّ، وقال: لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو، وعلي أحسن النظر للمسلمين جزاهما الله خيراً، ولستُ آخذ إلّا بمشورة عليّ، فما عرفناه إلّا محمودَ المشورة، ميمونَ

الطلعة، ثمّ إن عمراً أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه»[١].

الإمام الحسن بن علي سبط رسول الله (ص) يواصل عملية الحفاظ على وحدة المسلمين

بدأ الإمام السبط الحسن بن علي عليه الصّلاة والسّلام حياته السياسية زعيماً للمسلمين بعد أن بايعته جماهير عاصمة الدولة الإسلامية (الكوفة) بعد وفاة أبيه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

إلّا أن زعامة الإمام السبط (ع) لم تشمل مساحة الأمة الإسلامية كلّها بسبب الانشقاق الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان في الجناح الغربي للدولة منذ الأيام الأُولى لخلافة أميرالمؤمنين علي (ع).

وهكذا تصاعد هذا الانشقاق ليتحول إلى استعدادات عالية لمواجهة عسكريه بين شطري الأمة: الشطر الذي يقوده سبط رسول الله (ص) الحسن بن علي (ع) والشطر الذي يقوده معاوية بن أبي سفيان.

وقد زحفت جيوش معاوية من الشام باتجاه العراق فكان اختباراً عسيراً جداً لحرص الإمام الحسن (ع) على رسالة جده صلوات الله عليه وآله وسلّم والأمة التي صنعها على عينه، كما كان اختباراً أي اختبار لحكمة الإمام (ع) وموقفه من المصلحة الإسلامية العليا، وقد يتجلّى نجاح الإمام الحسن (عليه السّلام) في هذا الاختبار العسير إذا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٣. وللمزيد يراجع كتاب علي والخلفاء، للمرحوم الشيخ العسكري، وكتاب قضاء أميرالمؤمنين (ع).

علمنا أن الإمام (ع) كان يملك مقومات كثيرة للصمود والمواجهة كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية الموثقة.

فمصادر جبهة الإمام الحسن (ع) تشير إلى ذلك وتؤكده بقدر ما تؤكد ذلك. مصادر جبهة معاوية ومصادر العدو عادة تساعد كثيراً على ابراز هذه المسألة بوضوح، وأكثر تأثيراً في تكوين الرؤية عن الطرف المقابل في مقام التقييم:

فقد ورد في كتاب الاستيعاب لابن عبدالبر: إن حواراً دار بين معاوية ومهندس سياسته عمرو بن العاص حول القوة الفعلية التي يملكها الحسن بن علي، وكان ابن العاص يعطي انطباعاً عن جبهة الإمام الحسن بأنها جبهة واهنة جداً قد ٱنفل حدها وانكسرت شوكتها ـ على حد تعبيره ـ إلّا أن معاوية ابن أبي سفيان ألفت نظر ابن العاص ـ في ضوء المعلومات الموثقة التي يملك ـ إلى أن عليّاً قد بايعه أربعون ألفاً على الموت «فوالله لا يقتلون حتى يقتل أعدادهم من أهل الشام..»[١].

وهكذا كان معاوية يخشى المواجهة مع تلك القوة الحقيقية التي يقودها الحسن السبط (عليه السّلام).

هذا وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى ـ المؤرخ المعروف ـ بأسناده ما يلي:

---

(١) الإمام المجتبى أبو محمد الحسن بن علي عليه السّلام، حسن المصطفوي، ص ١٦٠، عن الاستيعاب، ج ١، ص ٣٨٥.

«لما بايع الحسن (ع) معاوية أقبلت الشيعة تتلاقىٰ بإظهار الأسف والحسرة على ترك القتال... فقال الحسن (ع): أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أركضُ وأنصبُ، ما كان معاوية بأبأس منّي بأساً، ولا أشد شكيمة ولا أمضىٰ عزيمة، ولكنـي أرى غير ما رأيتم وما أردت بما فعلت إلّا حقن الدماء فارضوا بقضاء الله، وسلِّموا لأمره، والزموا بيوتكم وأمسِكوا»[1].

وروى جبير بن نفير، عن أبيه قال: «قدمت المدينة فقال الحسن بن علي (ع): كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمت: ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله، وحقن دماء المسلمين»[2].

فمن هذه الوثائق التاريخية يستفيد المؤرخ البصير أن الحسن بـن علي (عليه السّلام) كان ذا قدرة فعلية على المواجهة لفترة طويلة ربما ترهق العدو إلى درجة كبيرة وتحقق مكاسب سياسية منظورة لجـبهة الإمام السبط (ع) إلّا أن بصيرة الإمام الحسن سبط النبي (ص) كانت تقرأ أن وحدة كيان الأمة لا تتوفر مع ديمومة هذا الصراع الذي سيأتي على البر والفاجر، وإن مستقبل المواجـهة لا يـضمن حـفظ العـناصر الخيرة في هذه الأمة إذا استمرت هذه المواجهة مع الجبهة الأموية.

ومن أجل ذلك فإن حكمة الإمام السبط (ع) وحرصه على وحدة

---

(١) بحار الأنوار، للشيخ المجلسي، ج ٤٤، ص ٢٩.

(٢) كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ١٤١، والبحار، ج ٤٤، ص ٢٥، وحلية الأولياء مثله.

كيان الأمة، وإصراره على حفظ دماء المخلصين الخيرين من هذه الأمة جعله يستجيب لمشروع الهدنة، والتنازل عن الخلافة مدة حياة معاوية فحسب على أن يلتزم معاوية ابن أبي سفيان بالكتاب والسنّة ويرفع الأذى عن الناس، ويشيع العدل بين المسلمين، وأمثال ذلك من شروط..

إن هذا الموقف الحسني الذي يقطر حكمة وإيثاراً وحرصاً على الإسلام والأمة وقواها الخيرة، إنما يعطي انطباعاً عن إنسان يقل نظيره في تاريخ البشر خصوصاً إذا كان موقفه قد صدر وهو يمسك بمصادر قوة لا يستهان بها فهو لم يهادن معاوية، وهو في وضع عسكري منهار أو خور في عزيمه ـ كما أشرنا ـ.

وهكذا يبقى آل محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) رمزاً لحفظ كيان الأمة، وسلامة وجودها وإن كلفهم ذلك وجودهم المقدس، الأمر الذي لم نجد شبيهاً له لدى أحد من أمة محمد (ص) أو في جماعة منها..

فلقد تنازل الإمام السبط عليه الصّلاة والسّلام عن أمر طالما غامر من أجله الطامحون والباحثون عن الزعامة رغبة منه (عليه السّلام) لما عند الله تعالى وحرصاً منه على وحدة المسلمين، ومكانتهم بين الأمم.

الإمام علي بن الحسين السجاد النموذج الثالث للتحرك من أجل وحدة الكيان

لم يتعرض رجل من آل بيت النبي (ص) إلى ما تعرض له الإمام زين العابدين علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من مآسٍ

حمراء.

فقد شهد هذا الإمام العلوي وهو في مطلع شبابه أبشع صور المآسي التي حلت بالبيت النبوي المطهر حيث شهد في كربلاء مجزرة مروعة شملت رجال أهل بيت النبي (ص) وأصحابهم، وفي مقدمتهم ريحانة رسول الله وسبطه الحسين ابن علي (عليه السّلام) حتى قطعت رؤوسهم، وأبرد بها إلى الطاغية في الشام: يزيد ابن معاوية، كما نهب جيش بني أمية بقيادة عمر بن سعد مضارب آل النبي (ص) ومتاعهم حتى ملاحف النساء، كما شملت المجزرة أطفالاً للحسين السبط (ع). وقد استتبع تلك المأساة الحمراء: حمل عقائل أهل البيت (عليهم السّلام) أسارى إلى الشام، وما رافق ذلك من اهانات واحتقار لم يعامل به حتى أسرى البلاد المفتوحة..

أقول: هذه المأساة بكل تفاصيلها شهدها بقية السيف من آل النبي (ص)، وقد رأى صور القتل الجماعي لذرية النبي (ص) بعينه، وقد قتل أهله جميعاً في تلك الفاجعة، وداست الخيول أجسادهم الطاهرة، وقد عاش أسيراً مع عماته واخواته وعقائل أهل البيت (عليهم السّلام)، لعدة أسابيع تنقل من كربلاء إلى الكوفة إلى الشام ثمّ إلى كربلاء ثمّ إلى مدينة جده رسول الله (ص) حيث لازم الأسىٰ والمحنة طوال حياته، فكانت مشاهد المأساة لا تفارق خواطره أبداً، والتاريخ ينقل الكثير من ذكرياته لتلك المأساة حتى يذكر المؤرخون أنه ظل طوال عشرين عاماً بعد تلك الفاجعة لا يشرب ماء إلّا ويتذكر قتل أولئك الأبرار من آل محمد (ص)، وهم يتلظون عطشاً، فيخلط شرابه بدموع عينيه..

فماذا يتوقع الإنسان من رجل ينطوي قلبه على مثل هذا الثأر وأي ثار؟!

إننا نذكر موقفاً واحداً للإمام السجاد (عليه السّلام) لنرى أي نفوس كبيرة هذه التي يحملها أئمة هذا البيت العظيم.

رغم كل ما جرى على آل النبي (ص) في أيام الحكم الأموي فإننا نرى الإمام السجاد علي بن الحسين (عليه السّلام)، يدعو دعاء خاشعاً لجيش المسلمين الذي يقوده سلاطين بني أمية، ويصدرون له أوامر التحرك في مختلف الأقاليم، إن هذا الجيش الذي يدعو له الإمام السجاد (ع) بالنصر والعزة والغلبة على الكفار، كانت بعض قطعاته في يوم ما قد انتهكت حرمة النبي (ص) وأهل بيته في كربلاء إلّا أن الإمام (ع) يدعو لعامة هذا الجيش طالما يحقق عزاً للمسلمين تجاه أعدائهم في بعض المواقف رغم الأخطاء والأفعال الشنيعة التي تصدر منه بين حين وآخر...

فمصلحة الإسلام والأمة هي التي توجه عواطف الإمام (ع) وتحدد مسار آماله وآلامه.

ولايزال هذا الدعاء الخاشع غرة على جبين الزمان ويدعىٰ في صحيفة الإمام السجاد (ع) بدعاء الثغور، وهذه بعض فقرات منه:

«اللهم صلّ على محمد وآله، وحصن ثغور المسلمين بعزتك، وأيِّد حماتهم بقوتك، وأسبغ عطاياهم من جدتك. اللّهم صلّ على محمد وآله، وكثّر عدتهم، واشحذ أسلحتهم، واحرس حوزتهم، وامنع حرمتهم، وألف جمعهم، ودبّر أمرهم، وواتر بين ميرهم وتوحد بكفاية

مؤنهم، واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، والطُف لهم في المكر، اللّهم صلّ على محمد وآله وعرّفهم ما يجهلون، وعلّمهم ما لا يعلمون وبصّرهم ما لا يبصرون، اللّهمّ صلّ على محمد وآله، وأنسِهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهم الخداعة الغرور وٱمحُ عن قلوبهم خطرات المال الفتون، واجعل الجنّة نصب أعينهم... الخ».

فهل حدث التاريخ أن إنساناً يحمل قلبه ثأراً دون ثأر الإمام زين العابدين (عليه السّلام)، يدعو بالنصر خاشعاً لجيش يساهم في تسلّط أعدائه ويطيل عمر وجودهم السياسي والسلطوي كل ذلك من أجل الإسلام وكيان الأمة وارتفاع راية المسلمين؟

الخط العام لسياسة الأئمة مع مخالفي خطهم

ومع اقتناع أئمة أهل البيت (عليهم السّلام) بخطهم الفكري والفقهي وكونه الحق وحرصهم عليه وعلى نشره بين الناس إلّا أنهم لا يفرضون قناعاتهم على أحد، وإنما يخاطبون العقول، ويتعاملون مع الضمائر والوجدان في برنامج حكيم يلتمس الحجة، ويعتمد البرهان، ويتعامل بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولذا فإنهم يضعون تعريفاً للإسلام والمسلم لا يلغي الآخرين ولا يصادر حرية الأفكار والعقول.

يقول الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر (ع) موضحاً معنى الإسلام: «والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة من الناس من الفرق كلّها، وبه حقنت الدماء وعليه جرت المواريث،

وجاز النكاح واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك عن الكفر وأضيفوا إلى الإيمان»[١].

ويقول الإمام أبو عبدالله الصادق (عليه السّلام): «الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس، شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصيام شهر رمضان».

وقال سلام الله عليه: «الإسلام: شهادة أن لا إله إلّا الله والتصديق برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبه حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث، وعليه جماعة الناس»[٢].

وبهذه الأحاديث والمصاديق والمواقف نكون قد أعطينا صورة واضحة عن الموقف الحريص لأئمة أهل البيت (ع) على وحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم بقدر ما تسمح به هذه المناسبة، ونسأله تعالى أن يعين المسلمين على جمع كلمتهم وتخطي مصاعب الطريق، والتمسك بمنهج آل محمد صلّى الله عليهم أجمعين.

---

(١) الفصول المهمة في تأليف الأمة، الإمام شرف الدين، ص ٢١.

(٢) نفس المصدر، والصفحة.

الحركة التغييرية عند الإمام الصادق (ع)

ـ ضوابطها ـ معالمها ـ مصاديقها [1]

مدلول الحركة التغييرية

حين يطلق مصطلح الحركة التغييرية عند أي إمام من أئمة أهل البيت (عليهم الصّلاة والسّلام)، فإنما يراد بذلك مجموعة الفعاليات والأعمال التي باشرها الأئمة (عليهم السّلام) باتجاه تغيير مفاهيم الناس وأفكارهم وحركتهم في ضوء قيم الإسلام ومفاهيمه وأحكامه..

وفي مقدمة هذه العملية التي يباشرها الأئمة (ع) من أجل تعبيد الناس لله ربّ العالمين وتلوين حياتهم بصبغة دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده.. أقول: في مقدمة هذه العملية الكبرى تأتي الخطة والبرنامج المتبنىٰ في ضوء تعاليم الإسلام لإقامة الهدى، وإشاعة المعروف وإرساء قواعد الدين الحق في إطار الظروف الاجتماعية

---

(١) بحث ألقاه المؤلف في دمشق في ربيع الأول ١٤١٢ هـ في مؤتمر الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع)، الذي دعت إليه الممثلية الثقافية في سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق.

والسياسية والعقلية التي يعيشها الناس في عصر أيِّ إمامٍ من أئمة أهل البيت (ع).

وفي ضوء هذه الحقيقة فإن الحركة التغييرية من ناحية المهام، والطموحات، والمصاديق قد تتبدل من إمام إلى آخر تبعاً لطبيعة المراحل، والظروف التي يعيشها كل إمام من الأئمة، بل إن الإمام الواحد قد يمارس مجموعة من النشاطات، والبرامج تخطيطاً وتنفيذاً حسب الظروف المحيطة به، وما يستجد من أوضاع سياسية أو اجتماعية، أو ثقافية أو نفسية أو عقلية تحيط بالإمام (عليه السّلام).

وهذه إثارات من السيرة المطهرة تعطي ضوء حول هذه الحقيقة:

أ ـ يرفع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لواء الدعوة والهداية، والجهاد عبر عدد من المراحل لخصها أحد المؤرخين المسلمين في العبارات الآتية:

«أول ما أوحىٰ إليه ربّه تبارك وتعالى، إن يقرأ باسم ربّه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثمّ أنزل عليه ﴿**يا أيها المدثر، قم فانذر**﴾ فنبأه بقوله: ﴿**اقرأ**﴾ وأرسله ﴿**يا أيها المدثر**﴾، ثمّ أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثمّ أنذر قومه، ثمّ أنذر من حوله من العرب، ثمّ أنذر العرب قاطبة، ثمّ أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمر بالكف، والصبر، والصفح، ثمّ أذِنَ له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثمّ أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثمّ أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كلّه لله، ثمّ كان الكفار معه بعد الأمر

بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح، وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.. فأمر بأن يتم لأهل العهد، والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده.. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار، والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف، والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم.. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق، أربعة أشهر وأمره أن يتم للموفي بعهده عهدَه إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية، فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.. ثمّ آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.. وأما سيرته في المنافقين فإنه أُمِر أن يقبل منهم علانيتهم،

ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلّغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهي أن يصلّي عليهم، وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم..»[١].

ب ـ بينما يقاتل أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) القاسطين والناكثين، والمارقين بسيف قاطع يرفع حفيده الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) لواء المجاملة واللين ـ في ضوء ظروفه ـ ولنقرأ منهاجه المرن المحكوم بظروف سياسية، وثقافية خاصة في رسالته الموجهة إلى شيعته وأصحابه:

«أما بعد، فسلوا ربّكم العافية، وعليكم بالدعة[٢] والوقار، والسكينة، والحياء، والتنزه عما تنزه عنه الصالحون منكم، وعليكم بمجاملة أهل الباطل، تحمّلوا الضيم منهم، وإياكم ومماظتهم[٣]، دينوا فيما بينكم وبينهم ـ إذا أنتم جالستموهم وخالطتموهم ونازعتموهم الكلام، فإنه لابد لكم من مجالستهم ومخالطتهم ومنازعتهم ـ بالتقية التي أمركم الله بها فإذا ابتليتم بذلك منهم فإنهم سيؤذونكم ويعرفون في وجوهكم المنكر، ولولا أن الله يدفعهم عنكم لسطوا بكم، وما في

---

(١) معالم في الطريق، لسيد قطب، ص ٧٥ ـ ٧٧، ط دار دمشق، نقلاً عن ابن القيم الجوزية.

(٢) الدعة: الخفض والطمأنينة.

(٣) المماظة: شدة المنازعة.

صدورهم من العداوة والبغضاء، أكثر مما يبدون لكم، مجالسكم ومجالسهم واحدة»[١].

جـ ـ والإمام الحسن بن علي العسكري (ع) حين قست الظروف السياسية على أهل البيت (ع) في عهد أحمد المعتمد الخليفة العباسي أصدر أمراً لشيعته جاء فيه ما يلي: «أمرناكم بالتختم في اليمين، ونحن بين ظهرانيكم والآن نأمركم بالتختم في الشمال.. إلى أن يظهر الله أمرنا وأمركم.. فخلعوا خواتيمهم من بين يديه، ولبسوها في شمائلهم»[٢]

الأئمة بين صيانة الخط وتغيير الوسائل

صيانة خط الرسالة السماوية الخاتمة قيمة أساسية يحرص أئمة أهل البيت (عليهم الصّلاة والسّلام) على التمسك بها مهما قست الظروف وتلبدت آفاق الواقع بغيوم الشك، والتنكر للحق، يبذلون لها نفوسهم الزكية، وينفقون كل غال ونفيس من أجلها إذ هم «شجرة النبوّة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سر الله»[٣].

---

(١) تحف العقول، للشيخ الجليل أبو محمد الحراني، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، ط بيروت، لبنان.

(٢) تحف العقول، ص ٣٦٢ ـ ص ٣٦٣. الأسباب واضحة لهذا التغيير في لبس الخاتم لأن لبس الخاتم كان في ذلك العصر من علامات التشيّع لأهل البيت (ع).

(٣) الكافي، للشيخ الكليني، ج ١، ص ٢٢١.

وموقف أبي عبدالله السبط الثاني لرسول الله (ص) الحسين بن علي (ع) يوم الطفوف عام ٦١ هـ من أوضح المواقف المخلدة في تاريخ الإسلام حيث خرج حين خرج على الظلم، والظالمين طالباً الاصلاح في أمة جده رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مع وثوقه بالمأساة الحمراء التي ستمر على آل البيت (ع)، والصالحين من هذه الأمة..

لنسمعه وهو يعلن الهدف من تحركه، كما يعلن النتائج:

«وإني لم أخرج أشراً ولا بطِراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص) أريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر وأسير بسيرة جدي، وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق بالله أولى بالحق، ومن ردَّ عليَّ هذا أصر حتى يقضيَ الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين»[١].

«إني أعلم اليوم الذي أُقتل فيه، والساعة التي أُقتل فيها، وأعلم من يُقتل من أهل بيتي، وأصحابي، أتظنين إنكِ علمتِ ما لم أعلمْه، وهل من الموت بدٌّ فإنْ لم أذهب اليوم ذهبتُ غداً».

وقال لأخيه عمر الأطرف: إن أبي أخبرني بأن تربتي تكون إلى جنب تربته أتظن إنك تعلم ما لم أعلمه؟ وقال لأخيه محمد بن الحنفية: شاء الله أن يراني قتيلاً ويرى النساء سبايا.

وقال لابن الزبير: لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم. وقال لعبدالله بن جعفر: إني

---

(١) مقتل الحسين (ع)، للسيد عبدالرزاق المقرم، ص ١٣٩.

رأيت رسول الله في المنام، وأمرني بأمر أنا ماضٍ له. وفي بطن العقبة قال لمن معه: ما أراني إلّا مقتولاً فإني رأيت في المنام كلاباً تنهشني وأشدها عليَّ كلب أبقع. ولما أشار عليه عمرو بن لوذان بالانصراف عن الكوفة إلى أن ينظر ما يكون عليه حال الناس، قال (ع): ليس يخفى عليَّ الرأي، ولكن لا يغلب على أمر الله، وإنهم لا يَدَعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي»[١].

وسبط رسول الله (ص) الأول الحسن بن علي (ع) ضحىٰ بزعامته السياسية حين أحس بالخطر على الإسلام إذا دخل في صراع عسكري مع معاوية ابن أبي سفيان حاكم بلاد الشام في عصره حيث يقول موضحاً الضابط الذي تحكَّم في موقفه التاريخي المعروف:

«إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردتُ أن يكون للدين داعٍ»[٢].

وقد تذكر الإمام محمد بن علي الباقر (ع) هذه المبادرة الحسنية الخالدة، وما أسدته من خدمات جلىٰ للإسلام والمسلمين فقال: «والله للذي صنعه الحسن بن علي كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس»[٣].

---

(١) نفس المصدر، ص ٦٥.

(٢) حياة الحسين بن علي، باقر شريف القرشي، ج ٢، ص ٢٨١، ط ٣، النجف، ١٩٧٣.

(٣) روضة الكافي، ج ٨، من الكافي، ص ٣٣٠.

إن عملية صيانة الخط كهدف أعلى عند أئمة أهل البيت (عليهم السّلام) قد جسدها الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في مواقع عديدة من حركته الاصلاحية الكبرى، ولم تثنِه عن التمسك بهذا الخط الظروف الاستثنائية التي حسبها البعض إنها كانت مواتية لتحقيق مكاسب سياسية هامة..

فقد عرضت عليه الخلافة بعد سقوط الحكم الأموي من أعلى قرار في الثورة على الأمويين، ولكنه أبىٰ أن يثنيه الوضع الاستثنائي عن الاستمرار في إرساء قواعد الرسالة مقدراً وضع الأمة الحقيقي وضعف قواعد المؤمنين، وتنظيمهم القادر على النهوض بأعباء قيادة دولة بكل متطلباتها الشرعية والقانونية..

وهنا نذكر قضيتين اثنتين ليتميز حرص الإمام الصادق (ع) على تحقيق الأهداف العليا للإسلام في الوقت الذي يحرص فيه على عدم التفريط بخطة العمل لإرساء قواعد الحق بسبب بريق الظروف الاستثنائية التي قد تغري العاملين، فينحرفوا عن الطريق، ويخطئوا الأساليب السليمة:

أولاً: عن سُدَير الصيرفي قال: «دخلت على أبي عبدالله (ع) فقلت له: والله ما يسعك القعود قال: ولِمَ يا سدير؟ قلت لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك، والله لو كان لأميرالمؤمنين ما لَكَ من الشيعة، والأنصار، والموالي، ما طمع فيه تيم ولا عدي، فقال: يا سدير وكم عسى أن تكونوا؟ قلت: مائة ألف، قال: مائة ألف؟ قلت: نعم، ومائتي ألف. فقلت: ومائتي ألف؟ قلت: نعم ونصف الدنيا، قال: فسكت عني ثمّ قال: يخفُ

عليك أن تبلغ معنا إلى ينبع؟ قلت: نعم، فأمر بحمار وبغل أن يسرجا، فبادرت، فركبت الحمار، فقال: يا سدير ترى أن تؤثرني بالحمار؟ قلت: البغل أزين وأنبل قال: الحمار أرفق بي، فنزل فركب الحمار وركبت البغل، فمضينا فحانت الصلاة فقال: يا سدير أنزل بنا نصلّي، ثمّ قال: هذه أرض سبخة لا يجوز الصلاة فيها، فسرنا حتّى صرنا إلى أرض حمراء ونظر إلى علام يرعى جداء فقال: والله يا سُدَير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء، ما وسعني القعود ونزلنا وصلّينا، فلما فرغنا من الصلاة عطفت إلى الجداء فعددتها فإذا هي سبعة عشر»[١].

ثانياً: وتتمثل القضية الثانية في العرض التاريخي الذي عرضه عليه أبو مسلم المروزي مؤسس الدولة العباسيّة حيث كتب للإمام أبي عبدالله الصادق (ع) يدعوه للخلافة والتصدي السياسي لقيادة نتائج الثورة على الأمويين ومما جاء في رسالة المرزوي ما يلي:

«إني دعوت الناس إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبتَ فيه فأنا أبايعك، فأجابه الإمام (ع): ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني»[٢].

وهكذا يحرص الإمام الصادق (ع) على رعاية مصلحة الإسلام العليا دون الاكترات لظواهر الأشياء والظروف التي تغري السياسيين، وطلّاب الحكم، والجاه عادة ببريقها، وظواهرها الخارجية.

---

(١) بحارالأنوار، ج ٤٧، ط ٣، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣، نقلاً عن الكافي.

(٢) ينابيع المودة، الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، ط ٨، ١٣٨٥، دار الكتب العراقية وكاظمية، كما ينظر حديث ٤١٢ في روضة الكافي للشيخ الكليني.

نماذج من أساليب الأئمة ضمن العملية الاصلاحية

الأساليب التي سلكها أئمة أهل البيت (ع) تتعدد وتتفاوت حسب الظروف التي يعيشها الأئمة (ع) وتعيشها الأمة فتؤثر في هذه الأساليب، وطرق العمل: الظروف السياسية والثقافية والنفسية والعقلية والاجتماعية وما إليها.

وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نرصد صوراً شتى لعمل الأئمة (عليهم السّلام) كانوا قد سلكوها لمواصلة الحركة التغييرية في الأمة مع ثبات الهدف أو الإصرار على صيانة خط الرسالة.

أ ـ القنوات المألوفة في خدمة مفاهيمهم:

حين يتعذر على أئمة أهل البيت (ع) نقل أفكارهم من خلال قنواتهم المتبناة ـ بسبب ظروف سياسية أو ثقافية غير عادلة ـ فإنهم يعتمدون أسلوب الاستفادة من القنوات، والعناوين، والمؤسسات التي تقرها الأوضاع العامة.

فإن كثيراً من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ـ في ظروف استثنائية عديدة ـ لا يروون الأفكار، والمفاهيم التي تلقوها عن النبي (ص) مباشرة أو بالواسطة، رعاية للظروف التي لا تعطي فرصاً من هذا القبيل، وإنما ينقلون أفكارهم للناس بقنوات أخرى يقرها العرف العام، أو الأوضاع الرسمية.

فالإمام محمد بن علي الباقر (عليه السّلام) مثلاً كان يَروي كثيراً من المفاهيم التي يريد إبلاغها للأمة بواسطة، جابر بن عبدالله

الأنصاري، وعمر بن الخطّاب، وعبدالله بن عباس، وزيد بن أرقم وأبي ذر الغفاري، وغيرهم.

فهو يروي ـ مثلاً ـ عن عمر بن الخطّاب قوله: «سمعت النبي (ص) يقول: كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي»[١].

ويروي عن جابر قوله: «إن النبي (ص) كان يتختّم بيمينه»[٢].

ويروي عن زيد بن أرقم قوله: «كنّا جلوساً بين يدي النبي (ص) فقال (ص): ألا أدلكم على من إذا استرشدتموه لن تضلوا ولن تهلكوا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هذا ـ وأشار إلى علي بن أبي طالب ـ ثمّ قال: واخوه، ووزاروه، وصدّقوه، وانصحوه، فإن جبريل أخبرني بما قلت لكم».

وقد انتهج الإمام الصادق (ع) ذات المنهج الذي انتهجه أبوه الباقر (ع) في استخدام القنوات المألوفة.

فقد روى عن عطاء بن أبي رَباح عن عائشة ومحمد بن المنكدر وروى عن أبي سعيد وعن يزيد بن هرمز وعن جابر بن عبدالله الأنصاري وعن عبيدالله بن جعفر وعن عبيدالله بن أبي رافع عن المسور بن مخرمة كما روى عن عكرمة مولىٰ بن عباس.

وهذه بعض الروايات بهذا الخصوص كما أوردها أبو نعيم أحمد بن

---

(١) حياة الإمام الباقر (ع) للشيخ محمد باقر القرشي، ص ١٧٢، نقلاً عن طبقات ابن سعد، ٤٦٣/٨.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٢، نقلاً عن علل الشرائع، للصدوق.

عبدالله الأصبهاني في حلية الأولياء بأسانيده:

ـ عن جعفر بن محمد عن عبيدالله بن أبي رابع عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): «إنما فاطمة بضعة منّي يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها»[١].

ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: «كانت تلبية النبي (صلّى الله عليه وسلّم): لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك»[٢].

ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٣].

ب ـ مراعاة الظروف المحيطة بالأمة:

ومن ظواهر اهتمام الأئمة الهداة (عليهم السّلام) بصيانة مبادئ الرسالة رغم تغيير الأساليب، والأدوات التي يعتمدونها في تبليغ الأمة وتوجيهها، وتثقيفها بالإسلام، ومبادئه القويمة رعاية منهم لظروف الأمة النفسية، والعقلية، والسياسية، ما يلي:

عن يعقوب السراج قال: «سألني أبو عبدالله (ع) عن رجل، فقال: إنه لا يحتمل حديثنا، فقلت: نعم، قال: لا يُغفل، فإن الناس عندنا درجات

---

(١) حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، مجلد ٣، ط ٤، ص ٢٠٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠٠.

منهم على درجة، ومنهم على درجتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، حتى بلغ سبعاً»(١).

عن أبي بصير قال: «دخلت على أبي عبدالله (ع)، فسألته عن حديث كثير، فقال: هل كتمت عليَّ شيئاً قط، فبقيت أتذكر، فلما رأى ما حلَّ بي قال: أمّا ما حدثتَ به أصحابك، فلابأس به إنما الاذاعة أن تحدث به غيرَ أصحابك»(٢).

عن عمار بن الأحوص قال: «قلت لأبي عبدالله (ع): إن عندنا قوماً يتولَون بأميرالمؤمنين عليه السّلام، ويفضلونه على الناس كلّهم، وليس يصفون ما نصف من فضلكم، أنتولاهم؟ فقال لي: نعم في الجملة، أليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولرسول الله تعالى عند الله ما ليس لنا، وعندنا ما ليس عندكم، وعندكم ما ليس عند غيركم إن الله وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثمّ قسَّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة أسهم فهو كامل محتمٍ، ثمّ قسم لبعض الناس السهم، ولبعضهم السهمين، ولبعض الثلاثة أسهم، ولبعض الخمسة أسهم، ولبعض الستة أسهم، ولبعض السبعة أسهم، فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة أسهم، ولا على صاحب الثلاثة أربعة أسهم، ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم، ولا

---

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص ٩٧.

(٢) نفس المصدر، ص ١٠٢.

على صاحب الخمسة ستة أسهم، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم فتثقلوهم وتنفروهم، ولكن ترفقوا بهم وسهِّلوا لهم المدخل. ـ ويقدّم الإمام الصادق (ع) نموذجاً لأساليب العمل الخاطئة بقوله ـ: وسأضرب لك مثلاً تعتبر به: أنه كان رجل مسلم، وكان له جار كافر، وكان الكافر يرافق المؤمن، فلم يزل يزين له الإسلام حتى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله فذهب به إلى المسجد ليصلي معه الفجر جماعة، فلما صلّى قال له: لو قعدنا نذكر الله حتى تطلع الشمس، فقعد معه، فقال له: لو تعلمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل، فقعد معه وصام حتى صلّى الظهر والعصر، فقال له: لو صبرت حتى تصلي المغرب والعشاء الآخرة كان أفضل، فقعد معه حتى صلّى المغرب والعشاء الآخرة ثمّ نهضا، وقد بلغ مجهوده، وحمل عليه ما لا يطيق، فلما كان من الغد غدا عليه وهو يريد مثل ما صنع بالأمس، فدق عليه بابه، ثمّ قال له: اخرج حتى نذهب إلى المسجد، فأجابه أن انصرف عنّي فإن هذا دين شديد لا أطيقه، فلا تخرقوا بهم، أما علمت أن إمارة بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور، وإن إمامتنا بالرفق والتألف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرغبوا الناس في دينكم وفيما أنتم فيه»[١].

هذا وتشكل ظاهرة التقية التي تبناها أئمة أهل البيت (ع) لتكون جُنَّةً لهم من الأعداء أوضح ظواهر التمسك بخط الرسالة رغم التغيير

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

للأساليب والوسائل حسب الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية المحيطة بالأمة.

فالتقية ـ وهو مصطلح شرعي مستل من الوقاية ـ هي التي كانت وسيلة لاخفاء النبي (ص) لدعوته في أول أمره حتى دعاه الله إلى أن يصدع بالأمر في دعوة عشيرته الأقربين، والتقية هي التي حملت المسلمين على عدم إظهار أمرهم أول المسير، وهي التي حملت النبي (ص) على اخفاء هجرته إلى المدينة المنوّرة.

والتقية هي التي تفرض على جميع العقلاء من البشر أن يخفوا كثيراً من مشاريعهم عن الطواغيت والجهلاء والأعداء..

وكان الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) أكثر الأئمة إرساء لمفهوم التقية لخصوصيات عصره وتعقيداته السياسية والثقافية..

فقد كان يكثر من توجيه أصحابه وشيعته للتمسك بالتقية:

«التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، وإن المذيع لأمرِنا كالجاحد به».

«رحم الله امرئَ اجتر مودةَ الناس إلينا فحدثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون».

«ما قُتِل المعلىٰ ـ بن خنيس ـ إلّا من جهة افشائه لحديثنا الصعب»[1].

---

(١) الإمام الصادق (ع)، للشيخ محمد حسين المظفري، ج ١، ط ٢، ١٩٥٠ م، ص ٩٦.

إن مفهوم التقية ركن وثيق يأوي إليه المستضعفون ليقيهم من عاديات الظلم والظالمين، وطريق نجاة يسلكها المصلون العاملون.

من خطط الحركة التغييرية وبرامجها العملية عند الإمام الصادق (ع)

ليس بمقدور هذا البحث المتواضع أن يحيط بكافة خصوصيات الحركة التغييرية عند الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (عليه الصّلاة والسّلام)، لأن هذه المهمة تتطلب دراسة واسعة وجهداً طويلاً.

ولذا فإن هذا البحث المتواضع سيحاول أن يقدم بين أيدي المؤمنين نماذج من خطط الإمام الصادق (ع) في التغيير ونماذج أخرى من نشاطاته العملية في هذه الطريق:

أ ـ أوراق عمل في طريق التغيير

وهذه بعض خططه ومشاريعه (عليه السّلام) التي قدمها للمسيرة الإسلامية عبر الأجيال من خلال وصايا أو توجيهات أو مواعظ صدع بها أمام تلاميذه أو شيعته، وهي تصلح لكل المجموعات الإسلامية عبر مراحل التاريخ المختلفة تستلهم منها، وتنهل منها الخير والخصب والنماء:

١ ـ ورقة عمل يدعو شيعته للتمسك بمضامينها: قال زيد الشحام قال لي أبو عبدالله (عليه السّلام): «اقرأ من ترى أنه يطيعني منكم ويأخذ

بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّوجلّ والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلّى الله عليه وآله. أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها بَراً أو فاجراً، فإن رسول الله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صِلُوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري ويسرني ذلك، ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر وإذا كان غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر فوالله لحدثني أبي أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السّلام فيكون زينَها، أدّاهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تَسَلُ العشيرة عنه، ويقولون: من مثل فلان أنه أدانا للأمانة، وأصدقنا للحديث»(١).

٢ ـ وهذه خطة عمل دعا أصحابه للتمسك بها: «اكثروا من الدعاء فإن الله يحب من عباده الذين يدعونه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، والله مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم عملاً يزيدهم به في الجنّة، واكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله أمر بكثرة الذكر له، والله ذاكر من ذكره من المؤمنين، إنّ الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلّا ذكره بخير.

---

(١) الإمام الصادق (ع)، للشيخ محمد حسين المظفري، ج ٢، ص ٥٣، ط ٢، ١٩٥٠.

وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين كما أمر الله به المؤمنين في كتابه من قبلكم، وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم وتكبّر عليهم فقد زل عن دين الله والله له حاقر ماقت، وقد قال أبونا رسول الله (ص): «أمرني ربي بحب المساكين المسلمين منهم»، واعلموا أن من حقر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه والمحقرة حتى يمقته الناس أشد مقتاً فاتقوا الله في اخوانكم المسلمين المساكين، فإن لهم عليكم حقاً أن تحبوهم، فإن الله أمر نبيه (ص) بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله، ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات من الغاوين.

إياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة.

إياكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغىٰ صير الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بغي عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله.

إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً فإن الكفر أصله الحسد.

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوماً يدعو الله عليكم ويستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله (ص) يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة.

إياكم أن تشره نفوسكم، إلى شيء مما حرم الله عليكم، فإنه من انتهك ما حرم الله عليه ههنا في الدنيا حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها

ولذتها وكرامتها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين»[١].

٣ ـ وهذا برنامج لتابعيه: «أما بعد فاسألوا الله ربّكم العافية، وعليكم بالدعة والوقار والسكينة، وعليكم بالحياء والتنزه عمّا عنه الصالحون قبلكم، واتقوا الله وكفوا ألسنتكم إلّا من خير، وإياكم أن تذلقوا ألسنتكم بقول الزور والبهتان والاثم والعدوان، فإنكم إن كففتم ألسنتكم عما يكرهه الله مما نهاكم عنه كان خيراً لكم عند ربّكم من أن تذلقوا ألسنتكم به، فإن ذلق اللسان فيما يكرهه الله وفيما ينهىٰ عنه مرادة للعبد عند الله، ومقت من الله، وصمم وبكم وعمي يورثه الله إياه يوم القيامة، فتصيروا كما قال الله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ يعني لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون وعليكم بالصمت إلّا فيما ينفعكم الله به من أمر آخرتكم ويؤجركم عليه، أكثروا من أن تدعوا الله فإن الله يحب من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، والله مصيّر دعاء المؤمنين يوم القيامة عملاً يزيدهم في الجنة، فأكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله أمر بكثرة الذكر له، والله ذاكر من ذكره من المؤمنين، واعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلّا ذكره بخير فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته، فإن الله لا يُدرك شيء من الخير عنده إلّا بطاعته واجتناب محارمه التي حرم الله في ظاهر القرآن وباطنه قال في كتابه وقوله الحق: ﴿وذروا ظاهر الاثم وباطنه﴾

---

(١) تحف العقول، للشيخ الحراني، ط لبنان، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

واعلموا أن ما أمر الله به أن تجتنبوه فقد حرمه.

ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم فتضلوا فإن أضل الناس عند الله من اتبع هواه ورأيه بغير هدىً من الله، وأحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم، فإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، واعلموا أنه لن يؤمن عبد من عبيده حتى يرضىٰ عن الله فيما يصنع الله إليه وصنع به على ما أحب وكره ولن يصنع الله بمن صبر ورضي عن الله إلّا ماهو أهله، وهو خير له مما أحب وكره.

وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين كما أمر الله به المؤمنين في كتابه من قبلكم...

وإياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله عزّوجلّ فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة، وإياكم من بغىٰ صيّر الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بغىٰ عليه، ومن نصره الله غلب، وأصاب الظفر من الله، وإياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإن الكفر أصله الحسد وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم، فيدعو الله عليكم فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة، وليعن بعضكم بعضاً، فإن أبانا رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يقول: إن معاونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام.

واعلموا أن الإسلام هو التسليم، والتسليم هو الإسلام، فمن سلّم فقد أسلم ومن لم يسلم فلا إسلام له، ومن سره أن يبلغ إلى نفسه في الإحسان فليطع الله، فإن من أطاع الله فقد أبلغ إلى نفسه في الإحسان

وإياكم ومعاصي الله أن ترتكبوها، فإنه من انتهك معاصي الله فركبها فقد أبلغ في الاساءة إلى نفسه، وليس بين الاحسان والاساءة منزلة، فلأهل الإحسان عند ربهم الجنة ولأهل الاساءة عند ربهم النار، فاعملوا لطاعة الله واجتنبوا معاصيه»[١].

ب ـ خطط الإمام في حقل التطبيق

وإذا استعرضنا نشاطات الإمام الصادق (ع) وفعالياته التغييرية التي قادها عبر مشروعه الاصلاحي العام، لما كدنا أن نحصيها كثرة على إنا سنستعرض بعض عناوين تلك الفعاليات العظيمة التي ساهمت في بناء الإسلام، وإرساء قواعده في دنيا الناس.

وهذه بعض تلك العناوين:

١ ـ مكانة الأمة في حركة الإمام التغييرية:

الأمة في خط الإمام (ع) أداة التغيير والنهضة، ومصلحة الأمة ورعاية شؤونها في نظره تحتل الموقع الثاني بعد مصلحة الإسلام كدين ورسالة.

وتتجلى أهمية الأمة في خط الأئمة من خلال محورين:

أ ـ محور الحرص على المسلمين كأمة.

ب ـ محور الحرص على رفع غائلة الظلم والأذى الذي يلحق المسلمين بسبب التطبيق المنحرف للتشريع الإسلامي.

---

(١) الإمام الصادق (ع)، محمد الحسين المظفري، ج ٢، ص ٤٠ ـ ٤٣، ط ٢، ١٩٥٠.

ونستطيع أن ندوّن قائمة طويلة من مصاديق عمل الإمام (ع) على كلا المستويين:

ـ عن ابن فضال، عن ابن بكير عن بعض أصحابه قال: «كان أبو عبدالله ربما أطعمنا الفراني والأخبصة، ثمّ يطعم الخبز والزيت فقيل له: لو دبرت أمرك حتى يعتدل فقال، إنما تدبيرنا من الله إذا وسع علينا وسعنا وإذا قتَّر قتّرنا»[١].

ـ عن طاهر بن عيسى، عن جعفر بن أحمد، عن أبي الخير، عن علي ابن الحسن، عن العباس بن عامر، عن مفضل بن قيس بن رمانة قال: «دخلت على أبي عبدالله (ع) فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدعاء فقال: يا جارية هاتي الكيس الذي وصلنا به أبو جعفر، فجاءت بكيس فقال: هذا كيس فيه أربعمائة دينار، فاستعنْ به قال: قلت: والله جعلت فداك، ما أردت هذا،ولكن أردت الدعاء لي فقال لي: ولا أَدَعُ الدعاء، ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم»[٢].

ـ محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد عن أبيه، عن علي بن وهبان، عن عمه هارون بن عيسى قال: قال أبو عبدالله (ع) لمحمد ابنه: كم فضل معك من تلك النفقة؟ قال: أربعون ديناراً قال: اخرج وتصدق بها، قال: إنه لم يبقَ معي غيرها، قال: تصدق بها، فإن الله عزّوجلّ يخلفها، أما علمت أن لكلّ شيء مفتاحاً؟ ومفتاح الرزق الصدقة،

(١) المحاسن، ص ٤٠٠.

(٢) رجال الكشي، ص ١٢١.

فتصدق بها، ففعل فما لبث أبو عبدالله (ع) إلّا عشرة حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار، فقال: يا بني أعطينا لله أربعين ديناراً فأعطانا الله أربعة آلاف دينار.[١]

ـ علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبدة الواسطي عن عجلان قال: تعشيت مع أبي عبدالله (ع) بعد عتمة، وكان يتعشى بعد عتمة فأتي بخل وزيت ولحم بارد، فجعل ينتف اللحم فيطعمنيه، ويأكل هو الخل والزيت ويدع اللحم فقال: إن هذا طعامنا وطعام الأنبياء.[٢]

ـ محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن الكاهلي، عن أبي الحسن (عليه السّلام) قال: كان أبي يبعث أُمي وأُم فروة تقضيان حقوق أهل المدينة.[٣]

ـ أحمد بن إدريس وغيره، عن محمد بن أحمد، عن علي بن الريان، عن أبيه، عن يونس أو غيره عمن ذكره، عن أبي عبدالله (ع) قال: قلت له: جعلت فداك بلغني إنك كنت تفعل في غِلة عين زياد شيئاً، وأنا أحب أن أسمعه منك، قال: فقال لي: نعم كنت آمر إذا أدركتْ الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر في كل يوم أن يوضع عشر بَنِيات، يقعد على كل بَنِية عشرة كلما أكل عشرة جاء

---

(١) الكافي: ج ٤، ص ٩.

(٢) الكافي، ج ٦، ص ٣٣٣.

(٣) نفس المصدر، ج ٣، ص ٢١٧.

عشرة أخرى، يلقى لكل نفس منهم مد من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم الشيخ، والعجوز، والصبي، والمريض، والمرأة، ومن لا يقدر أن يجيء فيأكل منها، لكل إنسان منهم مد، فإذا كان الجذاذ وَفّيت القُوّام، والوكلاء، والرجال أجرَتهم، وأحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوتات والمستحقين، الراحلتين والثلاثة والأقل والأكثر على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك أربعمائة دينار، وكان غُلتها أربعةَ آلاف دينار.(١)

ـ محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن حنان، عن شعيب قال: تكارينا لأبي عبدالله (ع) قوماً يعملون في بستان له وكان أجلهم إلى العصر، فلما فرغوا قال لمعتب: أعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم.(٢)

ـ عن حماد بن عثمان قال: «أصاب أهل المدينة غلاء، وقحط حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله، ويشتري ببعض الطعام، وكان عند أبي عبدالله الصادق (ع) طعام جيد قد اشتراه أول السنة فقال لبعض مواليه: اشترِ لنا شعيراً، فاخلطه بهذا الطعام أو بعه، فإنّا نكره أن نأكل جيداً، ويأكل الناس ردياً»(٣).

أما الرعاية الفكرية والمعنوية للأمة فستتضح بعض مصاديقها في

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٦٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٩.

(٣) حلية الأبرار، السيد هاشم البحراني، ج ٢، ص ١٩٣.

الصفحات القادمة.

٢ـ التزام التدرج في عملية التغيير:

التدرج في الدعوة للمبادئ وفي عملية البناء والتغيير الاجتماعي ضرورة تفرضها طبيعة مهمة تلك الدعوة، وليست هي حاجة آنية أو ظرفية تستغني عنها الرسالة إذا انتفت تلك الحاجة أو تغير ذلك الظرف.

ثمّ إن التدرج في دعوة الناس للرسالة يتطلب تحقيق هدفين معاً:

أ ـ اعداد المخاطبين بالأفكار الجديدة نفسياً لتقبل تلك الأفكار قبل القاء «تفصيلات الأفكار» عليهم دفعة واحدة.

ب ـ ونقل المخاطبين من أجوائهم وقناعاتهم السابقة، وتطوير عقلياتهم باتجاه تبني الرسالة الجديدة.

فإذا تحقق هذان الهدفان للرسالة صار بمقدور العملية التغييرية في الناس أن تجري لحساب الرسالة، أما إذا أريد أن تجري عملية رفع الناس إلى مستوى الرسالة دون توفير الهدفين المذكورين فإن القاء الفكرة الكلّية بتفاصيلها على الناس دون مراعاة للظروف النفسية ولا للأجواء الفكرية، ولا لقناعات الجمهور ـ إن ذلك ـ سيؤدي إلى هزة أو ردة فعل عنيفة تفقد الرسالة أهم شروط النجاح في مهمتها:

﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن.. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ .

وقد وفقت تجربة أهل البيت (ع) في العمل الاجتماعي في اعطاء ضرورة التدرج في العمل التغييري بعده العملي الحكيم إتماماً لمسيرة المصطفى (ص) في هذا السبيل، وربما كان لظروف الأئمة (ع) الخاصة،

وطبيعة معاناتهم والأجواء النفسية والعقلية والسياسية التي عاشوها دوراً أساساً في اثراء تجربتهم في هذا الجانب من خطهم ومسيرتهم الهادية.

ونستطيع أن نلتقي مع مئات الشواهد التي تكرس منهج الأئمة (ع) التدريجي في العمل في سبيل الله تعالى من خلال وصاياهم (ع) في هذا الاتجاه أو من خلال الممارسة العملية أو من خلال المفاهيم التي يبثونها في الذين يندمجون بخطهم المبارك أو من حولهم.

قضية التدرج في مستوى التخطيط

وعلى مستوى التخطيط لهذه القضية يبث الإمام (ع) فكرة التدرج في العمل الاجتماعي على أصعدة شتى وفي العديد من الاثارات الفكرية.

وهنا يوضح الإمام أبو عبدالله الصادق (عليه السّلام) فكرة التدرج بعبارة موحية:

«إنّ الله رفيق يحب الرفق، فمن رفقه بعباده، تسليله أضغانهم ومضادتهم لهواهم، وقلوبهم، ومن رفقه بهم: أنه يدعهم على الأمر يريد ازالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم غرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة فيضعفوا فإذا أراد نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخاً».

«يا عبدالعزيز: إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة، مرقاة، فلا يقولن صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على شيء (حتى ينتهي إلى العاشرة)، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من

هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة، فارفعه إليك برفق، ولا تحملن عليه ما لا يطيق، فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره».

من مصاديق التدرج في مستوى التطبيق

حرص الإمام (عليه السّلام) على تنفيذ مشروع التدرج في العمل الاجتماعي الذي أشرنا إلى الحيثيات الموجبة لتبنيه في نظرهم، على مستوى حركتهم هم، وعلى مستوى حركة المندمجين في خطهم من المؤمنين وفي السيرة المطهرة للإمام (ع) مصاديق كثيرة نذكر منها ما يلي:

ـ عن يعقوب بن الضحاك، عن أبي عبدالله (ع) (في حديث) أنه جرى ذكر قوم قال: «فقلت له: أنّا لنبرأ منهم أنهم لا يقولون ما نقول، قال: فقال: يتولونا ولا يقولون ما تقولون تبرأون منهم؟ قلت: نعم، قال: فهو ذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم (إلى أن قال): فتولوهم ولا تبرأوا منهم إن من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولا صاحب السهمين ما لا عليه صاحب الثلاثة، ولا صاحب الثلاثة على ما عليه صاحب الأربعة، ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة، ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة، ولا صاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة.

ويقدم الإمام (ع) نموذجاً عملياً حول أهمية مفهوم التدرج في العمل فيقول:

وسأضرب له مثلاً، إن رجلاً كان له جار وكان نصرانياً فدعاه إلى الإسلام وزينه له فأجابه، فأتاه سحيراً فقرع عليه الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال توضأ والبس ثوبيك ومر بنا إلى الصلاة، قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصليا ما شاء الله، ثمّ صليا الفجر، ثمّ مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانياً يريد منزله، فقال الرجل: أين تذهب النهار قصير، والذي بينك وبين الظهر قليل، قال: فجلس معه إلى أن صلّى الظهر، ثمّ قال: وما بين الظهر والعصر قليل، فاحتبسه حتى صلّى العصر، قال: ثمّ قام وأراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إن هذا آخر النهار وأقل من أوله، فاحتبسه حتى صلّى المغرب، ثمّ أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنما بقيت صلاة واحدة. قال، فمكث حتى صلّى العشاء الآخرة ثم تفرقا، فلما كان سحيراً غدا عليه فضرب عليه الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضأ والبس ثوبيك واخرج فصل، قال: اطلب لهذا الدين من هو أفرغ منّي، وأنا إنسان مسكين وعلي عيال، فقال أبو عبدالله (ع) أدخله في شيء وأخرجه منه، أو قال: ادخله من مثل هذه واخرجه من مثل هذا»[١].

٣ ـ ظاهرة العموم والخصوص في عمل الإمام الصادق (ع):

تميزت حركة الأئمة (عليهم السّلام) من أجل التغيير الإسلامي

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤٢٧.

باهتمامها بمحورين اثنين معاً:

أ ـ محور عموم الأمة

ب ـ ومحور العمل الخاص الهادف لبلورة المتمسكين بخطهم ضمن اطار الأمة لتحمل متبنيات الأئمة (ع) في الفكر والعمل.

وتناول اهتمام الإمام (ع) في الحقل العام: المستوى الفكري للأمة وحمل همومها، والحدب عليها والتخفيف من المظالم الواقعة عليها من الظالمين وما إلى ذلك من أمور.

وانصب الاهتمام في الاطار الخاص على انتقاء الأشخاص القادرين على تحمل أعباء المسؤولية، ومن ثم تأهيلهم فكرياً وروحياً وسلوكياً لحمل هموم الرسالة، ومباشرة عملية التغيير الإيجابي في الأمة.

وفي المسير المدونة عن أهل البيت (ع) مصاديق جمة حول حركة الأئمة (ع) على المستويين:

أ ـ من مصاديق العمل العام:

وهذه بعض مفردات حركة الإمام (ع) العامة:

ـ «حججنا مع أبي جعفر عليه السّلام في السنة التي حج فيها هشام بن عبدالملك وكان معه نافع مولى عمر بن الخطّاب، فنظر نافع إلى أبي جعفر (ع) في ركن البيت وقد اجتمع عليه الناس، فقال نافع: يا أميرالمؤمنين من هذا الذي قد تداكّ عليه الناس؟»[1].

ـ «وعن زكريا بن إبراهيم: كنت نصرانياً، فأسلمت وحججت

---

(١) حلية الأبرار، السيد هاشم البحراني، ت ١١٠٧، ج ٢، ص ٩٨.

فدخلت على أبي عبدالله الصادق (ع) بمنىٰ، والناس حوله كأنه معلم صبيان هذا يسأله، وهذا يسأله»[١].

تلك مصاديق لحركة الإمام (ع) على المستوى العام للأمة، حيث يوفر الهداة (عليهم السّلام) الرعاية المعنوية والمادية لحركة الأمة وفقاً للامكانات المتاحة وما تتوفر من ظروف مناسبة.

ب ـ من شواهد التحرك الخاص:

أما على مستوى بناء جهاز «الخواص» من هذه الأمة، فلإمام (عليه السّلام) برنامج دقيق لبناء تلك الكتلة وتنميتها كمياً وكيفياً..

وهذه بعض مفردات ذلك البرنامج كما نص عليه الإمام الصادق (ع):

ـ «اتقوا على دينكم فاحجبوه بالتقية، فإنه لا إيمان لمن لا تقية له...»[٢].

ـ «اقرأ من ترى أنه يطيعني منكم، ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّوجلّ، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلّى الله عليه وآله.

أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها بَراً أو فاجراً، فإن رسول الله كان يأمر بأداء الخيط، والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه،

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٥.

(٢) الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٢١٨، طهران، ط ١٣٨٨.

وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري ويسرني ذلك، ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره وقيل، هذا أدب جعفر»[١].

ـ عن إسحاق بن عمار قال: «قلت لأبي عبدالله (ع) قد هممت أن أكتم أمري من الناس كلهم حتى أصحابي خاصة، فلا يدري أحد عليَّ ما أنا عليه، فقال: ما أحب ذلك لك، ولكن جالس هؤلاء مرة وهؤلاء مرة».

«استقبلت أبا عبدالله عليه السّلام في طريق، فاعرضت عنه بوجهي ومضيت، فدخلت عليه بعد ذلك، فقلت: جعلت فداك إني لألقاك فأصرف وجهي كراهة أن أشق عليك، فقال لي: رحمك الله، ولكن رجلاً لقيني أمس في موضع كذا وكذا فقال: عليك السلام يا أبا عبدالله ما أحسن ولا أجمل».

عن علي بن الحسين (ع) قال: «وددت والله أني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي النزق، وقلة الكتمان».

«إنّ أولياء الله وأولياء رسوله من شيعتنا من إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا ائتمن أدى، وإذا حمل احتمل في الحق، وإذا سئل الواجب أعطى، وإذا أمر بالحق فعل، شيعتنا من لا يعدو عمله سمعه، شيعتنا من لا يمدح لنا معيباً، ولا يواصل لنا مبغضاً، ولا يجالس لنا خائناً، إن لقي مؤمناً أكرمه، وإن لقي جاهلاً هجره، شيعتنا من لا يهر هرير الكلب، ولا

---

(١) الإمام الصادق (ع)، محمد حسين المظفر، ج ٢، ص ٥٣، ط ٢، النجف الأشرف.

يطمع طمع الغراب، ولا يسأل أحداً إلّا من اخوانه وإنْ مات جوعاً، شيعتنا من قال بقولنا وفارق أحبته فينا، وأدنى البعداء في حبنا، وأبعد الغرباء في بغضنا».

وإذا تتبعنا حركة الأئمة (ع) من الناحية التاريخية لوجدنا إن كلا المحورين المذكورين من عملهم قد مورسا في عهد أي إمام منهم ولكن مساحة عمل أي إمام أو مجموعة من الأئمة (ع) على صعيد هذا المحور أو ذاك تتسع أو تضيق حسب الظروف المحيطة والامكانات المتاحة للحركة.

والإمام الذي تتاح له ظروف العمل بشكل مناسب يتسع إطار عمله العام، وعمله الخاص معاً، وعلى العكس تماماً تكون حركة الإمام الذي لا تتاح له ظروف العمل.

٤ـ المناظرات و رد الشبهات:

بسبب انفتاح المسلمين على الحضارات والأفكار التي كانت تهيمن على البلاد التي فتحها المسلمون خلال القرن الأول والثاني الهجريين كثرت الشبهات والأفكار المنحرفة في بلاد المسلمين، فقد ظهر الزنادقة ونشطت حركة التصوف وظهر الجبر والتفويض، ونشط أصحاب التشبيه والتعطيل وما إلى ذلك..

وكان للإمام الصادق (ع) وتلاميذه دور مشرف فعال في صد تلك الموجات الفكرية الشاذة..

وقد شهدت الحركة الفكرية في عصر الإمام الصادق (ع) ظاهرة من الحوار والمناظرات لرد شبهات المنحرفين وأصحاب النظريات الغافلة

عن الحق وكان على رأس المحاورين الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع).

وهذه نماذج من حوارات ومناظراته الهادية:

أ ـ موقف من الزنادقة

عن عيسى بن يونس قال: «كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري، فانحرف عن التوحيد، فقيل له: تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؟

قال: إن صاحبي كان مخلطاً، يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر، فما أعلمه أعتقد مذهباً دام عليه، فقدم مكة متمرداً، وإنكاراً على من يحجه، وكان تكره العلماء مجالسته لخبث لسانه، وفساد ضميره فأتى أبا عبدالله (ع) فجلس إليه في جماعة من نظرائه، فقال: يا أبا عبدالله إن المجالس بالأمانات، ولابدّ لكل من به سعال أن يسعل، أفتأذن لي في الكلام؟ فقال تكلّم، فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر، إن منّ فكر في هذا وقدر علم إن هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبو أُسه ونظامه!

فقال أبو عبدالله (ع): إن من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق ولم يستعذ به وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة ثمّ لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في اتيانه، فحثهم على

تعظيمه وزيارته، جعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شبعة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر، الله المنشئ للأرواح والصور.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت الله فأحلت على الغائب.

فقال أبو عبدالله (ع): ويلك!! كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم؟!

فقال ابن أبي العوجاء: فهو في كل مكان، أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟

فقال أبو عبدالله (ع): إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان.

وروي أن الصادق (ع) قال لابن أبي العوجاء: إن يكن الأمر كما تقول ـ وليس كما تقول ـ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول ـ وهو كما نقول ـ نجونا وهلكت.

وروي أيضاً: أن ابن أبي العوجاء سأل الصادق (ع) عن حدوث العالم فقال: ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلّا إذا ضم إليه مثله صار أكبر،

وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأُولى ولو كان قديماً مازال ولا حال لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخول في القدم، ولن يجتمع صفة الحدوث والقدم في شيء واحد.

قال ابن أبي العوجاء: هبك علمك في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت استدللت على حدوثها فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال (ع): أنّا نتكلّم عن هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدل على الحدث، ومن رفعنا إياه ووضعناه غيره، لكن أجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا، فنقول: إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء منه إلى شيء منه كان أكبر، وفي جواز التغير عليه خروجه من القدم، كما أن في تغيره دخوله في الحدث، وليس لك وراءه شيء يا عبدالكريم.

وعن يونس بن ظبيان قال: دخل رجل على أبي عبدالله (ع) قال: أرأيت الله حين عبدته؟ قال: ما كنت أعبد شيئاً لم أراه، قال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه»[١].

وفي كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي والكافي للشيخ الكليني وغيرهما مصاديق رائعة من مناظرات الإمام أبي عبدالله الصادق مع

---

(١) الاحتجاج، لأبي منصور الطبرسي، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦، ط بيروت.

زنادقة عصره.

ب ـ حواره مع أبي حنيفة (النعمان بن ثابت)

ورغم مناظرات الإمام الصادق (ع) مع الزنادقة وأمثالهم من حملة الباطل فإن له حوارات ومناقشات مع فقهاء عصره ومفكريهم من المسلمين وهذه نماذج من حوارات مع أبي حنيفة:

ـ عن بشير بن يحيى العامري عن ابن أبي ليلى قال: دخلت أنا والنعمان أبو حنيفة على جعفر بن محمد، فرحب بنا فقال: يا ابن أبي ليلى من هذا الرجل؟ فقلت: جعلت فداك من أهل الكوفة له رأي وبصيرة ونفاذ. قال: فلعله الذي يقيس الأشياء برأيه؟ ثم قال: يا نعمان! هل تحسن أن تقيس رأسك؟ قال: لا، قال: ما أراك تحسن أن تقيس شيئاً فهل عرفت الملوحة في العينين، والمرارة في الاذنين، والبرودة في المنخرين، والعذوبة في الفم؟ قال: لا. قال: فهل عرفت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟ قال: لا. قال ابن أبي ليلى: قلت: جعلت فداك لا تدعنا في عمياء مما وصفت.

قال: نعم، حدثني أبي عن آبائه (ع) إن رسول الله (ص) قال: إنّ الله خلق عيني ابن آدم شحمتين فجعل فيهما الملوحة، فلولا ذلك لذابتا ولم يقع فيهما شيء من القذي إلّا أذابه، والملوحة تلفظ ما يقع في العين من القذى، وجعل المرارة في الاذنين حجاباً للدماغ، وليس من دابة تقع في الأذن إلّا التمست الخروج، ولولا ذلك لوصلت إلى الدماغ فافسدته، وجعل الله البرودة في المنخرين حجاباً للدماغ ولولا ذلك

لسال الدماغ وجعل العذوبة في الفم مناً من الله تعالى على ابن آدم ليجد لذة الطعام والشراب.

وأما كلمة أولها كفر وآخرها إيمان فقول: لا إله إلّا الله، ثمّ قال: يا نعمان! إياك والقياس، فإن أبي حدثني عن آبائه (ع) أن رسول الله (ص) قال: من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله تبارك وتعالى مع إبليس، فإنه أول من قاس حيث قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فدعوا الرأي والقياس فإن دين الله لم يوضع على القياس.

وفي رواية أخرى أن الصادق (ع) قال لأبي حنيفة، لما دخل عليه من أنت؟ قال: أبو حنيفة، قال (ع): مفتي أهل العراق؟ قال: نعم، قال: بما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله، قال (ع): وإنك لعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه؟ قال: نعم.

قال: فأخبرني عن قول الله عزّوجلّ ﴿وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي موضع هو؟!

قال أبو حنيفة: هو ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبدالله إلى جلسائه، وقال: نشدتكم بالله هل تسيرون بين مكة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرق؟ فقالوا: اللّهم نعم.

فقال أبو عبدالله (ع): ويحك يا أبا حنيفة إن الله لا يقول إلّا حقاً. أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ أي موضع هو؟ قال: ذلك بيت الله الحرام، فالتفت أبو عبدالله إلى جلسائه وقال: نشدتكم بالله هل تعلمون: إن عبدالله بن الزبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟ قالوا: اللّهم نعم.

فقال أبو عبدالله (ع): ويحك يا أبا حنيفة، إنّ الله لا يقول إلّا حقاً.

فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله، إنمَا أنا صاحب قياس. قال أبو عبدالله: فانظر في قياسك إن كنت مقيساً أيما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟ قال: بل القتل. قال: فكيف رضى في القتل بشاهدين، ولم يرضى في الزنا إلّا بأربعة؟ ثم قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟ قال: بل الصلاة أفضل. قال (ع): فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة. قال له (ع): البول أقذر أم المني؟ قال ألبول أقذر. قال (ع): يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول. قال: إنما أنا صاحب رأي.

قال (ع): فماترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة ثم سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد وولدتا غلامين فسقط البيت عليهم، فقتل المرأتين وبقي الغلامان أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك وأيهما الوارث وأيهما والموروث؟ قال: إنما أنا صاحب حدود. قال: فماترى في رجل أعمى فقأ عين صحيح وأقطع قطع يد رجل، كيف يقام عليهما الحد. قال: إنما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء. قال: فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حيث بعثهما إلى فرعون (لعلّه يتذكر أو يخشى) ولعل منك شكاً؟ قال: نعم. قال: وكذلك من الله شك إذ قال: (لعله)؟ قال أبو حنيفة: لا علم لي.

قال (ع): تزعم أنك تفتي بكتاب الله ولست ممن ورثه، وتزعم أنك صاحب قياس وأول من قاس إبليس لعنه الله ولم يبنَ دين الإسلام

على القياس، وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله (ص) صواباً، ومن دونه خطأً، لأن الله تعالى قال: ﴿**فاحكم بينهم بما أراك الله**﴾ ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنك صاحب حدود، ومن أنزلت عليه أولى بعلمها منك وتزعم أنك عالم بمباعث الأنبياء ولخاتم الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، ولولا أن يقال: دخل عليَّ ابن رسول الله فلم يسأله عن شيء ما سألتك عن شيء، فقس إن كنت مقيساً.

قال أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس»[١].

٥ـ مناظرات مع المعتزلة:

وللإمام (ع) مناقشات دقيقة مع أهل الاعتزال وكانوا في عصره قد شكلوا خطاً فكرياً مميزاً تجاه المدارس الفكرية الأخرى.

ونذكر هنا نموذجاً من مناقشات الإمام (ع) معهم:

ـ عن عبدالكريم بن عتبة الهاشمي: «كنت عند أبي عبدالله (ع) بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم عمر بن عبيد وواصل بن عطاء وحفص بن سالم، وأناس من رؤسائهم، وذلك أنه حين قتل الوليد، واختلف أهل الشام بينهم، فتكلموا فأكثروا وخطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبدالله جعفر بن محمد (ع): إنكم قد أكثرتم عليَّ فأطلتم فاسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم وليوجز.

فاسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال، فكان فيما قال إن

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٨ـ ٣٦٢.

قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروة، ومعدن للخلافة وهو محمد بن عبدالله بن الحسن فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ثمّ نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن بايعه كنّا معه وكان منّا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونرده إلى الحق وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا على مثلك، لفضلك، ولكثرة شيعتك، فلما فرغ قال أبو عبدالله (ع): أكلكم على مثل ما قال عمرو؟

قالوا: نعم، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي ثمّ قال: إنما نسخط إذا عصيَ الله فإذا أطيع الله رضينا، أخبرني يا عمرو لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤونة، فقيل لك: (ولِّها من شئت) من كنت تولي؟

قال: كنت أجعلها شورى بين المسلمين، قال: بين كلّهم؟ قال: نعم.

فقال: بين فقهائهم وخيارهم؟ قال: نعم.

قال: قريش وغيرهم؟ قال: العرب والعجم.

قال: فأخبرني يا عمرو أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرأ منهما؟ قال: أتولاهما.

قال: يا عمرو إن كنت رجلاً تتبرأ منهما، فإنه يجوز لك الخلاف عليهما وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردها أبو بكر عليه ولم يشاور أحداً، ثمّ جعلها عمر شورى بين ستة، فخرج منها الأنصار غير اولئك الستة من

قريش، ثمّ أوصى الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى أنت ولا أصحابك
قال: وما صنع؟

قال: أمر صهيباً أن يصلّي بالناس ثلاثة أيام وأن يتشاور اولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلّا ابن عمر ويشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصى من كان بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا ويبايعوا أن يضرب أعناق الستة جميعاً، وأن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟ قالوا: لا.

قال: يا عمرو دع ذا أرأيت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو إليه، ثمّ اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف عليكم منها رجلان فافضيتم إلى المشركين الذين لم يسلموا ولم يؤدوا الجزية، كان عندكم وعند صاحبكم من العلم ما تيسيرون فيهم بسيرة رسول الله (ص) في المشركين في الجزية؟ قالوا: نعم.

قال: فتصنعون ماذا؟ قالوا: ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال: فإن كانوا مجوساً وأهل كتاب وعبدة النيران والبهائم وليسوا بأهل كتاب؟ قالوا: سواء.

قال: فأخبرني عن القرآن أتقرؤونه؟ قال: نعم.

قال: اقرأ **﴿قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الّذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** قال: فاستثنى الله

عزّوجلّ واشترط من الذين اوتوا الكتاب فهم والذين لم يؤتوا الكتاب سواء؟ قال: نعم.

قال (ع): عمن أخذت هذا؟ قال: سمعت الناس يقولونه.

قال: فدع ذا فإنهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم كيف تصنع بالغنيمة؟ قال: أخرج الخمس وأقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليها.

قال: تقسمه بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم.

قال: فقد خالفت رسول الله في فعله وفي سيرته، وبيني وبينك فقهاء أهل المدينة ومشيختهم، فسلهم فإنهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أن رسول الله إنما صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم وأن لا يهاجروا، على أنه إن دهمه من عدوه دهم فيستفزهم فيقاتل بهم، وليس لهم من الغنيمة نصيب، وأنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله (ص) في سيرته في المشركين، دع ذا ما تقول في الصدقة؟

قال: فقرأ عليه هذه الآية ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها..**﴾ إلى آخرها قال نعم، فكيف تقسم بينهم؟

قال: أقسمها على ثمانية أجزاء فأعطي كل جزء من الثمانية جزءاً.

فقال (ع): إن كان صنف منهم عشرة آلاف وصنف رجلاً واحداً أو رجلين أو ثلاثة، جعلت لهذا الواحد مثل ما جعلت للعشرة آلاف؟ قال: نعم.

قال: وما تصنع بين صدقات أهل الحضر وأهل البوادي فتجعلهم فيها سواء؟ قال: نعم.

قال: فخالفت رسول الله في كل ما أتى به، كان رسول الله يقسم

صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضر في أهل الحضر، ولا يقسم بينهم بالسوية إنما يقسمه قدر ما يحضره منهم، وعلى قدر ما يحضره فإن كان في نفسك شيء مما قلت لك فإن فقهاء أهل المدينة ومشيختهم، كلهم لا يختلفون في أن رسول الله كذا كان يصنع، ثم أقبل على عمرو وقال: اتق الله يا عمرو وأنتم أيضاً الرهط فاتقوا الله، فإن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله إن رسول الله (ص) قال: من ضرب الناس بسيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضال متكلف»[1].

٦ ـ نموذج من حواراته مع منكري خط الإمام الحق بعد النبي (ص):

وهذا نموذج من حوار الإمام (عليه السّلام) مع مخالفي خط إمامة أهل البيت (ع):

روي عن يونس بن يعقوب قال: «كنت عند أبي عبدالله (ع) فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له أبو عبدالله (ع): كلامك هذا من كلام رسول الله (ص) أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله بعضه ومن عندي بعضه.

فقال أبو عبدالله: فأنت إذاً شريك رسول الله (ص)؟ قال: لا.

قال: فسمعت الوحي من الله تعالى؟ قال: لا.

قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله؟ قال: لا.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

قال: فالتفت إليَّ أبو عبدالله (ع) فقال: يا يونس هذا خصم نفسه قبل أن يتكلّم، ثم قال: يا يونسَ لو كنت تحسن الكلام كلمته، قال يونس: فيا لها من حسرة، فقلت: جعلت فداك سمعت تنهى عن الكلام، وتقول: ويل لأصحاب الكلام يقولون: هذا ينقاد وهذا ينساق وهذا لا ينساق وهذا نعقله وهذا لا نعقله!

فقال أبو عبدالله (ع): إنما قلت ويل لقوم تركوا قولي بالكلام وذهبوا إلى ما يريدون، ثم قال أخرج إلى الباب فمن ترى من المتكلّمين فأدخله!

قال: فخرجت فوجدت حمران بن أعين وكان يحسن الكلام، ومحمد بن نعمان الأحول وكان متكلماً، وهشام بن سالم وقيس الماصر وكانا متكلّمين وكان قيس عندي أحسنهم كلاماً وكان قد تعلّم الكلام من علي بن الحسين، فأدخلتهم، فلما استقر بنا المجلس وكنّا في خيمة لأبي عبدالله (ع) في طرف جبل في طريق الحرم، وذلك قبل الحج بأيام، فأخرج أبو عبدالله رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخب قال: هشام ورب الكعبة.

قال: وكنّا ظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل، وكان شديد المحبة لأبي عبدالله، فإذا هشام بن الحكم، وهو أول ما اختطت لحيته وليس فينا إلّا من هو أكبر منه سناً، فوسع له أبو عبدالله (ع) وقال: (ناصرنا بقلبه ولسانه ويده) ثمّ قال لحمران: كلم الرجل ـ يعني الشامي ـ.

فكلمه حمران وظهر عليه ثمّ قال: يا طاقي كلمه، فكلمه فظهر عليه محمد بن نعمان، ثم قال لهشام ابن سالم، كلمه، فتعارفا ثمّ قال لقيس الماصر: كلمه وأقبل أبو عبدالله (ع) يبتسم من كلامهما وقد استخذل

الشامي في يده ثم قال للشامي: كلم هذا الغلام، يعني: هشام بن الحكم، فقال: نعم.

ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا ـ يعني أبا عبدالله (ع) ـ؟

فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له: أخبرني يا هذا أربك أنظر لخلقه، أم خلقه لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم به، وأزاح في ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال الشامي: هو رسول الله (ص).

قال هشام: فبعد رسول الله (ص) من؟ قال: الكتاب والسنّة.

فقال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنّة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنّا الاختلاف، ومكننا من الاتفاق؟ فقال الشامي: نعم.

قال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت جئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت مقر بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟

فسكت الشامي كالمفكر: فقال أبو عبدالله)(ع): ما لك لا تتكلم؟

قال: إن قلت: إنّا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت: إن الكتاب والسنّة يرفعان عنّا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك..

فقال أبو عبدالله (ع): سله تجده ملياً، فقال الشامي لهشام من أنظر للخلق ربهم أم أنفسهم؟ فقال: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين لهم حقهم من باطلهم؟ فقال هشام: نعم.

قال الشامي: من هو؟ قال هشام: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله (ص)، وأما بعد النبي فعترته.

قال الشامي: من هو عترة النبي القائم مقامه في حجته؟ قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟ قال الشامي: بل في وقتنا هذا، قال هشام: هذا الجالس ـ يعني أبا عبدالله (ع) ـ الذي تُشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن جده.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟ فقال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري، فعليَّ السؤال، فقال أبو عبدالله (ع): أنا أكفيك المسألة يا شامي: أخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومرّ بك كذا، فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: صدقت والله، فقال الشامي: أسلمت لله الساعة. فقال له أبو عبدالله (ع): بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون، قال: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنك وصي الأنبياء»[١].

(١) المصدر السابق، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧.

العقدة القرشية

ـ الدور القرشي في صياغة أحداث التاريخ ـ

مدخل

من المشاكل الأساسية التي تواجه الدراسة المستوعبة لأبعاد نهضة الإمام أبي عبدالله الحسين بن علي (ع) ـ لكي تسمي الأشياء بأسمائها ـ إن أكثر الدراسات تستبعد الدور القرشي المعارض للحركة النبوية وكل ما أتت به منذ البداية حتى مأساة الطفوف التي قُتِل فيها سبط النبي محمد بن عبدالله (ص) بذلك الشكل الفظيع، وما رافق ذلك القتل من استهتار ونهب واعتداء بشكل لم يجد له مبرراً إلّا كونه نتيجة مجموعة كبيرة من التراكمات الفكرية والنفسية الحاقدة على النبي ذاته وآل بيته من بعده صلوات الله عليهم أجمعين..

لقد بقيت «عقدة» الرفض القرشي لدعوة النبي الخاتم (ص) مواكبة للرسالة الإلهية الخاتمة منذ أن صدع بها رسول الله محمد بن عبدالله (ص)، حيث استعملت قريش شتى الأساليب الخبيثة لقتل الدعوة في مهدها.

واستمر هذا التآمر على شخص النبي (ص) وأصحابه وأهل بيته ورسالته باللسان والسِنان، حيث خاض النبي (ص) منذ هجرته إلى يثرب عدداً من الحروب الدامية من أجل أن تكف قريش عن عدوانها على الإسلام ودعوته المباركة، إلّا أن قريشاً لم تتوقف عن عدوانها وكيدها المعلن المسلح إلّا بانهيار «مكة» في شهر رمضان من عام ٨ هجرية، حيث استسلمت قريش في ظاهرها للإسلام، وأعلنت

الشهادتين تحت ظلال السيوف على دخل في القلب وسوء طوية..

بيد أن قريشاً، و«الملأ» منها على وجه الخصوص، راحت تكرس حالة التآمر على الإسلام من داخل الاطار، حيث بمقدورك أن تشم رائحة الكيد والعدوان من الكلمات والمواقف التالية التي حفظها التاريخ الصحيح:

موقف الزعيم القرشي أبي سفيان يوم فتح مكة

... قال له الرسول (ص): ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله؟

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأُمي، ما أوصلك، وأكرمك، وأرحمك، وأحلمك، والله لقد ظننت أن لو كان معه إله، لأغنى يوم بدر!!

فقال (ص): ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم، أني رسول الله؟

فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأُمي أما هذه، ففي النفس منها شيء.[١]

تصريح لجويرية بنت أبي جهل

بعد أن تمّ فتح مكة، وألقت قريش سلاحها صاغرة أمام زحف جيوش المسلمين صرّحت جويرية قائلة: «لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة... أما نحن فسنصلي، ولكنّا لا نحب من

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٢ : ٢٤٥، ط بيروت، ١٩٦٥ م.

قتل الأحبة»[١]، أي لا يدخل حب النبي وآله قلبها حتى وإن أُرغِمت على إقامة الشعائر الظاهرية للإسلام.

وتشهد حادثة سرية أُسامة بن زيد بعد ذلك

وفي آخر أيام رسول الله (ص)، عقد رسول الله (ص) لواء لأُسامة بن زيد وأمره بالرحيل إلى قتال الروم، ودعا كافة الصحابة من المهاجرين والأنصار للإلتحاق بجيش أُسامة، وقد ضمّ الجيش من الصحابة: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم وكان ذلك لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، فلما كان من الغد دعا أُسامة، فقال له: سِر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتك هذا الجيش فأغِرْ على أهل أُبنىٰ[٢] وحرّق عليهم، واسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله عليهم فأقِل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدّم العيون والطلائع معك، فلما كان اليوم الثامن والعشرون من صفر، بدأ به (ص) مرض الموت فحم وصدع، فلما أصبح يوم التاسع والعشرين ووجدهم متثاقلين خرج إليهم فحضهم على السير، وعقد (ص) اللواء لأُسامة، بيده الشريفة تحريكاً لحميتهم، وإرهافاً

---

(١) الكامل في التاريخ، ٢ : ٢٥٤.

(٢) أُبنىٰ: بضم الهمزة وسكون الباء ثم نون مفتوحة بعدها ألف مقصورة: ناحية بالبلقاء من أرض سوريا بين عسقلان والرملة، وهي قرب مؤتة التي استشهد عندها زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين في الجنة (ع).

لعزيمتهم، ثم قال: أغزُ بسم الله وفي سبيل الله، وقاتل من كفر بالله، فخرج بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريدة، وعسكر بالجرف، ثم تثاقلوا هناك فلم يبرحوا، مع ما وعوه ورأوا من النصوص الصريحة في وجوب اسراعهم كقوله (ص): أغزُ صباحاً على أهل أُبْنىٰ، وقوله: وأسرع السير لتسبق الأخبار، إلى كثير من أمثال هذه الأوامر التي لم يعملوا بها في تلك السرية، وطعن قوم منهم في تأمير أُسامة كما طعنوا من قبل في تأمير أبيه، وقالوا في ذلك فأكثروا مع ما شاهدوه من عهد النبي له بالأمارة، وقوله (ص) له يومئذ: فقد وليتك هذا الجيش، ورأوه يعقد له لواء الامارة ـ وهو محموم ـ بيده الشريفة، فلم يمنعهم ذلك من الطعن في تأميره حتى غضب من طعنهم (ص)، غضباً شديداً، فخرج معصّب الرأس[1]، مدثراً بقطيفته، محموماً ألِماً، وكان ذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول قبل وفاته بيومين، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ـ فيما أجمع أهل الأخبار على نقله ـ واتفق أولو العلم على صدوره: أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أُسامة، ولئن طعنتم في تأميي أُسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من

(١) كل من ذكر هذه السرية من المحدثين وأهل السير والأخبار، نقل طعنهم في تأمير أُسامة وأنه غضب غضباً شديداً، فخرج على الكيفيّة التي ذكرناها، فخطب الخطبة التي أوردناها، فراجع سرية أُسامة من طبقات ابن سعد، وسيرتي الحلبي والدحلاني، وغيرها من المؤلفات في هذا الموضوع وهذا الهامش ذكره شرف الدين في المراجعات، ص ٢٨٥.

قبله، وأيم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق بها، وحضهم على المبادرة إلى السير، فجعلوا يودعونه ويخرجون إلى العسكر بالجرف وهو يحضهم على التعجيل، ثم ثعل في مرضه فجعل يقول: جهزوا جيش أُسامة، وانفذوا جيش أُسامة، ارسلوا بعث أُسامة، يكرر ذلك وهم متثاقلون، فلما كان يوم الاثنين: الثاني عشر من ربيع الأول دخل أُسامة من معسكره على النبي (ص)، فأمره بالسير قائلاً له: أغدُ على بركة الله تعالى، فودعه وخرج إلى العسكر، ثم رجع ومعه عمر، وأبو عبيدة، فانتهوا إليه وهو يجود بنفسه، فتوفى في ذلك اليوم، فرجع الجيش باللواء إلى المدينة الطيّبة.(١)

ويعلن الصحابي القرشي عمر بن الخطّاب عن ذلك

لما اشتد المرض على النبي (ص) قال للحاضرين من أصحابه: «هلمَّ أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن رسول الله يهجر، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت ـ الحاضرون في البيت ـ فاختصموا، منهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف

---

(١) الكامل في التاريخ، الطبري، ٢ : ٤٢٩ (أحداث سنة إحدى عشرة)، وما بعدها، والمراجعات للسيد شرف الدين، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، نقلاً عن مصادره: طبقات ابن سعد، والسيرة الدحلانية، وابن الأثير، والسيرة الحلبية وغيرها. واللفظ أخذناه نصاً من المراجعات، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، بأسانيده.

عند النبي (ص) قال لهم رسول الله (ص): قوموا»[١].

وفي حوار بين الصحابي الهاشمي عبدالله بن العباس، والصحابي القرشي عمر بن الخطّاب تظهر هذه الوثيقة: قال عمر بن الخطّاب: «يا ابن عباس! أتدري ما منع قومكم منكم، بعد محمد (ص)؟ قال ابن عباس، فكرهت أن أُجيبه فقلت: إن لم أكن أدري فإنّ أميرالمؤمنين يدريني! فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فقلت: يا أميرالمؤمنين، إن تأذن لي في الكلام وتَمُطْ عنّي الغضب تكلمت، قال: تكلّم، قلت: أما قولك يا أميرالمؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو إن قريشاً اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك: إنهم أبوا أن تكون لنا النبوّة والخلافة فإن الله عزّوجلّ، وصف قوماً بالكراهة قال: ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾ فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أقرك عليها فتزيل منزلتك منّي، فقلت: ماهي يا أميرالمؤمنين؟ فإن

---

(١) صحيح البخاري من باب قول المريض قوموا عنّي من كتاب المرضى، ٤ : ٥ و ٢ : ١١٨، جوائز الوفد من كتاب الجهاد، و ٤ : ٥ ـ ٦٦، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص ٦٢، والكامل لابن الأثير، ٢ : ٣٢٠، وغيرهم. وقد نقلت أكثر المصادر كلمة عمر النابية «يهجر أو هجر» بالمعنى، فبعضهم قال غلبه الوجع، وبعضهم لم يذكر اسم عمر عندما يذكر لفظ يهجر. أنظر المصادر المذكورة وغيرها.

كانت حقاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنّا حسداً وبغياً وظلماً، فقلت: أمّا قولك يا أميرالمؤمنين: ظلماً، فقد تبين للجاهل والحليم، وأما قولك: حسداً، فإن آدم حسد ونحن ولده المحسدون، فقال عمر: هيهات، هيهات، أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلّا حسداً لا يزول، فقلت: مهلاً يا أميرالمؤمنين، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً بالحسد والغش، فإن قلب رسول الله (ص) من قلوب بني هاشم، فقال عمر: إليك عنّي يا ابن عباس، فقلت: افعل، فلما ذهبت لأقوم استحيا منّي فقال: يا ابن عباس مكانك! فوالله إني لراعٍ لحقك محب لما سرّك، فقلت: يا أميرالمؤمنين! إن لي عليك حقاً وعلى كل مسلم، فمن حفظه فحظّه أصاب، ومن أضاعه فحظّه أخطأ ثم قام فمضى»[(١)].

.. ومع كل هذه الوثائق التي تدين قريشاً وتكشف عن الكيد المبيت المستمر لقريش على النبى وآله ودعوته، نكاد نقطع بصحة الرواية التي تشير إلى أن اجتماعاً قريشياً سرياً قد عقده «الملأ» من قريش في ذات يوم الغدير (الثامن عشر من شهر ذي الحجة عام ١٠ هـ)، وكانوا خمسين رجلاً، حيث تعاقدوا على إفشال مشروع النبي (ص) في

---

(١) شرح النهج الحديدي، ١٢ : ٥٣ ـ ٥٥، الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٣ : ٦٣ ـ ٦٥، وتاريخ الطبري، ط ١، مصر، ٥ : ٣٠ ـ ٣٢، وط أوروبا، ١ : ٢٧٦٨ ـ ٢٧٧٢.

استخلافه لعليّ بن أبي طالب (ع) بعده.[(١)]

وهكذا كانت اجتماعات السقيفة ـ التي بغض النظر عن شرعيتها وعما تمخضت عنه ـ فإنها تجاوزت آل النبي وعشيرته جهاراً في وضح النهار، كأن لم يكن لهم وجود حاضر في المدينة!!

وبمقدورنا أن نلتقي مع عمق معاناة آل النبي (ص) من كيد قريش وعدوانها حين نقرأ هذه الكلمات العلوية التي تقطر مظلومية وأذىً.

فهذا هو علي بن أبي طالب وجيه عترة رسول الله (ص)، وعنوان أهل البيت (ع) يضرع إلى الله تعالى أن يأخذ بحقه من قريش: «اللّهم إني أستعديك على قريش، ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغَّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي»[(٢)]، «اللّهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رحمي، وغصبوني حقي، وأجمعوا على منازعتي أمراً كنت أولى به»[(٣)].

ويقول (ع) في مقام آخر: «فجزتْ قريشاً عنّي الجوازي، فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن أمي»[(٤)].

---

(١) تلخيص الشافي، للإمام أبي جعفر الطوسي، ٢ : ٩١ ـ ٩٤ (توفي عام ٤٦٠ هـ)، ط ٣، ١٩٧٤ م، تعليق السيد حسين بحرالعلوم.

(٢) نهج البلاغة، تبويت صبحي الصالح، خطبة ١٧٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ٤،٣ : ١٠٤، ط ٣، ١٩٦٥.

(٤) نهج البلاغة، كتابه رقم ٣٦، سلطان ابن أمي: سلطان محمد (ع) حيث كانت فاطمة بنت أسد والدة علي (ع) قد ربّت النبي (ص) وكان يسميها أمي ويقول: «فاطمة أمي بعد أمي».

الطلقاء يتسلقون القمة

ومن متابعة لمسيرة الأحداث بعد النبي (ص) نتلمس ظاهرتين اثنتين:

١ ـ ظاهرة ثقافية تمثلت هذه الظاهرة بمنع السلطات بعد النبي (ص) من تدوين سنّة رسول الله (ص) تحت شعار الاكتفاء بكتاب الله عزّوجلّ، وكان أول من أطلق هذا الشعار الصحابي القرشي عمر بن الخطّاب، حيث أعلن ـ والنبي (ص) لايزال على قيد الحياة ـ حسبنا كتاب الله.. فمنذ ذلك اليوم عممت الحكومة قراراً بمنع تدوين السنة.

ففي طبقات ابن سعد: «إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطّاب فأنشد الناس أن يأتوه بها فلما أتوه بها أمر بتحريقها»[(١)].

فلقد منعت مدرسة الخلفاء من تدوين حديث الرسول إلى منتصف المائة الهجرية الثانية، أي إلى عام ١٤٥ هـ، حيث خلافة المنصور الدوانيقي العباسي، وليتهم اكتفوا بذلك، بل منعوا من روايـة حديثه كذلك.

روى الذهبي أن أبا بكر جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: «إنكم تحدثون عن رسول الله (ص) أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا

---

(١) طبقات ابن سعد، ٥ : ١٤٠، بترجمة القاسم بن محمد بن أبي بكر.

وبينكم كتاب الله فاستحِلوا حلاله وحرّموا حرامه»[١].

وروى عن قرظة بن كعب أنه قال: «لما سيّرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر إلى صِرار، ثم قال: أتدرون لِمَ شيّعتكم؟ قلنا: أردت أن تشيعنا وتكرمنا، قال: إن مع ذلك لحاجة، إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث عن رسول الله وأنا شريككم، قال قرظة: فما حدّثت بعده حديثاً عن رسول الله (ص)»[٢].

وفي رواية أخرى: فلما قدم قرظة بن كعب قالوا: حدّثنا، فقال: نهانا عمر.[٣]

وفي هذه المضامين أحاديث كثيرة جداً. هذا ومن الجدير ذكره ان قرار منع تداول أحاديث رسول الله (ص) قد طال المصاحف التي كان بعض الصحابة قد دونوا على هوامشها شروحاً للآيات، وتفسيراً تلقوه من رسول الله (ص) مباشرة، فإن هذه المصاحف المفسرة كلاً أو بعضاً قد صدر قرار من الخليفة الأول أبي بكر بعدم تداولها، وأن يصار إلى مصحف بلا شروح، ولكنه هلك قبل تنفيذ هذه الخطة، فنفذها الخليفة الثاني الذي جمع مصحفاً مجرداً عن أي تفسير عن رسول الله (ص)

---

(١) تذكرة الحفاظ، للذهبي، ١ : ٢ ـ ٣، بترجمة أبي بكر.

(٢) أخرجها ابن عبدالبر بثلاثة أسانيد في جامع بيان العلم، باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له، ٢/١٤٧، وتذكرة الحفاظ، للذهبي، ١ : ٤ ـ ٥.

(٣) أخرجها ابن عبدالبر بثلاثة أسانيد في جامع بيان العلم، باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له، ٢/١٤٧، وتذكرة الحفاظ، للذهبي، ١ : ٤ ـ ٥.

عن الله عزّوجلّ، وأودع ذلك المصحف عند حفصة زوجة النبي (ص)، وهو المصحف الذي اعتمد من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي عمم المصحف المذكور واعتمده كمصحف رسمي، وأمر باستنساخه، وتوزيعه على الأمصار، وهو الذي يسمى المصحف الامام، وقد وصلت الخطة إلى نهاياتها حين صادر الخليفة القرشي عثمان المصاحف المفسرة من أصحابها، وأمر باحراقها ليبطل العمل بها.. ومن أجل ذلك فإنك تجد في التاريخ والسنن أنه رغم جمع الرسول (ص) القرآن الكريم، فإن أبا بكر قد جمعه، وعمر قد فعل مثل ذلك، وعثمان قد أنجز عملية واسعة جداً في جمعه، فهذا هو المراد من هذه العمليات المترتبة واحدة بعد الأخرى حيث جرت في النهاية أخطر عملية في تاريخ القرآن الكريم حيث جرد شرح الرسول (ص) للقرآن الكريم عن سور القرآن وآياته.[١] إذ تبنت الحكومة مصحفاً غير مشروح بينما كان مصحف رسول الله (ص) قرآناً مشروحاً موحىً به من الله عزّوجلّ.

٢ ـ ظاهرة سياسية: حيث وفرت حكومة الخلافة بعد النبي (ص) مختلف الظروف لنمو دولة الطلقاء من بني أمية، فقد وفر الخلفاء الثلاثة أبو بكر، عمر، وعثمان مختلف الشروط لقيام هذه الدولة، ومدوا بذرتها بالحياة، وتعاهدوها حتى بسقت واستطالت في أرض الشام.

---

(١) أنظر مراحل جمع القرآن الكريم في كتاب: القرآن الكريم وروايات المدرستين، للعلّامة السيد مرتضى العسكري، ١ : ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

فمنذ أن فتحت بعض بلاد الشام في عهد الخليفة القرشي أبي بكر عهد بولاية أمرها إلى يزيد بن أبي سفيان الأموي، وبعد وفاته بالطاعون بعد أكثر من عامين، عهد الخليفة الثاني بولاية الشام إلى أخيه معاوية بن أبي سفيان.

ومنذ ذلك التاريخ بذل معاوية وسعه من أجل أن تكون بلاد الشام الغنية جداً بثرواتها الطبيعية، مقاطعة مغلقة لنفوذه ومنطلقاً لتحقيق أهداف البيت الأموي، وأبناء الطلقاء، وتستطيع أن تدرك خطورة الوضع إذا علمت أن الشام بقيت تحت نفوذ معاوية طوال خلافة عمر وعثمان، وخلافة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، ثم قاتل بجيوشها الخلافة الشرعية لعلي (ع)، وهي فترة تصل إلى عشرين عاماً، ثم صفا الجو لمعاوية منذ عام ٤١ هـ حتى منتصف عام ٦٠ هـ حيث نصّب نفسه خليفة عاماً للمسلمين مدة عشرين سنة!!

وإذا تركنا معاوية جانباً، وما حقق لعموم الطلقاء وللزعامة القرشية، فإن عهد الخليفة الأموي ـ قبله ـ عثمان بن عفان قد شهد تطوراً آخر على مستوى تسلط البيت الأموي على مقاليد الأمور، فعثمان عهد بأهم المناصب والمواقع في الدولة الإسلامية إلى أقاربه من بني أمية، فقد سُلِّمت البصرة، والكوفة، ومصر، والشام إلى بني أمية، وكانت هذه الأمصار من أهم نقاط العالم الإسلامي اقتصادياً وعسكرياً، فهي مراكز الثروة والمال، والكثافة السكانية، منها يجبئ المال ويجمع، ومنها تعد الجيوش ومصادر القوة، وما عداها تحتل المواقع الثانوية في الدولة.

فقد سلمت ولاية البصرة إلى عبدالله بن عامر بن كريز الأموي ابن

خال عثمان، وسلمت الكوفة إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي.

وأضاف إلى سلطة معاوية على الشام، فلسطين وحمص والجزيرة.

وسُلمت مصر كلها إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخ الخليفة عثمان من الرضاعة.

وكان هؤلاء الولاة وغيرهم من ولاة عثمان من أقاربه، وذويه ومن أبناء الطلقاء، وليس أحد منهم يحظى بقبول الأمة في سلوكه الديني ولا الإداري، فالوليد بن عقبة واليه على الكوفة، كان ولعاً بشرب الخمر والتهتك، فاضطر عثمان أن يغيره بسعيد بن العاص من أقاربه ـ أيضاً ـ، وكان هذا لا يختلف عن سابقه من حيث التجبر واظهار العنف والكبرياء، وكان يقول: «إنما السواد بستان قريش، ما شئنا أخذناه منه، وما شئنا تركناه».

وقد عجل هذا البغي والتجبر والظلم في ثورة الناس على عثمان حتى قتل في داره ـ كما هو معروف ـ.

ورغم أن الجماهير اختارت علي بن أبي طالب (ع) حاكماً لها، إلّا أن التيار القرشي الذي بلغ أوجه في الكبرياء والغطرسة أبىٰ أن يسلك علي (ع) سياسة الإسلام العادلة، ويعيد المنهج النبوي في معاملة الناس سواسية، ففاوضوه على أن تبقى المكاسب التي حققوها بأيديهم من ثروة ومواقع، فلما أبىٰ عليهم ذلك، وأصدر قراراته التاريخية التالية للعودة بالمسلمين إلى سياسة النبي (ص) الاقتصادية والاجتماعية، ثارت عليه قريش في البصرة بقيادة عائشة بنت أبي بكر والزبير ابن العوام وطلحة بن عبدالله وجميعهم من قريش، فكانت حرب الجمل

المعروفة، وعندما فشلت خطة قريش، فرّ بعض العصاة إلى معاوية ليقود المهمة، فكانت معركة صفين، وكان التحكيم، ثم كانت النهروان، ثم كان اغتيال علي بن أبي طالب (ع) وهو في محراب مسجد الكوفة.. حيث انتقل الحكم بعد أشهر قليلة إلى معاوية القرشي الأموي بشكل كامل..

معاوية قمة المأساة

بعد أن أكلت معركة بدر الكبرى أبرز عناصر الرعيل الأول من زعماء الشرك من قريش، برز دور أبي سفيان الأموي كعدو شرس لله ولرسوله ولرسالته، وقد جسّد عدوانه بشكله الصارخ في معركة أُحد حين قتل أسد الله حمزة بن عبدالمطلب، فبقرت زوجة أبي سفيان بطنه وأخرجت كبده ولاكت قطعة منها تعبيراً عن حقد ذلك البيت الأموي على الله ورسوله ودعوته..

واستمر أبو سفيان يقود جحافل الشرك واحداً بعد الآخر حتى سقطت مكة، واستسلمت قريش أمام النبي (ص) عام ٨ هـ، وكان أول المستسلمين من قريش أبو سفيان نفسه، حيث أسر قبل فتح مكة بعدة ساعات.

وحين جيء به إلى النبي (ص)، هدده العباس ابن عبدالمطلب بالقتل إن لم ينطق الشهادتين، وأملاها عليه املاء وحين نطق بالشهادة الأولى كبر عليه أن ينطق بالثانية، حيث قال للنبي (ص): «أما هذه ففي النفس منها شيء».

وفي معركة حنين حيث انكسر المسلمون في أول أمرهم جهر بشركه بعد أن أمن من بطش المسلمين حيث قال: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»[١]، وكانت معه الأزلام.[٢]

وبعد وفاة رسول الله (ص) بيوم أو يومين، قدم المدينة المنوّرة، وبدأ يتظاهر بحرصه على علي ابن أبي طالب (ع) وبني هاشم، وراح يثير كوامن النفوس بقوله: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش؟

فما كان من علي (ع)، إلّا أن ردّ على خبثه اللئيم، الذي أراد به أن يثير المسلمين بعضهم على بعض حتى ينهي وجودهم في تلك الحالة المتوترة جداً.

لقد رده أميرالمؤمنين علي (ع) بما يفقأ عين الفتنة السوداء التي حاول أبو سفيان أن يثيرها في وجه المسلمين ليفني بعضهم بعضاً، فقد جاء إلى علي (ع) وقال: «أبسط يديك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً»! فأبىٰ علي بن أبي طالب (ع) عليه وزجره قائلاً: «والله إنك ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً»[٣].

وإذا كان أبو سفيان قد تظاهر بالإسلام ـ بذلك الشكل الذي ذكرنا ـ في عام الفتح، فإن ولديه معاوية ويزيد، قد أسلما في نفس الفترة

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري، ٢ : ٢٤٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٦٣.

(٣) الكامل في التاريخ، ٢ : ٢٦٣.

كذلك..

ومن الجدير ذكره، أنه حين أكثر أبو سفيان من لجاجه على نتائج السقيفة، وراح يحرض على أبي بكر وتيم، اقترح عمر بن الخطّاب على أبي بكر أن يهبه كل الأموال التي جمعها للنبي (ص) في مهمة له لجمع الصدقات فوهبها أبو بكر له..

ثم أرسل ولديه يزيد ومعاوية في قيادة جيش إلى الشام وبعد موت يزيد بن أبي سفيان منحت ولاية الشام إلى معاوية طوال خلافة عمر وعثمان ـ بعد ذلك ـ كما ذكرنا!!

لقد سجل هذا الحدث ـ ولاية معاوية لبلاد الشام حديثة الفتح ـ منعطفاً تاريخياً في حياة الأمة المسلمة، هو ليس في صالح الإسلام ولا الإنسان، إذ أن معاوية بن أبي سفيان، وبدعم من «الملأ» من قريش، قد أخذ على عاتقه أن يحول بلاد الشام إلى منطقة مغلقة لنفوذ الزعامة القرشية تحركها عند أية فرصة لتنفيذ أهداف قريش إذا تعرضت للخطر..

ومن أجل ذلك، عمل معاوية ـ وهو ذكي بارع ـ على ملء الفراغ الفكري بعد فتح الشام بمفاهيم وشعارات تتناقض ـ بدرجة كبيرة ـ مع الإسلام الحق ومبادئه وقيمه.

وقد نفذ معاوية برنامجه ذاك من خلال محورين اثنين:

١ ـ استأجر معاوية بن أبي سفيان عدداً من المحدثين، والرواة، والوعاظ من ذوي النفوس الضعيفة، وأوكل إليهم مهمة القيام بتوجيه المجتمع باتجاه خدمة المصالح الأموية، وذلك بالعمل على احاطة

البيت الأموي بهالة من التقديس، توازيه حملة لتشويه سمعة آل النبي (ص).

ووضعت لهذا الغرض كثير من التصريحات، ونسبت افتراء إلى رسول الله (ص) لاظهار البيت الأموي كما لو كان مهبط الوحي، والتنزيل، واظهار الأمويين كما لو كانوا أهل السابقة والجهاد في الإسلام، والامناء على وحي الله تعالى، ورسالته.

وقد نهض باغباء هذه المهمة جمع من الوعاظ، والمحدثين كان في طليعتهم: المغيرة بن شعبة، وعروة بن الزبير، وأبو هريرة الدوسي، ومن على شاكلتهم، حيث راح هؤلاء يسطرون ما يحلو لقادة البيت الأموي وضعه من أحاديث نسبت إلى النبي (ص) من قبيل التصريح الذي نسبه (أحد باعة الضمير) إلى رسول الله (ص): «امناء أمتي على وحيه ثلاثة: أنا وجبرئيل، ومعاوية»[1].

وكان لهذه العملية أبعادها الخطيرة على وعي الأمة يومذاك حيث أدت إلى توجيهها بما يحقق مصلحة التيار التحريفي في حياة المسلمين بعد أن عمي على الأمة الوعي الحقيقي لوجودها، ومهماتها الرسالية، فمما يكشف عن خطورة هذا الموقف أن بعضاً من رجالات أهل الشام أقسموا أمام أبي العباس السفاح ـ أول سلطان عباسي ـ أنهم ما علموا لرسول الله (ص) من أهل بيت غير بني أمية، وذلك نتيجة

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي، محمود أبو رية، ص ١٣٧، ط دار النهج، بيروت، ١٩٦٣ م.

طبيعية للتوجيه الأموي الخاطئ للجماهير المسلمة في بلاد الشام.

٢ ـ عمل معاوية على الاحتفاظ بعزلة بلاد الشام بصورة تامة عن مجموع أقاليم المسلمين الأخرى ليكون ذلك الاقليم على منأى عن اليقظة الفكرية، والروح الإسلامية العالية فيها، وليوصد الأبواب في وجه التحول باتجاه الإسلام، الأمر الذي تكشفه الوثيقة التالية التي أوصى بها معاوية لولي عهده (يزيد) قبل أن يلفظ الأول أنفاسه الأخيرة:

«يا بني! أوصيك بوصية، فأنت بخير مادمتَ على حفظها، أوصيك بأهل الشام، فإنهم منك، وأنت منهم، فمن قدم عليك منهم، فأكرمه، ومن غاب فاطلع على خبره، فإذا دهمك عدو فسرْ بهم، فإذا ظفرت، فردهم إلى بلدهم، فإذا أقاموا في غير أوطانهم، تخلقوا بغير أخلاقهم»(١).

وهكذا يدرك معاوية أن بلاد الشام إذا لم توضع في اطار دائم من التضليل، فإن الأمر سيكون على حساب الحركة التحريفية، وأهدافها السوداء!

انفراج مؤقت ثم عودة الظلام

وبعد مخاض عسير مرت به الأمة، والتجربة الإسلامية، شهدت عاصمة الدولة الإسلامية (المدينة المنوّرة) في أواخر أيام عثمان بن عفان الخليفة الثالث انتفاضة شعبية عارمة شارك فيها المصريون، والعراقيون شجباً للانحراف السياسي، والفساد الاجتماعي، وسوء

---

(١) مقتل الحسين (ع)، أبو مخنف (رحمه الله).

التوزيع للثروة الذي عاش المسلمون تحت وطأتها في عهد الخليفة المذكور الذي ساس الناس من خلال ولاة فسقة طغاة من آل أمية، ساموا المستضعفين الخسف، وسلطوا عليهم العذاب والحرمان.

وقد كان من نتائج الانتفاضة الشعبية الإسلامية في المدينة المنوّرة الإجهاز على عثمان، واجماع الأمة على بيعة علي بن أبي طالب (ع) شعوراً من الأمة بجدارته على حل مشاكلها القاسية التي عانت منها.

وما أن تبوأ الإمام علي بن أبي طالب (ع)، موقعه الطبيعي في الأمة إلّا وصار الشام مصدر قلقٍ دائم له عرض الأمة بكاملها إلى فقدان كثير من طاقاتها المتاحة للبناء، والنهضة، وهو أمر يكاد يكون طبيعياً، فرواد الحركة التحريفية يعلمون أن تبوأ علي (ع) لهذا المركز القيادي، الحساس في مسيرة الأمة سيمكِّن الرسالة من كافة الطاقات، والامكانات الكفيلة بانهاء حالة الشذوذ، والتلاعب على خط الرسالة الإلهية من قبل كافة القوى النفعية والوصولية!

فلقد بات من المؤكد لدى قوى الانحراف أن استتباب الأمن، في الدولة الإسلامية، والتفاف الجماهير حول الإمام القائد علي بن أبي طالب (ع) كفيلان بتصفية أعداء الرسالة، وانهاء دورها التآمري.

وهنا لابد من تحرك فوري محموم من جانب تلك القوى لتدارك الموقف قبل أن يفلت الزمام من أيديها، وقبل أن يجسد أميرالمؤمنين (ع) خطته الاصلاحية عدالة، وانصافاً، وهدىً، تلك الخطة التي من شأنها أن تعيد للأمة صورة التجربة الإسلامية الأصيلة التي أشرف على قيادتها النبي محمد (ص)، الأمر الذي يربط جماهير الأمة العريضة

بقيادتها المبدئية التي يمثلها الإمام ربطاً مصيرياً.

وهكذا بدأت فلول النفعيين بالتحرك داخل المعسكر الإسلامي ذاته، وبتحريض من بعض الرؤوس من قبيل معاوية ومروان بن الحكم اللذين بذلا مساعيهما لاقناع بعض العناصر ذات السابقية في الإسلام للخروج على الإمام (ع).

وقد نجحت تلك المساعي التي استهدفت اشغال الحكومة الشرعية المركزية داخلياً ليكون الشام ـ مركز الحركة الانفصالية ـ في مأمن من حملة التصفية المتوقعة لرؤوس الحركة التحريفية فيها.

وهكذا وقعت معركة الجمل في البصرة وراح ضحيتها الآلاف من المسلمين كنتيجة لابد منها للمؤامرة التي حاك خيوطها معاوية بن أبي سفيان[١]، والنفعيون الحريصون على مصالحهم الشخصية!

وما أن نفض الإمام يديه من القتال في البصرة حتى ووجه بالتحرك العسكري الواسع الذي قاده معاوية بن أبي سفيان من الشام، والذي نجم عنه التحام دموي بين المسعكرين إنتهى بالتحكيم الذي كان هو الآخر ثمرة تآمر غادر لم تَعِ الغالبية من جيش الإمام (ع) أبعاده، في

---

(١) أنظر حياة الإمام الحسن، باقر شريف القرشي، ١ : ٢٦، ط ١٩٧٧٣، قم المقدسة نقلاً عن الطبري، كما يلاحظ الإمام علي (ع) في شرح النهج، ٢ : ٣١٠، ط ٢، ١٩٦٥، بقوله: «.. ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه، فكتماه عنّي وخرجا يوهمان الطغام إنهما يطلبان بدم عثمان» يقصد الزبير وطلحة اللذين قادا عملية البغي على الإمام علي (ع) بغطاء «شرعي» من عائشة.

حين بذل الإمام (ع) جهوداً مضنية لاقناع الغوغاء بما وراء الدعوة المشبوهة للتحكيم، ولكن دون جدوى!!

وقد أسفر التحكيم فعلاً عن الاعلان عن خلع الإمام الشرعي للمسلمين، وتثبيت رأس قوى التحريف معاوية بن أبي سفيان بديلاً في إدارة دفة الأمور!

وعُقَيب هذه العملية النكراء أعلنت بعض قطعات الجيش المركزي «جيش الامام (ع)» عن رفضها لفكرة التحكيم، متهمة قيادة الإمام (ع) باللّاحزم، في وقت كان الإمام قد اضطر إلى التحكيم نزولاً عند الحاح الغالبية من جيشه وبضمنهم المنشقون الجدد!!

ومن هنا صار الإمام مضطراً إلى إعلان الحرب على المنشقين الذين لجؤوا إلى اسلوب أهوج في معاملة المسلمين المقتنعين بإمامة علي أميرالمؤمنين (ع)، فكانت معركة النهروان التي تمخضت عن إبادة شاملة لفلول المنشقين!

وفي هذا الظرف الدقيق الذي تمر به التجربة الإسلامية وحيث يعد إمام المسلمين عدته لمقارعة تيار التحريف في بلاد الشام من جديد يتعرض الإمام علي (ع) إلى حادث الإغتيال المشؤوم بواسطة شقي سماه بعض المؤرخين خارجياً، وسماه آخرون (أموياً)![(١)]

وهكذا غاب أميرالمؤمنين وإمام الحق والهدى (ع) عن دنيا

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب، الشيخ محمد حسن آل ياسين، ص ١٨٠، ط ١، ١٩٧٨، بيروت، واليمين واليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح.

المسلمين قبل أن يحقق مهامه الأساسية في تصفية المحرفين للرسالة الإلهية.

السبط الأول في مواجهة المسؤولية

وبعد غياب وصي رسول الله علي بن أبي طالب (ع) عن مسرح الحياة، تسلَّم الإمام السبط الحسن بن علي (ع) مسؤولية إدارة شؤون الدولة تحت ضغط جماهيري منفعل في الكوفة العاصمة، وما حولها.. وقد تسلّم الإمام الحسن (ع) مسؤولية إدارة الدولة، في ظروف بالغة التعقيد:

* فقد ترك أميرالمؤمنين علي (ع) فراغاً كبيراً في الساحة لا يمكن سده بأيام وشهور رغم عظمة الإمام الحسن سبط النبي (ص).

* وفقدُ الإمام علي (ع) في تلك الظروف وبذلك الشكل المفاجئ منح معاوية وحزبه مزيداً من الفرص للمضي في مشروعهم الخبيث إلى آخر الشوط لإكمال عملية تصفية الوجود الفعلي لآل النبي (ص) من على مسرح الحياة، فاستشرى الخطر، وعظم الخطب، ومن أجل ذلك، زحف معاوية بقواته الوصولية صوب العراق قادمة من الشام..

وعلى الفور حرك الإمام السبط (ع) جماهير الكوفة من أجل المواجهة والصمود وأهاب بالناس أن يواجهوا الخطر الداهم، بيد أن الناس في الكوفة لم يكونوا ضمن تيار واحد، ولم تجمعهم مفاهيم موحدة، وإنما كان الناس في الكوفة أحزاباً شتىٰ ضاقت بها حتى فكرة الجبهة الموحدة بالمعنى السياسي المألوف!

* فلقد كان من الناس من يميل إلى الحركة الأموية في الشام.

* ولقد كان من الناس من ساقته المطامع المادية ليكون في جبهة الحسن بن علي (ع).

* ولقد كان من الناس من يهوى الفكر الخارجي وينخدع به!

* كما أن من الناس من كان يبغض بني أمية ولم يندمج في خط أهل البيت (ع).

* وفي الناس قلة قليلة من يرون الحق لآل النبي (ص)، ووجوب مشايعتهم في الشدة والرخاء بيد أن الأمر رغم حالته هذه، فإن الناس تعمها حالة الميل إلى الدعة، والعزوف من الحرب، وذلك لانشغال الناس طوال أربع سنوات متتالية بالحرب، وصد العدوان أيام أميرالمؤمنين علي (ع)، حيث حرب البصرة، ثم صفين، ثم النهروان.

وبهذه الجماهير المتعددة الأهواء، الخائرة القوى زحف الإمام الحسن (ع) لمواجهة جيش معاوية الذي كان حزباً واحداً إلباً على آل البيت (ع)، جمعهم معاوية على منهاج الباطل، وأُشربت قلوبهم بالعدوان وحب الدنيا بسبب ظروف الشام الخاصة، وقولبتها بقالب الاتجاه الأموي منذ امارة يزيد بن أبي سفيان أيام الخليفة أبي بكر، فإمارة معاوية بعده التي امتدت منذ أيام عمر حتى عام ٦٠ هـ، أي حوالي نصف قرن من الزمان، حيث بنى معاوية جماهير الشام كما يهوى ويريد حتى أنه ضاق ذرعاً بأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه حين نفاه عثمان بن عفان إلى الشام وحدث الناس من حوله ببعض الذي سمعته أذناه من رسول الله (ص)، حيث أعاده معاوية إلى المدينة

فوراً بالتنسيق مع الخليفة الأموي عثمان، لكي لا يفسد على بني أمية مشروعهم التحريفي الدنيء.

وفي هذه الأجواء الملغمة اضطر الإمام الحسن (ع) أن يوقع «هدنة» مع معاوية بانتظار الظروف الأنسب لمواصلة الجهاد.

ولقد كان بمقدور الإمام الحسن (ع) على ما لديه من قلة خيِّرة من الأنصار أن يخوض حرباً طويلة الأمد ـ نسبياً ـ قبل أن يهادن، لكنه كان يقدر أن هذه العملية ستكلفه دماء الآلاف من المسلمين، وبضمنهم قطاع من شيعة آل البيت (ع) الذين يحرص على ادخارهم لمهام حضارية تحقق بعضاً من مصالح الإسلام والأمة.. ولذا، كان من كلماته الخالدة الحريصة على دماء المسلمين، والرساليين من أمة محمد (ص) ما يلي:

ذكر أبو مخنف ـ لوط بين يحيى ـ باسناده ما يلي:

«لما بايع الحسن (ع) معاوية أقبلت الشيعة تتلاقى باظهار الأسف والحسرة على ترك القتال.. فقال الحسن (ع): أنتم شيعتنا وأهل مودتنا، فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أركض وأنصب ما كان معاوية بأبأس منّي بأساً، ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة، ولكني أرى غير ما رأيتم، وما أردت بما فعلت إلّا حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله، وسلموا لأمره، والزموا بيوتكم وأمسكو»[١].

وروى جبير بن نفير، عن أبيه قال: قدمت المدينة... فقال الحسن بن

---

(١) بحارالأنوار، للعلّامة المجلسي، ٤٤ : ٢٩.

علي (ع): «كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين»[١].

وها هو يجيب حجر بن عدي الكندي بقوله: «إني رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بقياً على شيعتنا خاصة من القتل، ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن»[٢].

وقال (ع) لآخر: «ما أردت بمصالحتي معاوية إلّا أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب، ونكولهم عن القتال، ووالله لئن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بد من افضاء هذا الأمر إليه»[٣].

لقد قاوم الإمام الحسن (ع) فكرة استمرار الحرب على ضعف الجبهة الداخلية، وقلة الأنصار، ولقد هادن قوياً، ودوَّن شروطاً على معاوية فيها يكمن كل الحرص على الإسلام والأمة والإنسان، وفوت فرصاً على الوصوليين والمتآمرين أن يستأصلوا بالعدوان بقايا منابع الخير في أمة محمد (ص)، وخصوصاً آل النبي صلّى الله عليهم أجمعين.

---

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة، ٢ : ١٤١، والبحار، ٤٤ : ٢٥.

(٢) الأخبار الطوال، للدينوري، ص ٢٢٠.

(٣) الأخبار الطوال، للدينوري، ص ٢٢١.

لقد كانت الهدنة التي أبرمها الإمام السبط الحسن بن علي (ع) تشبه ـ كما عبّر عنها ـ هدنة رسول الله (ص) التي أبرمها مع قريش في الحديبية عام ٦ هـ.

وكانت أهم الشروط التي اشترطها الإمام (ع) على معاوية ما يلي:[(١)]

١ ـ أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله (ص).

٢ ـ أن يتولى قيادة المسلمين العامة بعد معاوية: الحسن بن علي (ع)، فإن كان قد قضى فالقيادة للحسين (ع).

٣ ـ أن يكون الناس آمنين في أوطانهم في العراق والشام وغيرها.

٤ ـ أن يعتمد مبدأ الشورى في اختيار الخلفاء بعد ذلك وأن يكون رأي الأمة هو الحاكم ليقطع الطريق على معاوية تنصيب ولده يزيد.

٥ ـ لا يسمى معاوية نفسه أمير للمؤمنين.

٦ ـ أن لا يؤاخذ أهل العراق والحجاز وأهل المدينة بمواقفهم المعادية لمعاوية أيام علي بن أبي طالب (ع).

٧ ـ أن يخصص من بيت المال ألف ألف درهم لأنفاقها في عوائل من استشهدوا مع علي (ع) يوم الجمل وصفّين.

٨ ـ أن لا يسب علياً (ع) في الناس.

٩ ـ أن يخصص له من بيت المال خمسة آلاف ألف درهم لتغطية

---

(١) جمعاً بين الروايات التي أوردها المؤرخون حول شروط المعاهدة، حيث أطنب بعض وأوجز آخرون.

نفقاته.

١٠ ـ أن يكون خراج دارابجرد، وفسا والأهواز لأهل البيت (ع).

١١ ـ وهناك أمور أخرى.

وبعد أن أعلن معاوية موافقته على ذلك أمام المسلمين ودخل الكوفة عاصمة الخلافة الشرعية أعلن في أول خطاب له أمام الناس، أن ما اشترطه الحسن بن علي (ع) إنما هو تحت قدميه: «إني كنت شرطت لقوم شروطاً، ووعدتهم عداتٍ، ومنيتهم أماني.. فإن كل ما هناك تحت قدمي هاتين..».

«يا أهل الكوفة! أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكنّي قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كل دم أصيب في هذه مطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»[١].

وكان من أبرز الأهداف التي حرص عليها الإمام (ع) هي تمزيق البرقع الذي اختفى خلفه هذا الوحش الأموي المنافق معاوية بن أبي سفيان، فإن التزم ببنود الهدنة كان خيراً للأمة ونماء، وبقاء للخير، وإن نكث عنها كشف الجماهير المضللة حقيقته، وهكذا كان.. حيث انتصر آل محمد صلّى الله عليهم أجمعين، وهيأ الإمام السبط (ع) ظرفاً لكسر موجة العدوان العاتية التي بدأت منذ اقصاء علي بن أبي طالب (ع) عن موقعه الطبيعي في الأمة الذي حددته السماء..

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ٤ : ١٦.

معاوية على المحك

نقل الزبير بن بكار عن مطرف بن المغيرة بن شعبة، قال: «دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف أبي فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننته أنه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال لي: يا بني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنك قد بلغت سناً يا أميرالمؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه، فقال هيهات هيهات! أي ذكر ترجو بقاءه؟ ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمر عشر سنين، فماعدا أن هلك حتى هلك ذكره! إلّا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة[1] ليصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أنّ محمداً رسول الله) فأي عمل يبقى، وأي ذكر

(١) في غزوة أُحد بعد هزيمة المسلمين، أطلق أبو سفيان على الرسول لقب «ابن أبي كبشة»! راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، ١ : ٩١ و ٣٢٧، المقريزي، أمتاع الأسماع، ص ٧٧ و ١٥٨.

يدوم بعد هذا لا أبا لك! لأمر الله إلّا دفناً دفنا»[1].

وهكذا يكشف معاوية عن جوهر سياسته الأموية الجاهلية «.. إلّا دفناً دفنا..» وهذا الدفن للإسلام والرسول (ص) وقيمه بدأ به معاوية من خلال شنّه الحرب العدوانية على آل الرسول (ص) ابتداء بعميدهم علي بن أبي طالب وصي رسول الله (ص)، ومروراً بدفن سنّة النبي (ص) وقيمه وسيرته، وانتهاء بتدمير شيعة علي (ع) ورموز الحق من صحابة رسول الله (ص).

وقد انكشفت بعض خطط معاوية الخبيثة للأمة بواسطة نقضه المتعمد لمشروع «الهدنة» الذي أبرمه معه سبط النبي الحسن بن علي (ع).

فبعد اعلان الهدنة بين الإمام السبط (ع) ومعاوية، وصفاء الجو السياسي لمعاوية، بدأت الأمور تتكشف رويداً رويدا، وإذا بمعاوية يكشر عن أنياب حيوان مفترس أمام الأمة، التي كانت مضللة فيه بسبب وعاظ السلاطين، وانكشف ما احتاط له معاوية من أجل أن يظهر بمظهر الإنسان، الذي يحمل طموح الصحابة الصالحين وفضائلهم!!

فقد واصل معاوية تنفيذ مشروعه الأسود لتدمير البلاد والعباد ضمن

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، و ١ : ٤٦٣، ط قديمة، مروج الذهب، ٣ : ٤٥٤، ط دار الأندلس، بيروت، والموفقيات، للزبير بن بكار، ص ٥٧٦، ط العراق.

المحاور التالية:

١ ـ اشاعة حالة الارهاب والقتل العام، والتصفية الجسدية لكل من يعارض حكمه، لا سيما أصحاب علي بن أبي طالب (ع)، وقد وضع خطة حمراء رهيبة من أجل متابعتهم، واخراس أصواتهم بكل وسائل التنكيل والاضطهاد، وقد عبرت عن سياسته هذه، الكلمات التالية التي يوصي بها أحد قواده: «. فاقتل كل من لقيته، ممن ليس هو على مثل رأيك، واضرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب..»[١].

وقد تفاقم الأمر كثيراً بعد ذلك حتى روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة[٢]: «إن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته»، فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون عليّاً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي (ع)، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام علي (ع)، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على

---

(١) شرح النهج، لابن أبي الحديد المعتزلي، ٢ : ٨٦. حرب الأموال: نهبها عنوة.

(٢) عام الجماعة هو عام ٤١ هـ، الذي تسلم معاوية فيه السلطنة بعد صلحه مع الحسن السبط (ع) وسقوط دولة الخلافة الإسلامية في الكوفة.

جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: «ألّا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة».

وكتب إليهم: «أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته».

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان أو منقبة إلّا كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عمّاله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية «فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة الخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليَّ وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله».

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشدوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب فعلّموا

صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: «انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به، واهدموا داره».

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى أنّ الرجل من شيعة علي (ع) ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الإيمان الغليظة، ليتمكن عليه، فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاء والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون والمستضعفون، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي (ع)، فازداد البلاء والفتنة فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض».

وقد صوّر الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر (ع) تلك المأساة الحمراء بهذه الكلمات الدالة، وقال: «... فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكل من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيدالله بن زياد قاتل الحسين (ع)»[١].

وفي مقدمة من راح ضحية الظلم والاضطهاد الذي صبه معاوية على أخيار الأمة وصلحائها: الصحابي الفذ حجر بن عدي وجماعته ورشيد الهجري وميثم التمار وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأوفىٰ بن حصن وغيرهم من الأبرار، وفي تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير الجزري أرقام مذهلة عن تلك المأساة التاريخية الحمراء الكبرى.

٢ ـ شراء الذمم والضمائر امعاناً من معاوية في اضعاف الشخصية المسلمة، والاستمرار في سياسة الهيمنة على حركة الأمة العامة.

وتركزت هذه السياسة البغيضة على نمطين من الناس:

أ ـ المحدثين والوعاظ والفقهاء، وقد نجح معاوية فعلاً نجاحاً منقطع النظير في كسب مجموعة من المرتزقة ممن يستأكلون بدينهم من أمثال المغيرة ابن شعبة وأبي هريرة الدوسي، وعروة بن الزبير وعمرو بن العاص وتميم الداري وغيرهم..

ولكي ندرك عمق الكارثة التي ألمت بالأمة بسبب هذه السياسة الفظيعة، نذكر ما يلي:

روى الطبري: أن معاوية لما استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة

---

(١) شرح النهج، لابن أبي الحديد، ٢ : ٤٣.

سنة إحدى وأربعين وأمّره عليها دعاه وقال له: قد أردت ايصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً ايصاءك بخصلة: لا تترك شتم عليّ وذمّه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب عليّ والاقصاء لهم، والاطراء لشيعة عثمان والادناء لهم، فقال له المغيرة: قد جربت وجربت، وعملت قبلك لغيرك، فلم يذممني وستبلو فتحمد أو تذم، فقال: بل نحمد إن شاء الله.(١)

وروى المدائني في كتاب الأحداث وقال: «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: إن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته.

وكان أشد البلاء حينئذ أهل الكوفة وها هو معاوية يبذل «للصحابي» سمرة بن جندب أربعمائة ألف درهم على أن يروي أن هذه الآية: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألدّ الخصام وإذا تولىٰ سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد**﴾(٢). قد نزلت في علي بن أبي طالب. وإن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهو قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله..**﴾(٣) فروى ذلك»(٤).

---

(١) معام المدرستين، للعلّامة العسكري، ٢ : ٣٩ ـ ٥٠، عن مصادره.

(٢) سورة البقرة، ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة، ٢٠٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ٤ : ٧٣.

وبسبب هذه السياسة الثقافية المرتدة نشأت معلومات وأفكار وقيم وأحكام لا تنسجم مع ذوق الإسلام ومبادئه أبداً وأصبحت ديناً يدان به من قبل الناس، وأكثرهم لا يعلمون.

ب ـ شراء الوجوه الإجتماعية، ومفاصل المجتمع المهمة، وقد نجح معاوية في شراء الكثير من مفاصل القطاعات الإجتماعية الفاعلة، وزعماء العشائر، حتى تميز الحكم الأموي في هذه الخصيصة أكثر من غيره من الأنظمة على الاطلاق.

٣ ـ الحرب الاقتصادية وطريقة التجويع: ومن أشد الأساليب الأموية فتكاً بعد القتل، كانت الحرب الاقتصادية، ومحاربة الناس في أرزاقهم، حيث سلك معاوية هذا الأسلوب، وأشاعه لاذلال العباد وتركيعهم، واشاعة المسكنة في نفوسهم، وكان أكثر ضحاياه في بلاد المسلمين أهل البيت (ع) وشيعتهم. فقد كتب إلى عماله وولاته بشأن محاربة أهل البيت وشيعتهم ما يلي: «انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه».

وقد استمرت هذه السياسة الخبيثة عشرين عاماً، وهي مدة خلافة معاوية «٤١ ـ ٦٠ هـ» على العالم الإسلامي، حيث خربت ضمائر، وهلكت نفوس، واضطربت أوضاع اجتماعية، واهتزت قيم، وتغيرت مقاييس، بسبب هذه السياسة الخبيثة.

٤ ـ تمزيق الأمة الإسلامية، والتأثير على ولائها للإسلام، وذلك بأثارة النعرات القومية، والاقليمية بين الناس من أجل اشغال الأمة بمعارك جانبية تبعدها عن حقيقة المحنة، وحقيقة المؤامرة.

فقد اشتغل الناس بالضغائن والفرقة بين العرب والموالي، وبين قيس

ومضر، وأهل اليمن والمدينة، وبين العراق والشام، وشاعت العداوات والثارات، وحقرت أقوام، وارتفعت أخرى تحت هذه المقاييس الجاهلية.

ولقد زخر الأدب العربي في تلك المرحلة بهذه الروح الرجعية كما يلاحظ ذلك في شعر الأخطل وجرير ومسكين الدارمي وغيرهم الذين يثيرون بشعرهم مكامن الفتن بين القبائل والأقوام، انسجاماً مع سياسة معاوية.

٥ ـ اعتماد الزعامة الأموية في الشام على عناصر مسيحية حاقدة في التخطيط والتنفيذ لسياساتها الرهيبة فمن أقرب المقربين إلى معاوية كان سرجون الروماني المسيحي مستشاره الخاص، والأخطل المسيحي شاعره ومسؤول اعلامه، ولسانه الذاب عن سياساته. وفي قصر معاوية غير هذين كثير.

٦ ـ الاغتيال السياسي: ومما اقترفه معاوية في حياته المكرسة للشر والمنكر، قتله للمعارضين له أو ممن يخشى من وجودهم، بطرق مختلفة، كان أهمها تمرير القتل للمعارضين دون ضجيج أو اثارة، ولذا، فقد اعتمد اسلوب السم، لقتل مناوئيه، كما فعله مع سعد بن أبي وقاص والحسن بن علي السبط (ع)، والأشتر النخعي، وعبدالرحمن ابن خالد بن الوليد وغيرهم، وقد عبّر عن هذا المنهج المتبنىٰ من قبله بقوله: إن لله جنوداً منها العسل.

وكان من ضحايا هذه الجرائم ـ كما ذكرنا ـ قتله لابن بنت النبي (ص) الحسن بن علي (ع) في سم دسه إليه، لكي ينهي وجوده المبارك

الحافل بالتأثير في جماهير الأمة!

٧ ـ تحويل حكم الخلافة إلى حكم ملكي امبراطوري تحت ظل الكبت، والإرهاب، والتدمير والتآمر على الأحرار حيث عين ولده «يزيد» ملكاً على الأمة بعد اغتياله للحسن المجتبى السبط (ع).

وهكذا يجد المتتبع كيف سلك معاوية مخططاً رهيباً لانهاء الوجود الفكري والروحي، وكافة المقومات التي امتازت بها أمة محمد (ص).

وقد أثرت سياسته المذكورة في الأمة تأثيراً سلبياً ليس لها حدود، من الناحية الروحية والثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

يزيد يفضح أباه

بتتويج يزيد ملكاً على الأمة، تململت كثير من قطاعات الأمة، وتوفرت بذلك كثير من فرص التحرك لمحاور الحق، ومصادر الخير والمعروف والهدى في الأمة، التي كان الحسين بن علي سبط النبي (ص) يمثلها.

فقد تبلور بهذه العملية واقع الانحراف عن الإسلام بشكله المرعب الخطير، وسقطت الأقنعة التي استعان بها معاوية فيما سبق للتغطية على حقيقة المؤامرة التاريخية التي تعرض لها الإسلام وأهدافه، وأمته.

وتتكشف خطورة المؤامرة إذا عدنا إلى بعض ما حفظه تاريخ تلك الحقبة الزمنية الحساسة من تقييم ليزيد بن معاوية (ملك المسلمين الجديد). فهلمَّ نقرأ هذه السطور المأساوية الدامية عن حياة هذا (الطاغوت):

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولد عام ستة وعشرين من الهجرة[١]، وأمه ميسون بنت مخول الكلبي، طلق معاوية أمه، وهي به حامل، فنشأ عند أخواله، تولى الملك بعد أبيه بعد أن نصبه أبوه ولياً لعهده في أواخر أيامه، الأمر الذي حول الخلافة إلى ملكية!!

وقد روى بعض أهل السير أحاديث عن النبي (ص) تصف يزيد بأنه سيثلم الدين، وأنه سيغير السنة الشريفة، وغير ذلك من صفات.[٢]

أما الجانب الأخلاقي، والعقيدي من حياة يزيد بن معاوية، فإن اجماع المؤرخين يشير إلى أن يزيد: كان تاركاً للصلاة المكتوبة بشكل تام.[٣]

وكان خمّاراً معلناً، حتى أن أباه عاتبه مرة بهذا الخصوص، وأشار عليه أن يستتر في شربه للخمر، ويقضي منه حاجته، ومن غيره من دون تهتك معلن!

فعن الطبراني قال: كان يزيد صاحب شراب، فأحس معاوية بذلك، فأحب أن يعظه في رفق، فقال: يا بني! ما أقدرك على أن تصل إلى حاجتك من غير تهتك تذهب بمروأتك، وقدرك، ويشمت بك عدوك، ويسيء بك صديقك، ثم قال له: يا بني! إني منشدك أبياتاً، فتأدّب بها، واحفظها، فأنشده:

---

(١) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، ج ٨، ط ٢، ١٩٧٤، بيروت.

(٢) يراجع الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، ج ٨، في ترجمة يزيد، كما يراجع ابن عساكر.

(٣) نفس المصدر السابق، والصفحة.

انصبْ نهاراً فـي طـلابِ العـلا ... واصبرْ على هجرِ الحبيبِ القريبْ
حـتى إذا الليـل أتـىٰ بـالدجىٰ ... واكتحلت بالغمضِ عينُ الرقيبْ
فـباشر الليـلَ بـما تشتهي ... فـإنما الليـلُ نـهارُ الأريبْ
كـم فـاسق تـحسبهُ ناسكاً ... قـد باشرَ الليـلَ بـأمرٍ عـجيبْ
غـطّىٰ عـليه الليـلُ استاره ... فباتَ في أمن، وعيشٍ خـصيبْ
ولذةُ الأحـمقِ مكشـوفةٌ ... يسعىٰ بها كلُ عـدوٍ مـريبْ (١)

وهكذا يعلمه أبوه اسلوباً آخر لاقتراف الآثام وارتكاب المنكرات دون افتضاح أمام الناس.

ولقد كان يزيد بن معاوية مشهوراً بالغناء، والعزف، وكانت له مغنية اسمها: سلامة وكان مولعاً «بالعبيد واتخاذ الغلمان، والقيان، والكلاب، والنطاح بين الكباش، والدباب، والقرود، وما من يوم إلّا ويصبح فيه مخموراً، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحباب، ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه..» (٢).

يزيد هذا ـ بكل ما يحمل من تميع، وتردي، وانحطاط ـ امتطىٰ دست الحكم، ومركز القيادة، والتوجيه في حياة المسلمين، وراح يرسم للأمة مستقبلها الكالح الكئيب!

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٣٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٨.

الحسين يفشل المؤامرة الأموية

لقد آن الأوان لسيد المسلمين في عصره أبي عبدالله الحسين بن علي (ع) أن يستثمر الفرصة المؤاتية جداً لافشال مخطط معاوية الذي كشفه المغيرة بن شعبة، ووضحت بعض مصاديق تطبيقاته على الواقع خلال عشرين عاماً رزحت الأمة فيها تحت حكم طاغوتي فظيع تمثل بحكم معاوية..

فإن وفاة معاوية في رجب من عام ستين هجرية، بعد تعيينه ليزيد زعيماً، قد أعطى فرصة كبيرة لوضع النقاط على الحروف، وتغيير مسيرة الأحداث إلى الأبد، وكان ذلك ببذل أغلى نفس في عصره سبط رسول الله: الحسين بن علي (ع).

وهكذا كان... فالحسين (ع) في عصره وريث الأنبياء والأئمة السابقين عليهم آلاف التحية والسلام وعلى ضوء هذا الموقع السامي الذي يحتله الإمام في دنيا الرسالة، والأمة، فلا يمكن أن يغض طرفاً عما وصلت إليه الأمور في مسيرة الأحداث على صعيد الرسالة والمسلمين بعد أن وصل يزيد بن معاوية إلى أعلى موقع وأخطره في حياة المسلمين!

وهكذا شمّر أبو عبدالله الحسين (ع) عن ساعديه لينهض بالتزاماته الرسالية تجاه دين الله عزّوجلّ، فكانت الثورة، وكان البذل الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً!

ويمكننا أن نلخص أسباب ذلك العمل التاريخي الجبار الذي أقدم عليه سيدالشهداء أبو عبدالله الحسين (ع)، وتحمل من أجله القتل له

ولأهل بيته، وأصحابه بأفظع صوره، وحتى أطفاله الرضع، إضافة إلى نهب تراثه وسبي نسائه، واخواته من كريمات آل محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

أقول: ويمكننا أن نلخص أسباب (الخروج) الحسيني المظفر على الانحراف بما يلي:

أولاً: تولي يزيد بن معاوية ادارة شؤون المسلمين، وهو في ابتذاله، وطيشه وفسقه، وتعديه على أحكام الله تعالى، وأعراف المسلمين!

وإذا كان الحسين بن علي (ع) قد ادخر هذا الموقف لمثل هذا الظرف، فليس لاعتقاده أن معاوية أفضل من وريثه ديناً أو استقامة، فكلاهما وجهان لعملة واحدة، إلّا أن سبط النبي (ص) يعلم أن معاوية قد نجح في إحاطة نفسه بهالة من الأدعاء بالتدين! يظنها كثير من المغفلين إنها حقيقة، بسبب ما اعتمده معاوية من سياسة اعلامية مضللة بواسطة رواة، ووعاظ، وقصاص رسميين، وفيهم من يحمل (الصفة الصحابية)! إضافة إلى أن معاوية قد نجح في تغطية كثير من أساليب مروقه عن الإسلام، وأحكامه لمكر فيه قديم، الأمر الذي يفتقر إليه يزيد الذي عرف على مستوى العامة منذ بداية حياته بالفسق، والفجور، والنزق!

وقد رأينا ـ فيما سبق ـ كيف أن أباه يحرص على نصحه، بضرورة قضاء أوطاره، ولذاته بعيداً عن الرقباء لأن ذلك يضره اجتماعياً!

إن هذه الحالة (اليزيدية) الخاصة قد ساعدت على انضاج الظروف الموضوعية لتفجير الثورة المباركة ليكون أثرها فاعلاً، وممتداً في

الأمة، بينما لو قدّر أن يكون توقيت الثورة في عهد معاوية لكانت أقل نفعاً في مسيرة الأمة لاختلاف أساليب الرجلين ـ كما ذكرنا ـ.

هذا، والإمام الحسين (ع) مدرك تماماً متىٰ يتخذ القرار المناسب، في الوقت المناسب.

ثانياً: إن حالة الأمة العامة التي أفرزتها السياسة التحريفية على مدى سنوات عديدة قد برزت فيها عدة مظاهر كلها تقطر استخذاء، وخنوعاً، ومسكنة، وبعداً عن الجهاد في سبيل الله تعالى من قبيل:

أ ـ تهالك الناس على الدنيا وحطامها، خصوصاً رؤساء القبائل، والمتنفذون في قومهم[١] وقبولهم بالذلة طالما سلمت لهم دنياهم.

ب ـ شيوع ظاهرة النفاق الاجتماعي لدى الغالبية الساحقة من الناس بسبب وقوفهم بين خوف سيف الارهاب من جهة، وحبهم لدينهم من جهة أخرى.

ج ـ غياب الروح الجهادية لدى المسلمين مما يشكل خطراً هائلاً على مسيرة الإسلام المستقبلية وقد وصف الإمام الحسين (ع) هذه الحالة المستشرية في صفوف المسلمين بما يلي: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديّانون».

إن هذه الحالة التي طبعت بها حياة الأمة المسلمة في تلك الحقبة

---

(١) مقتل الحسين (ع) للسيد عبدالرزاق المقرم الموسوي، ص ١٣٤، ط دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩.

الزمنية من تاريخها بسبب حالة الركود، والخوف، والتضليل، والميل للدنيا لا يمكن أن تبدّل إلى خير إلّا بسفك دماء عزيزة ـ تجلها الأمة ـ تجرف هذه الحالات الغريبة عن الإسلام امامها.

وهكذا، كان الحسين (ع) لا يرى سبيلاً للخلاص إلّا التضحية بالنفس، والأحبة، وكل شيء في هذا السبيل وله في هذا الخصوص مقولة خلدت مع الزمان: «ألا وإنّ الدعيَّ ابن الدعيَّ قد ركز بين اثنتين بين السلةِ والذلةِ، وهيهات منّا الذلّة يأبى اللهُ لنا ذلكَ ورسولُه، والمؤمنون، وحجور طابت، وطهرت، وأُنوف حمية، ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأُسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر»[١].

ثالثاً: وإضافة إلى هذا، وذاك، فإن الحسين (ع) كان معتقداً أن واجبه الشرعي يلزمه بحمل لواء الثورة على الطغيان مهما كلفه من ثمن، وكان يدرك أن ثمن (خروجه) على الحكم الأموي وسياسته التحريفية ليس غير القتل، ولذا كان يقول للمعترضين على خروجه على الحكم الأموي: «حدثني أبي أن رسول الله أخبره بقتله وقتلي..»[٢].

وقد خطب الناس في مكة قبل خروجه إلى العراق قائلاً: «كأني

---

(١) مقتل الخوارزمي الحنفي، ٢ : ١٦، وابن عساكر في تاريخ الشام، ١ : ٣٣٣، وغيرهما.

(٢) مقتل الحسين (ع)، للسيد عبدالرزاق الموسوي، ص ١٣٤، ط دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩.

بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس، وكربلاء، فيملأن منّي اكراشاً جوّفاً، وأجربة شغباً، لا محيص عن يوم خطَّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت..»[1].

فإنه (ع) كان على يقين بما ستنتهي إليه الأمور، غير أنه كان على ثقة أن دمه الزكي ودماء أصحابه، وأهل بيته (ع) ستفضح الحاكمين وسياستهم وأهدافهم السوداء المعادية للإسلام.

إضافة إلى أن هذا الدم الطاهر المراق في سبيل الله تعالى سيحرك الأمة، ويوقظها باتجاه العودة إلى إصالة الإسلام مجدداً، الأمر الذي شهده تاريخ المسلمين عملياً، حيث تفجرت الثورات الشعبية للاطاحة بالحكم الأموي واحدة تلو الأخرى بعد ثورة الإمام السبط (ع) مباشرة، فكانت ثورة التوابين، وثورة المختار الثقفي، وثورة المدينة وثورة زيد بن علي (ع) وحركة الدعوة العباسية بعد ذلك.

إن هذه الحركات وغيرها ـ رغم خطأ وجهة بعضها ـ كانت قد أفادت كثيراً من الدوي الهائل الذي أحدثته ثورة أبي عبدالله الحسين(ع).

وهكذا جرف دم الحسين وأصحابه (ع) ذلك الحكم الجاهلي المغلف بالإسلام، وفتح للدعوة الإلهيّة الحقّة مسارب النمو والعطاء والتغلّب على العقبات!! بما في ذلك عقدة قريش...

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٦٦.

سيرة الأئمة بين أبحاث العقيدة ودراسات السيرة

تناولت حياة الأئمة من آل اليبت (ع) ومناقبهم مجموعة من مؤلفات علماء المسلمين، وباحثيهم قديماً وحديثاً، إلّا أن هذه المؤلفات تنقسم إلى مجموعتين اثنتين، تؤلف كل مجموعة منهما منهجاً قائماً بذاته:

١ ـ مجموعة تهتم بإبراز الفضائل الظاهرية للأئمة (ع) ومكانتهم في قومهم وعشائرهم، وما حفظه التاريخ من آثارهم.

وتكاد هذه الأبحاث أن تكون كالأبحاث والدراسات الرجالية المألوفة عند المسلمين، أو كأبحاث السيرة المألوفة في المكتبة الإسلامية من حيث المنهجية، فإن تلك الدراسات لا تختلف في أسلوبها وطريقتها في العرض والأداء عن الدراسات التي تناولت حياة الخلفاء والسلاطين والفقهاء والرواة، الذين شهدهم تاريخ المسلمين، فإنك حين تستعرض مفردات المنهج الذي تناول سيرة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، في العصور السابقة أو اللاحقة، فإنك لا تكاد تجد فروقاً كبيرة بين مفردات هذا المنهج ومنهج دراسة سيرة غيره من الخلفاء والسلاطين وأمثالهم، وهاك نموذجاً من هذا المنهج في سيرة أميرالمؤمنين المكتوبة:

ففهرس كتاب الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله (ت عام ٤١٣ ه) الخاص بسيرة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع) يحمل المفردات الآتية:

ـ باب الخبر عن أميرالمؤمنين (ع).
ـ فصل في إمامته.
ـ فصل في وفاته.
ـ فصل في إخباره بما يجري له قبل وفاته (ع).
ـ فصل في نعيه لنفسه قبل مقتله.
ـ فصل في الأخبار الواردة بسبب قتله.
ـ فصل في أخبار موضع قبره.
ـ طرف من أخبار أميرالمؤمنين (ع).
ـ فصل في فضله على الكافة في العالم.
ـ في فضله (ع).
ـ فصل في فضل حبه وقبح بغضه.
ـ في كونه هو وشيعته هم الفائزون.
ـ في أن ولايته دليل طيب المولد وبغضه دليل خبث المولد.
ـ في تسمية النبي له بإمرة المؤمنين.
ـ مناقبه (ع).
ـ موقفه في يوم خيبر.
ـ قصة براءة.
ـ جهاده.
ـ من قتلهم (ع) ببدر من كبار المشركين.
ـ فيما صنعه ببدر.
ـ موقفه في غزوة أُحد.

- مواقفه في الأحزاب.
- مواقفه في غزو وادي الرمل.
- مواقفه في غزوة وادي بني المصطلق.
- مواقفه في الحديبية.
- مواقفه في حنين.
- استخلاف النبي (ص) له عند خروجه إلى تبوك.
- مواقفه في غزوة ذات السلسلة.
- قصة أهل نجران.
- شرح قصة حجة الوداع وغدير خم.
- نص الرسول على علي (ع).
- بعض حوادث قضائه في عهد النبي.
- بعض قضاياه في خلافة أبي بكر.
- بعض قضاياه في خلافة عمر.
- بعض قضاياه في خلافة عثمان.
- بعض قضاياه أيام خلافته.
- مختصر من كلامه وخطبه.
- فصل في ذكر بعض خوارق عاداته.
- ذكر أولاد أميرالمؤمنين (ع) وعددهم وأسمائهم وبعض أخبارهم.

إن من المؤاخذات المركزية على هذه المنهجية أنها غير موفقة لتمييز أئمة أهل البيت (ع) من غيرهم، كما أنها لم تنجح في بلورة مكانتهم العليا بين العباد بعد رسول الله (ص)، والخلل ليس في أهمية

ما ذكر وروي من سيرة آل النبي (ص) من خلال هذه المنهجية، وإنما بسبب حركة الوضع والتزييف التي شهدها التاريخ الإسلامي في مراحل عديدة جرت بتخطيط الحكام ودعمهم، خصوصاً في العهد الأموي لا سيما في عصر معاوية بن أبي سفيان ـ كما سيتضح بعد قليل ـ الأمر الذي أغرق السيرة بركام من الادعاءات والتزييف من أجل تضليل الأمة، وإبعادها عن منابع الخير فيها بعد النبي (ص).

وتتجلى مخاطر تلك العملية المأساوية بذكر الوثائق التالية:

روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة[١]: «أن برئت الذمة من روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته»، فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي (ع)، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام علي (ع)، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: «ألّا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته

---

(١) عام الجماعة هو عام ٤١ هـ الذي تسلم معاوية فيه السلطنة، بعد صلحه مع الحسن السبط (ع)، وسقوط دولة الخلافة الإسلامية في الكوفة.

شهادة».

وكتب إليهم «أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، وأسمه وأسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان منقبة إلّا كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية «فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة الخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليَّ وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله».

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى «أشادوا» بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم،

فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: «انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليّاً وأهل بيته، فأمحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتوه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به، واهدموا داره».

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى إن الرجل من شيعة علي (ع) ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليتمكن عليه، فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون والمستضعفون، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي (ع)، فازداد البلاء والفتنة فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض.

ثمّ تفاقم الأمر بعد قتل الحسين (ع)، وولي عبدالملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي، فتقرّب إليه

أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه، وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم وأكثروا من الغض من علي (ع) وعيبه، والطعن فيه، والشنآن له، حتى إن إنساناً وقف للحجاج ـ ويقال إنه جد الأصمعي عبدالملك بن قريب ـ فصاح به: أيها الأمير، إن أهلي عقوني فسموني عليّاً، وإني فقير بائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك له الحجاج، وقال: للطف ما توسلت به قد وليتك موضع كذا.

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه ـ وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم ـ في تأريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم.[(١)]

وهكذا نشأت معلومات ووضعت أفكار وتصورات لا أساس لها من الصحة، وصيغت ثقافات وقيم لا وجود لها في دين أو واقع، وكان كثير من تلك المعلومات والأفكار قد قيلت على لسان النبي (ص)، لتأخذ بعداً مقدساً عند الناس، وتكون ديناً يدين به الخلق.

وإذا أعدنا إلى الأذهان أن السنّة الشريفة قد صدرت قرارات من الخلفاء، تمنع من نشرها وتدوينها منذ الأيام الأولى لخلافة أبي بكر حتى خلافة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، الأمر الذي أعطى فرصاً كافية جداً لصياغة «سنّة» ما أنزل الله تعالى بها من سلطان،

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ١١ : ٤٤ ـ ٤٦.

وافتعال أخبار وأحاديث لم يتفوّه بها النبي (ص) على الإطلاق، حتى إذا أطلقت يد التدوين للسنة في العصر العباسي الأول، دونت الأخبار والأحاديث التي رعتها سياسة الخلفاء، وأصرت على إشاعتها بالترغيب والترهيب.

أقول: إذا أعدنا الأذهان هذه الحقائق، تتجلى أمامنا ضخامة الجريمة الثقافية والعلمية التي ارتكبت بحق هذا الدين، وحجم التشويه الذي تعرضت له آثار النبوة، على أننا في المقابل قد ندرك أهمية المعلومات الإيجابية التي بقي التاريخ محتفظاً بها عن أهل البيت (ع)، رغم ضخامة المؤامرة وحجم الإرهاب الذي صبه الحكام الظالمون على حملة الحق، ومصادر النور في هذه الأمة.

فرواية حديث إيجابي عن أهل البيت (ع) كان يسوق صاحبه إلى الموت، وهدم الدار وتشتيت الأُسرة بواسطة الحكام والولاة، إذا بلغتهم وشاية حول هذا الموضوع من صبي مغرر به، أو خادم مخدوع أو امرأة حمقى.

ومن نافل القول: إنه رغم قيمة المعلومات التي حفظتها ذاكرة التاريخ والتي تتعلق بمكانة أهل البيت (ع) والبعد المناقبي لسيرتهم الطاهرة، إلّا أن هذه المعلومات قاصرة ـ بعدما جرى ـ عن تشخيص موقعهم في الرسالة والأمة، وتحديد المسؤولية الشرعية تجاههم عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ مجموعة المؤلفات التي تتناول علياً وأولاده من خلال كونهم أئمة هدى، يهدون بالحق وبه يعدلون:

ويهتم هذا النمط من المؤلفات والأبحاث بعرض أبعاد الإمامة الشرعية بعد النبي (ص) ومواصفاتها وأدواتها، والقدرات المتاحة للأئمة الأوصياء عليهم الصلاة والسلام، وكنماذج لهذه المؤلفات نذكر أصول الكافي للشيخ أبي جعفر الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ)، وكمال الدين وتمام النعمة للشيخ أبي جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ) وإثبات الهداة بالنصوص والمعجزات: للمحدث الحر العاملي (محمد بن الحسن) المتوفي عام ١١٠٤ هـ.

وبصائر الدرجات الكبرى للمحدث أبي جعفر محمد بن الحسن بن فرّوخ الصفار المتوفى عام ٢٩٠ هـ (وهو من أصحاب الإمام الحسن بن علي العسكري (ع)) حيث تتناول هذه المؤلفات وأمثالها الأئمة (ع) من خلال المواقع التي حددها الله عزّوجلّ لهم، باعتبارهم أوصياء لرسول الله (ص)، وهذا نموذج من مفردات الأبحاث التي تتناول هذه المهمة الكبرى كما حملها الكافي[١] للشيخ الكليني رحمه الله:

- باب الاضطرار إلى الحجة.
- طبقات الأنبياء والرسل والأئمة.
- الفرق بين الرسول والنبي والمحدَّث.
- أن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلّا بإمام.
- أن الأرض لا تخلو من حجة.

---

(١) المجلد الأول من أصول الكافي.

ـ أنه لو لم يبق في الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجة.
ـ معرفة الإمام والرد إليه.
ـ فرض طاعة الأئمة.
ـ في أن الأئمة شهداء لله عزّوجلّ على خلقه.
ـ أن الأئمة (ع) هم الهداة.
ـ أن الأئمة (ع) ولاة أمر الله وخزنة علمه.
ـ أن الأئمة (ع) خلفاء الله عزّوجلّ في أرضه وأبوابه التي منها يؤتىٰ.
ـ أن الأئمة (ع) نور الله عزّوجلّ.
ـ أن الأئمة (ع) هم أركان الأرض.
ـ نادر جامع في فضل الإمام وصفاته.
ـ أن الأئمة (ع) ولاة الأمر وهم الناس المحسودون الذين ذكرهم الله عزّوجلّ.
ـ أن الأئمة (ع) العلامات التي ذكرها الله عزّوجلّ في كتابه.
ـ أن الآيات التي ذكرها الله عزّوجلّ في كتابه هي الأئمة.
ـ ما فرض الله عزّوجلّ ورسوله (ص) من الكون مع الأئمة (ع).
ـ أن أهل الذكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمة (ع).
ـ باب أن من وصفه الله تعالى في كتابه بالعلم هم الأئمة (ع).
ـ أن الراسخين في العلم هم الأئمة (ع).
ـ أن الأئمة (ع) قد أُوتوا العلم وأُثبت في صدورهم.
ـ في أن من اصطفاه الله من عباده وأورثهم كتابه هم الأئمة (ع).
ـ باب أن الأئمة في كتاب الله إمامان: إمام يدعو إلى الله وإمام يدعو

إلى النار.

- باب أن القرآن يهدي للإمام.
- باب أن النعمة التي ذكرها الله عزّوجلّ في كتابه الأئمة (ع).
- أن المتوسمين الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه هم الأئمة (ع) والسبيل فيهم مقيم.
- عرض الأعمال على النبي (ص) والأئمة (ع).
- أن الطريقة التي حث على الاستقامة عليها ولاية علي (ع).
- أن الأئمة معدن العلم وشجرة النبوّة ومختلف الملائكة.
- أن الأئمة (ع) ورثة العلم يرث بعضهم بعضاً العلم.
- باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم.
- أن الأئمة (ع) عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عزّوجلّ وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها.
- أنه لم يجمع القرآن كلّه إلّا الأئمة (ع) وأنهم يعلمون علمه كلّه.
- ما أُعطي الأئمة (ع) من اسم الله الأعظم.
- ما عند الأئمة من آيات الأنبياء (ع).

ما عند الأئمة من سلاح رسول الله (ص) ومتاعه.

- أن مثل سلاح رسول الله مثل التابوت في بني إسرائيل.
- ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة (ع).
- في أن الأئمة (ع) يزدادون في كل ليلة جمعة.
- لولا أن الأئمة يزدادون لنفد ما عندهم.

أن الأئمة (ع) يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل (ع).

ـ نادر فيه ذكر الغيب.

ـ أن الأئمة (ع) إذا شاؤوا أن يعلموا علموا.

ـ أن الله عزّوجلّ لم يعلّم نبيه علماً إلّا أمره أن يعلّمه أميرالمؤمنين (ع) وأنه كان شريكه في العلم.

ـ أن الأئمة (ع) لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وعليه.

ـ التفويض إلى رسول الله (ص) وإلى الأئمة (ع) في أمر الدين.

ـ في أن الأئمة (ع) بمن يشبهون ممن مضى.

ـ أن الأئمة (ع) محدثون فهمون.

ـ فيه ذكر الأرواح التي في الأئمة (ع).

ـ الروح التي يسدد الله بها الأئمة (ع).

ـ وقت ما يعلم الإمام جميع علم الإمام الذي كان قبله عليهم جميعاً السلام.

ـ في أن الأئمة صلوات الله عليهم في العلم والشجاعة والطاعة سواء.

ـ باب أن الإمام (ع) يعرف الإمام الذي يكون من بعده وأن قول الله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ فيهم (ع) نزلت.

ـ أن الإمامة عهد من الله عزّوجلّ معهود من واحد إلى واحد.

ـ أن الأئمة (ع) لم يفعلوا شيئاً ولا يفعلون إلّا بعهد من الله عزّوجلّ وأمر منه لا يتجاوزونه.

- ثبات الإمامة في الأعقاب وأنـها لا تـعود فـي أخ ولا عـم ولا غيرهما من القرابات.
- ما نص الله عزّوجلّ ورسوله على الأئمة واحداً فواحداً.
- الإشارة والنص على أميرالمؤمنين (ع).
- الإشارة والنص على الحسن بن علي (ع).
- الإشارة والنص على الحسين بن علي (ع).
- الإشارة والنص على علي بن الحسين بن علي (ع).
- الإشارة والنص على أبي جعفر (ع).
- الإشارة والنص على أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع).
- الإشارة والنص على أبي الحسن موسى (ع).
- الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا (ع).
- باب الإشارة والنص على أبي جعفر الثاني (ع).
- الإشارة والنص على أبي الحسن الثالث (ع).
- الإشارة والنص على أبي محمد (ع).
- الإشارة والنص على صاحب الدار (ع).
- في تسمية من رآه (ع).
- في النهي عن الاسم.
- نادر النهي حال الغيبة.
- في الغيبة.
- ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة.
- كراهية التوقيت.

ـ التمحيص والامتحان.
ـ أنه من عرف إمامه لم يضره تقدم هذا الأمر أو تأخر.
ـ من ادعى الإمامة وليس لها بأهل ومن جحد الأئمة أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهل.
ـ فيمن دان الله عزّوجلّ بغير إمام من الله جلّ جلاله.
ـ من مات وليس له من أئمة الهدى وهو من الباب الأول.
ـ باب فيمن عرف الحق من أهل البيت ومن أنكر.
ـ ما يجب على الناس عند مضي الإمام (ع).
ـ في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه.
ـ حالات الأئمة (ع) في السن.
ـ أن الإمام لا يغسله إلّا إمام من الأئمة (ع).
ـ مواليد الأئمة (ع).
ـ خلق أبدان الأئمة وأرواحهم وقلوبهم (ع).
ـ التسليم وفضل المسلمين.
ـ أن الواجب على الناس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم ويعلمونه ولا يتهم ومودتهم له.
ـ في الأئمة (ع) أنهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود.
ـ أن مستقى العلم من بيت آل محمد (ص).
ـ أنه ليس شيء من الحق في يد الناس إلّا ما خرج من عند الأئمة (ع) وأن كل شيء لم يخرج من عندهم فهو باطل.
ـ باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب.

ـ ما أمر النبي (ص) بالنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم ومن هم.
ـ ما يجب من حق الإمام على الرعية وحق الرعية على الإمام (ع).
ـ أن الأرض كلّها للإمام (ع).
ـ سيرة الإمام في نفسه وفي المطعم والملبس إذا ولي الأمر.
ـ نكت ونتف من التنزيل في الولاية.
ـ في معرفتهم أولياءهم والتفويض إليهم.

هذا، ويلاحظ أن هذه المؤلفات الجليلة تعمل على ارساء واشاعة الحقائق الإسلامية الآتية:

١ ـ أنه لابد من وصي لكل رسول

أ ـ النصوص تفرض الوصية:

فقد أورد المحدثون وأصحاب السنن نصوصاً كثيرة، تدل على أن الرسول الخاتم (ع) كان أُسوة بالأنبياء الكبار السابقين، في تشخيص أوصيائه الذين ينهضون بأعباء حفظ نواميس الشريعة وقوانين الرسالة وتبليغها وتربية الأمة عليها، ويخلفون النبي (ص) في أموره كلّها دون النبوّة.

وهذه جملة يسيرة من تلك النصوص المباركة:

١ ـ روى الفقيه الخطيب أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الواسطي الجلابي الشافعي، المعروف بابن المغازلي المتوفى عام ٤٨٣هـ في كتابه (مناقب علي بن أبي طالب) بأسناده عن رسول الله (ص)

قوله: «**لكل نبي وصي ووارث، وإن وصيي ووارثي علي بن أبي طالب**»(١).

٢ ـ وعن أحمد بن حنبل في مسنده عن أنس بن مالك قال: «**قلنا لسلمان: سَلْ النبي (ص) عن وصيه، فقال سلمان: يا رسول الله من وصيك؟**

فقال: يا سلمان من وصي موسى؟

فقال: يوشع بن نون.

قال (ص): وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب»(٢).

٣ ـ وأخرج الطبراني في الكبير بإسناده إلى أبي أيوب الأنصاري عن رسول الله (ص) قال: «**يا فاطمة، أما علمت أن الله عزّوجلّ اطلع على أهل الأرض، فاختار منهم أباك، فبعثه نبياً، ثمّ اطلع ثانية، فاختار بعلك، فأوحى إليَّ، فانتجبته، واتخذته وصياً**»(٣).

---

(١) ط ١، ١٣٩٤ هـ طهران: ٢٠١ وأخرجه الموفق بن أحمد الخوارزمي في مناقبه: ٥٠ بأسناده عن شريك، وأخرجه المحب الطبري في ذخائر العقبى: ٧١، والرياض النضرة ٢ : ١٧٨ وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة والكنجي في كفاية الطالب، ٢٦٠.

(٢) أنظر ينابيع المودة، للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، ت ١٢٩٤ هـ، ط ٨، ص ٧٨، وأنظر أحاديث الوصية في المصدر المذكور بأسانيده عن أجلة الرواة والمحدثين بين ص ٧٨ ـ ٨٣ ورواه البيهقي في مجمع الزوائد، ٩ : ١١٣.

(٣) هذا الحديث بلفظه وسنده هو الحديث ٢٥٤١ من أحاديث كنزالعمال للمتقي الهندي في ص ١٥٣، ج ٦، وأورده في المنتخب.

٤ ـ وأخرج الرواة والمحدثون وأصحاب التفسير بأسنادهم عن النبي (ص) مخاطباً علي بن أبي طالب (ع) بما يلي:

«أنت أخي ووصيي ووزيري، ووارثي، وخليفتي من بعدي»(١).

وعن بريدة الأسلمي قال: قال النبي (ص): **«لكل نبي وصي ووارث وإن عليّاً وصيي ووارثي»**(٢).

ب ـ لتاريخ الرسالات جواب:

ومن دراسة تاريخ الرسل الكبار (ع): فإننا لا يمكن أن نجد رسولاً دون وصي، يخلفه في أمته ودعوته ورسالته، وهذه حقيقة نقرؤها في سفر التاريخ النبوي العام، كما نجدها في تأكيدات الرسول الخاتم (ص)، ليقطع السنة التقول والادعاء على الذين يحاولون أن يجعلوه بدعاً من رسل الله صلّى الله عليهم أجمعين، في هذه القضية الحضارية الأساسية التي تحفظ الخط، وتجسد حرص النبي (ص) على رسالته وأمته وحركة الإسلام التاريخية.

ـ فقد أوردت أم سلمة زوج النبي (ص) عن النبي (ص) بهذا

---

(١) ممن أخرج الحديث: البيهقي في سننه ودلائله، والثعلبي والطبري في تفسيرهما الكبيرين (تفسير سورة الشعراء) والطبري في تاريخه ٢ : ٢١٧، وابن الأثير الشافعي في الكامل ٢ : ٢٢، والسيرة الحلبية ١ : ٣١٨، وابن حنبل في مسنده، ١ : ١١، وص ١٥٩، وكنز العمال: ٦، رقم الحديث ٦٠٠٨، والنسائي في الخصائص: ٦، وغيرهم.

(٢) ينابيع المودة للحافظ الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي: ٧٩، عن أحمد الخوارزمي الحنفي في مناقبه، ويعضد هذا الحديث كثير من الأحاديث التي أوردها المحدثون بألفاظ عديدة عن النبي (ص). راجع ينابيع المودة بين: ٧٨ ـ ٨٣.

الخصوص قوله: «إن الله اختار من كل نبي وصياً، وعلي وصـي فـي عترتي، وأهل بيتي وأُمتي بعدي»[1].

فرسول الله (ص) رغم حرصه على إرشاد الأمة إلى وصيه بعده إلّا أنه أراد أن يقرر قضية موضوعية ثابتة، ترافق الرسالات الكبرى عبر التاريخ، وهي أنه لابدّ أن يكون لكل رسول من رسل الله تعالى وصي يحمل رسالته بعده، ويبلغ كلمته ويجسد خطه، ويقيم حدود الله في أرضه.

وإذا عدنا إلى تاريخ الرسالات السماوية المباركة فإننا نجد الحقيقة التالية:

١ ـ روى الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١ هـ) بإسناده إلى الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع) ما يلي:

قال: «قال رسول الله (ص): أنا سيد النبيين، ووصيي سيد الوصيين، وأوصياؤه سادة الأوصياء، إنّ آدم (ع) سأل الله عزّوجلّ أن يجعل له وصياً صالحاً فأوحى الله عزّوجلّ إليه: إني أكرمت الأنبياء بالنبوّة ثمّ اخترت من خلقي خلقاً وجعلت خيارهم الأوصياء. فأوحى الله تعالى ذكره إليه: يا آدم أوص إلى شيث، فأوصى آدم (ع) إلى شيث وهو هبة الله بن آدم، وأوصى شيث إلى ابنه شبان وهو ابن نزلة الحوراء، التي أنزلها الله عزّوجلّ على آدم من الجنّة فزوجها ابنه شيثاً، وأوصى شبان إلى محلث،

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٣: ٥، والمحب الطبري في الرياض النضرة، ٢: ١٧٨.

وأوصى محلث إلى محوق، وأوصى محوق إلى غثميشا، وأوصى غثميشا إلى أخنوخ، وهو إدريس النبي (ع)، وأوصى إدريس إلى ناحور، ودفعها ناحور إلى نوح (ع)، وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر، وأوصى عثامر إلى برغيثاشا، وأوصى برغيثاشا إلى يافث، وأوصى يافث إلى بره، وأوصى بره إلى جفسيه، وأوصى جفسية إلى عمران، ودفعها عمران إلى إبراهيم الخليل (ع)، وأوصى إبراهيم إلى ابنه إسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، وأوصى إسحاق إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى برثيا، وأوصى برثيا إلى شعيب، ودفعها شعيب إلى موسى بن عمران (ع)، وأوصى موسى بن عمران إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى داود، وأوصى داود إلى سليمان (ع)، وأوصى سليمان إلى آصف بن برخيا، وأوصى آصف بن برخيا إلى زكريا، ودفعها زكريا إلى عيسى بن مريم (ع)، وأوصى عيسى بن مريم إلى شمعون بن حمون الصفا، وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا، وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر، وأوصى منذر إلى سليمة، وأوصى سليمة إلى بردة، ثمّ قال رسول الله: ودفعها إليَّ بردة، وأنا أدفعها إليك يا علي، وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحد، حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك، ولتكفرن بك الأمة ولتختلفن عليك اختلافاً شديداً، الثابت عليك كالمقيم معي، والشاذ عنك كالشاذ منّي، والشاذ منّي في

النار والنار مثوىٰ الكافرين»[١].

٢ ـ ويذكر المؤرخ ابن الأثير الجزري ما يلي:

«كان شيث وصي آدم، وكان أنوش بن شيث وصي شيث، ووصي أنوش اينه قينان، ومهلائيل كان وصي قينان، وكان أليارد وصي مهلائيل، ووصي أيارد إدريس، ووصي إدريس أخنوخ»[٢]، «وأوصى نوح إلى ولده سام»[٣]، «وأوصى إبراهيم إلى إسماعيل، وإسماعيل إلى إسحاق»[٤]، «ووصى موسى يوشع بن نون»[٥]، «وأوصى داود إلى

(١) من لا يحضره الفقيه، للمحدث أبي جعفر الصدوق بن بابويه القمي، ت ٣٨١، ج ٤، ط طهران، ١٣٩٠ هـ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، ومثله في كمال الدين وتمام النعمة، ط طهران، ١٣٩٥ هـ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣، ومثله في علم اليقين في أصول الدين، ج ١، للمحدث محمد بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، ط ١٤٠٠، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٥، وقد فصل العلّامة المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الهذلي المعتزلي الشافعي، ت ٣٤٦ هـ في كتاب (إثبات الوصية) موضوع الوصية من آدم (ع) فما دونه بشكل كامل، فليراجع.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ١، لابن الأثير الجزري الشيباني، ط ١٩٦٥، بيروت، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) نفس المصدر، ٧٣.

(٤) نفس المصدر، ١٢٥.

(٥) نفس المصدر، ١٩٨.

سليمان»[١].

وإضافة إلى اهتمام كتب السنن والعقائد بموضوع الوصية العامة، باعتبارها موضوعاً دينياً عقائدياً، فإن كتب التاريخ قد اهتمت بهذا الموضوع الرسالي الهام باعتباره قضية تاريخية، تمثل أدوارها على ظهر هذا الكوكب من خلال رسل الله وأوصيائهم عليهم الصلاة والسلام.[٢]

ويستطيع المتتبع أن يجد على صفحات الطبري، وتاريخ الكامل لابن الأثير الجزري، ومروج الذهب للمسعودي الهذلي، وغيرهم استعراضاً لتسلسل الوصية من آدم (ع) فما دونه.

إلّا أن الطبري وابن الأثير على سبيل المثال يكتفيان بمتابعة حلقات الوصية إلى عيسى (ع)، أو محمد خاتم النبيين (ص)، الأمر الذي يذكّر بأن تدوين أحداث التاريخ عموماً تتأثر بالعامل السياسي، فقد يتبنى المؤرخ قضية أو حدثاً أو واقعة، يراها منسجمة مع ذوقه أو اتجاهه الفكري أو السياسي، فيثبتها ويسلط الأضواء عليها، وقد يرى المؤرخ ذلك الحدث مخالفاً لقناعاته السياسية، واتجاهه الفكري فيهمله ويسدل عليه الستار، إذ إن التاريخ يتحكم فيه العامل الذاتي كثيراً، حتى أنه بسبب ذلك لا يرتفع إلى مستوى العلوم الطبيعية المألوفة في

---

(١) نفس المصدر، ٢٢٧ (وهذا العرض لموضوع الوصية من آدم فما دونه من الأوصياء عليهم السلام عرضه الطبري في تاريخه، ١ : ١٠٧ ـ فراجع).

(٢) يلاحظ كتاب (إثبات الوصية) للمسعودي، للهذلي المعتزلي الشافعي.

البعد الواقعي.

وإذا كانت بعض مؤلفات المؤرخين، وأصحاب السنن لا تهتم باستعراض حلقات سلسلة الوصية التي أعقبت آدم النبي (ع)، وختمت بآخر وصي للرسول الخاتم عليه وآله الصلاة والسلام، فإن التراث الإسلامي ينطوي على تعليمات ونصوص ووصايا كثيرة جداً تنطق جميعها بترابط حلقات الوصية، وإحكامها من قبل الله عزّوجلّ، حيث أن كل نبي من أنبياء الله الكبار (ع) قد بلّغ بخليفته في أمته، وقد فعل الرسول الخاتم (ص) مثل ذلك، بتكليف من الله عزّوجلّ ـ كما سيتضح في الأبحاث القادمة ـ تماماً كما فعل بالنسبة إلى تبليغه بالأحكام المركزية في الشريعة الإسلامية.

٢ ـ الوصية للأئمة ولدت مع الإسلام

حين تلقى رسول الله (ص) أمر ربّه الأعلى بضرورة دعوة عشيرته الأقربين في الأيام الأُولى من دعوته المباركة بقوله تعالى: ﴿**وانذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فان عصوك فقل إني بريء ممّا تعملون**﴾[1]. أمر الرسول (ص) علياً (ع) أن يدعو رجال عشيرته الأقربين إلى طعام عنده، فحضروا دار رسول الله (ص) وكانوا أربعين رجلاً، وبعد أن تناولوا طعامهم، بادرهم رسول الله (ص) بقوله: «**يا بني عبدالمطلب، إن الله بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني**

---

(١) الشعراء، ٢١٤ ـ ٢١٦.

إليكم خاصة، فقال: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ إني والله ما أعلمُ شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم عنها جميعاً.

فقام عليّ وقال: «أنا يا نبي الله، أُؤازرك على هذا الأمر»، فأمره رسول الله (ص) بالجلوس، ولما لم يجب رسول الله أحد، نهض علي (ع) تارة أخرى وأعلن مؤازرته للنبي (ص)، فأجلسه رسول الله (ص).

وأعاد الرسول (ص) نداءه لقومه مجدداً، فلم يجبه أحد، وكان علي (ع) وحده يلبي النداء، ويجهر بالمؤازرة والنصرة، فلما يئس النبي (ص) من استجابتهم التفت إلى ملبي دعوته الوحيد قائلاً: «اجلس، فأنت أخي ووصيي، ووزيري، ووارثي وخليفتي من بعدي»[١].

ثمّ نهض القوم وهم يخاطبون أبا طالب: «ليهنئك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك، وقد جعل ابنك أميراً عليك»[٢].

إن هذه الحادثة المسلَّمة، وما جرى على لسان رسول الله (ص)

---

(١) أخرج الحديث وما مضى من فقراته كل من: البيهقي في سننه ودلائله، والثعلبي والطبري في تفسيرهما لسورة الشعراء في تفسيريهما الكبيرين، والطبري في تاريخه، ٢ : ٢١٧، وابن الأثير في الكامل، ٢ : ٢٢، والسيرة الحلبية، ٢ : ٣٨١، وابن حنبل في مسنده، ١ : ١١١، وص ١٥٩، والنسائي في الخصائص، ٦، وكنزالعمال، ج ٦، رقم الحديث ٦٠٠٨، وغير هذه المصادر بألفاظ متقاربة.

(٢) نفس المصدر.

فيها، بشأن علي (ع) تكشف بقوة ووضوح أن التبليغ بإمامة علي (ع) وخلافته للنبي (ص) في أمته قد رافق دعوة النبي (ص) للتوحيد والنبوّة، الأمر الذي يكشف عن أن هذه القضية من مسائل الإسلام الكبرى، ومحاوره المركزية التي لم تعد قضية تاريخية عادية، بقدر ما تشكل إحدى قيم الإسلام الكبرى التي ينبغي على المسلمين أن يلتفتوا إليها بوعي عميق.

٣ـ أوصياء النبي (ص) اثنا عشر

ومن أوضح الواضحات في الثقافة الإسلامية الأصيلة، أن أئمة الناس بعد النبي صلّى الله عليهم أجمعين لابدّ أن يكونوا اثني عشر إماماً، لا يزيدون واحداً ولا ينقصون واحداً، كما نصت على ذلك بيانات النبي (ص) الصريحة الصحيحة.

والذي يستقرئ النصوص الأصيلة، الواردة بشأن هذه القضية العقائدية الحضارية الراسخة، يجد أن النصوص النبوية التي أبرزت هذه الحقيقة، وأرست قواعدها في الثقافة الإسلامية الأصيلة تذكر وظائف الإمامة بمجموعها عبر ألفاظ عديدة.

فمرة تصرح الأحاديث أن أمر الناس يليه أئمة اثنا عشر، ومرة تصرح بأن النبي (ص) يخلفه اثنا عشر خليفة، ومرة يكون بعد النبي (ص) اثنا عشر قيّماً، وأخرى يكون بعد النبي اثنا عشر أميراً...

ودلالة هذه الأحاديث وعلو شأنها وقوة مصداقيتها أنها وردت على لسان النبي (ص)، قبل أن تطرح قضية الأئمة الاثني عشر من الناحية

الواقعية في دنيا الناس، فلم يتبلور مذهب أو فئة من المسلمين تنادي بها في تلك المرحلة المتقدمة، وإنما وردت على لسان النبي (ص) والأئمة (ع) لما تزل أسماؤهم غيباً من المغيبات التي أرشد الرسول (ص) الأمة لها، ودلهم عليها. ولابأس أن نورد حديث الاثني عشر بألفاظه المتعددة، كما أوردته كتب الصحاح وغيرها:

أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة عن رسول الله (ص) قوله: **«لايزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»**(١).

وفي رواية: **«لايزال أمر الناس ماضياً..»**.

وفي حديثين منهما: **«إلى اثني عشر خليفة..»**.

وفي سنن أبي داود: **«حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة»**.

وفي حديث: **«إلى اثني عشر»**.

---

(١) نقلاً عن معام المدرستين، ج ١، للعلّامة السيد مرتضى العسكري، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥، بروايته عن صحيح مسلم، ٦ : ٤٣، باب (الناس تبع لقريش) من كتاب الإمارة واخترنا هذا اللفظ من الرواية لأن جابر كان قد كتبها، وفي صحيح البخاري، ٤: ١٦٥، كتاب الأحكام وصحيح الترمذي باب ما جاء من أبواب الفتن، وسنن أبي داود، ٣ : ١٠٦، كتاب المهدي، ومسند الطيالسي، الحديث ٧٦٧ و ١٢٧٨، ومسند أحمد، ٥ : ٨٦ ـ ٩٠ و ٩٢ ـ ١٠١ و ١٠٦ ـ ١٠٨، وكنزالعمال، ١٣ : ٢٦ ـ ٢٧، وحلية أبي نعيم، ٤ : ٣٣٣، وجابر بن سمرة بن جنادة العامري ثم السوائي، ابن أخت سعد بن أبي وقاص وحليفهم، مات بالكوفة بعد السبعين، وروى عنه أصحاب الصحاح، ١٤٦، حديثاً، ترجمته بأسد الغابة، وتقريب التهذيب، وجوامع السيرة: ٢٢٧.

وفي البخاري، قال: «سمعت النبي (ص) يقول: ليكون اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: قال: كلّهم من قريش»[١].

وفي رواية: «ثمّ تكلّم النبي (ص) بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي ماذا قال الرسول (ص)؟ فقال: كلّهم من قريش»[٢].

وفي رواية: «لا تضرهم عداوة من عاداهم»[٣].

وفي رواية: «لاتزال هذه الأمة مستقيماً أمرها، ظاهرة على عدوها، حتى يمضي منهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش، ثمّ يكون المرج والهرج».

وفي رواية: «يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيّماً لا يضرّهم من خذلهم، كلّهم من قريش»[٤].

«لايزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً»[٥].

وعن أنس: «لن يزال هذا الدين قائماً إلى اثني عشر من قريش، فإذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها»[٦].

---

(١) فتح الباري، ١٦ : ٣٣٨، ومستدرك الصحيحين، ٣: ٦١٧.

(٢) فتح الباري، ١٦ : ٣٣٨.

(٣) فتح الباري، ١٦ : ٣٣٨.

(٤) منتخب الكنز، ٥ : ٣١٢، تاريخ ابن كثير، ٦ : ٢٤٩، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ١٠، كنزالعمال، ١٣ : ٢٦، الصواعق المحرقة، ٢٨.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٢ : ٢٠٢، الصواعق المحرقة، ١٨، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ١٠.

(٦) كنزالعمال، ١٣ : ٢٧.

وفي رواية: «**لايزال أمر هذه الأمة ظاهراً حتى يقوم اثنا عشر كلّهم من قريش**»[١].

وروى أحمد والحاكم وغيرهم واللفظ للأول عن مسروق قال: «كنّا جلوساً عند عبدالله (ابن مسعود) يقرئنا القرآن، فسأله رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن، هل سألتم رسول الله (ص) كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبدالله: ما سألني عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلك، قال: سألناه فقال: **اثنا عشر عدة نقباء بني إسرائيل**»[٢].

وفي رواية قال ابن مسعود، قال رسول الله (ص): «**يكون بعدي من الخلفا عدة أصحاب موسى**»[٣].

قال ابن كثير: «وقد روى هذا عن عبدالله بن عمرو وحذيفة وابن

---

(١) كنزالعمال، ١٣ : ٢٧، عن ابن البخار.

(٢) مسند أحمد، ١ : ٣٩٨ و ٤٠٦، قال أحمد شاكر في هامش الأول: إسناده صحيح. ومستدرك الحاكم، ولخصه الذهبي، ٤ : ٥٠١، وفتح الباري، ١٦ : ٣٣٩، مختصراً، ومجمع الزوائد، ٥ : ١٩٠، والصواعق المحرقة لابن حجر، ١٢، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ١٠، والجامع الصغير له، ١ : ٥٧، وكنزالعمال للمتقي، ١٣ : ٢٧، وقال: أخرجه الطبراني، ونعيم بن حماد في الفتن، وفيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي، ٢ : ٤٥٨، وأورد الخبرين ابن كثير في تاريخه عن ابن مسعود، باب ذكر الأئمة الأثني عشر الذين كلهم من قريش، ٦ : ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

(٣) ابن كثير، ٦ : ٢٤٨، وكنزالعمال، ١٣ : ٢٧، وراجع شواهد التنزيل للحسكاني، ١ : ٤٥٥، ح ٦٢٦.

عباس»[١].

المداليل التي أشاعتها أحاديث (الاثني عشر)

ومن استقراء للأحاديث الشريفة الآنفة، التي وردت عن النبي (ص) بخصوص خلفائه الاثني عشر تتجلى جملة حقائق:

أ ـ أن عدد أئمة الحق الذين يلون أمر الأمة بعد النبي (ص) خلفاء وورثة له اثنا عشر إماماً، لا يزيدون ولا ينقصون، وبعد أن تخلو الأرض من آخرهم تقوم الساعة. **«لايزال هذا الأمر قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة»**.

ب ـ تشير الأحاديث السابقة إلى أن أمر الدين ماضٍ مادام أحد من هؤلاء الأطهار موجوداً، فإذا مات ماجت الأرض بأهلها.

ج ـ لا خليفة حق للرسول (ص) غير هؤلاء الأبرار، وما سواهم ليس خلفاء ولا أوصياء لرسول الله (ص) **«يكون من بعدي من الخلفاء عدة أصحاب موسى»**، فقد حصرت الخلافة باثني عشر (ع) دون أحد سواهم.

د ـ يستفاد من الأحاديث أنه لابدّ من تمتع أحدهم بعمر طويل جداً، لكي يستوعب وجودهم المقدس مسيرة الأمة حتى قيام الساعة، وهذه الحقيقة تفسرها النصوص المصرحة بوجود المهدي من آل محمد صلّى الله عليهم أجمعين، وطول عمره الشريف الخارق للعادة.

---

(١) ابن كثير، ٦ : ٢٤٨.

ويؤيد هذه الحقيقة الخالدة حديث الثقلين الوارد عن النبي (ص)، الذي يؤكد ضرورة وجود إمام من عترة النبي (ص) عدل للقرآن الكريم، يواكب المسيرة حتى قيام الساعة «**إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**»(١).

أحاديث الاثني عشر لا تنطبق على غير أئمة أهل البيت (ع)

إن أحاديث (الاثني عشر) التي وردت عن النبي (ص) بهذه الصراحة، لا يمكن أن تفسر ولا يمكن أن تنطبق إلّا على الأئمة الاثني

---

(١) وقد أخرج حديث الثقلين جملة وافرة من أقطاب الحديث، أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر، والترمذي عن زيد ابن أرقم، والطبراني عن زيد بن ثابت، وعنهم المتقي الهندي في كنزالعمال، ١ : ٤٤، وأخرجه الإمام أحمد من حديث زيد ابن ثابت بطريقين صحيحين في مسنده، ٥ : ١٨٢ ـ ١٨٩، وأخرجه الحاكم، ٣ : ٨٧٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، واعترف الذهبي في تلخيص المستدرك بصحته على شرطهما. وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو يعلي، وابن سعد عن أبي سعيد كما عن كنزالعمال، ١ : ٤٧، الحديث ٩٤٥، وذكره ابن حجر في الصواعق، ٧٥، وغيرهم من الحفاظ وكتبة الحديث مع اختلافهم غير المهم في ألفاظ الحديث، وذكر ابن حجر في الصواعق بعد إيراد الحديث قال: واعلم أنّ لحديث التمسك بهما طرقاً كثيرة، وزدت عن نيف وعشرين صحابياً. وللحديث أسانيد كثيرة متظافرة، وقد قامت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة بطبع رسالة جامعة لأسانيده، من كتب إخواننا من أهل السنّة ألّفها بعض الفضلاء المعاصرين.

عشر من أئمة أهل البيت (ع)، حيث تؤكد أحقيتهم وصحة مذهب المتمسكين بخطهم دون سواهم.

ومن أجل ذلك فإن المناوئين لهذه الحقيقة حين أصروا على صرف مداليل هذه الأحاديث الشريفة عن واقعها، قد وقعوا في تناقض غريب، والتبست عليهم الأمور بشكل مضحك.

فقد ذكر ابن العربي في شرحه لسنن الترمذي حول أحاديث (الاثني عشر) ما يلي:

«فعددنا بعد رسول الله (ص) اثني عشر أميراً فوجدنا أبا بكر، عمر، عثمان، علياً، الحسن، معاوية، يزيد، معاوية بن يزيد، مروان، عبدالملك بن مروان، الوليد، سليمان، عمر بن عبدالعزيز، يزيد بن عبدالملك، مروان بن محمد بن مروان، السفاح».

ثم عدّ بعدهم سبعاً وعشرين خليفة من العباسيين إلى عصره ثمّ قال: «وإذا عددناهم بالمعنى كان معنا منهم خمسة، الخلفاء الأربعة وعمر بن عبدالعزيز، ولم أعلم للحديث معنى»[(١)].

وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء ما يلي: «إن المراد وجود اثني عشر خليفة في جميع مدة الإسلام إلى القيامة يعملون بالحق وإن لم يتولوا»[(٢)].

---

(١) شرح ابن العربي على صحيح الترمذي، ٩ : ٦٨ ـ ٦٩، نقلاً عن معالم المدرستين، ١ : ٣٣٧.

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ١٢.

وقال ابن حجر في فتح الباري: «وقد مضى منهم الخلفاء الأربعة، ولابد من تمام العدة قبل قيام الساعة»[١].

وقال ابن الجوزي: «وعلى هذا فالمراد من (ثم يكون الهرج) الفتن المؤذنة بقيام الساعة من خروج الدجال وما بعده»[٢].

وقال البيهقي كما نقله عنه ابن كثير في تاريخه: «وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبدالملك، ثمّ وقع الهرج والفتنة العظيمة، ثمّ ظهر ملك العباسية، وإنما يزيدون على العدد المذكور في الخبر، وإذا تركت الصفة المذكورة فيه، أو عدّ منهم من كان بعد الهرج المذكور»[٣].

وقال ابن كثير: «إن الذي سلكه البيهقي، ووافقه عليه جماعة من أن المراد هم الخلفاء المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبدالملك الفاسق، الذي قدمنا الحديث فيه بالذم والوعيد، فإنه مسلك فيه نظر، وبيان ذلك أن الخلفاء إلى زمن الوليد بن يزيد هذا أكثر من اثني عشر على كل تقدير، وبرهانه أن الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ خلافتهم محققة.. ثمّ بعدهم الحسن بن علي كما وقع، لأن عليّاً أوصى إليه، وبايعه أهل العراق.. حتى اصطلح هو ومعاوية.. ثمّ ابنه يزيد بن معاوية، ثم ابنه معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم، ثم ابنه

(١) فتح الباري، ١ : ٣٤١، وتاريخ السيوطي، ١٢.

(٢) فتح الباري، ١ : ٣٤١، وتاريخ السيوطي، ١٢.

(٣) تاريخ ابن كثير، ٦ : ٢٤٩ ـ ٢٥٠، نقلاً عن معالم المدرستين، ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

عبدالملك بن مروان، ثم ابنه الوليد بن عِبدالملك، ثم سليمان بن عبدالملك، ثم عمر بن عبدالعزيز، ثم يزيد بن عبدالملك، ثم هشام بن عبدالملك، فهؤلاء خمسة عشر، ثم الوليد بن يزيد بن عبدالملك، فإن اعتبرنا ولاية ابن الزبير قبل عبدالملك صاروا ستة عشر، وعلى كل تقدير فهم اثنا عشر قبل عمر بن عبدالعزيز، وعلى هذا التقدير يدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية ويخرج عمر بن عبدالعزيز، الذي أطبق الأئمة على شكره وعلى مدحه وعدوه من الخلفاء الراشدين، وأجمع الناس قاطبة على عدله، وأن أيامه كانت أعدل الأيام، حتى الرافضة يعترفون بذلك، فإن قال: أنا لا أعتبر إلّا من اجتمعت الأمة عليه لزمه على هذا القول أن لا يعد عليّ بن أبي طالب ولا ابنه، لأن الناس لم يجتمعوا عليهما، وذلك أن أهل الشام بكمالهم لم يبايعوهما.

وذكر أن بعضهم عدّ معاوية وابنه يزيد وابن ابنه معاوية بن يزيد، ولم يقيد بأيام مروان ولا ابن الزبير، لأن الأمة لم تجتمع على واحد منهما، فعلى هذا نقول: في مسلكه هذا عاد للخلفاء الثلاثة، ثم معاوية، ثم يزيد ثم عبدالملك، ثم الوليد بن سليمان، ثم عمر بن عبدالعزيز، ثم يزيد بن هشام، فهؤلاء عشرة، ثم من بعدهم الوليد بن يزيد بن عبدالملك الفاسق، يلزمه منه اخراج عليّ وابنه الحسن، وهو خلاف ما نص عليه أئمة السنّة بل الشيعة»[١].

وقد أورد آخرون آراء أخرى نطويى عنها كشحاً، حيث لا تختلف

---

(١) المصدر السابق.

كثيراً عن هذه الظنون والتخمينات، التي حاول المؤرخون المذكورون توجيه أحاديث النبي (ص) نحوها.

فلا يبقى والحالة هذه إلّا أن نعود إلى حقيقة المضامين التي قصدها رسول الله (ص) في أحاديثه وأقواله الشريفة دون التواء أو تزييف.[١]

٤ ـ أسماء الأئمة من خلال النصوص الشريفة

ولم يكتف رسول الله (ص) بذكر أوصيائه أئمة الهدى بعده بصيغة إجمالية، وإنما أتم الحجة على الأمة بذكر أسمائهم صراحة في مناسبة وأخرى، وفي الأحاديث القدسية وأحاديث النبي (ص) نصوص صريحة كثيرة، تصرّح بأسماء الأوصياء بعد النبي (ص) أجمعين نورد منها ما يلي:

١ ـ أخبرني أبو المفضل محمد بن عبدالله بن المطلب الشيباني بأسناده إلى مجاهد إلى ابن عباس (والحديث طويل نأخذ منه موضع الحاجة). قال يهودي في حوار له مع رسول الله (ص): «فأخبرني عن وصيك من هو؟ فما من نبي إلّا وله وصي، وإن نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون.

فقال (ع): إن وصيي والخليفة من بعدي علي بن أبي طالب وبعده

---

(١) استفدنا من كتاب معالم المدرستين، للعلّامة المحقق السيد مرتضى العسكري، ١ : ٣٣٣، وما بعدها، ودلائل الصدق، ٢ : ٣١٤ ـ ٣١٩ للشيخ محمد حسن المظفر، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

سبطاي: الحسن والحسين، تتلوهم تسعة من صلب الحسين، أئمة أبرار.

قال: يا محمد فسمِّهم لي.

قال (ص): إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى فابنه محمد، فإذا مضى فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فبعده ابنه الحجة بن الحسن بن علي، فهذه اثنا عشر إماماً عدد نقباء بني إسرائيل»[١].

٢ ـ حديث الشيخ أبو القاسم علي بن محمد بن علي الخزاز الرازي بأسناده إلى النبي (ص) عن عبدالله بن العباس قال: «دخلت على النبي (ص) والحسن على عاتقه والحسين على فخذه يلثمهما ويقبلهما ويقول: اللهم والِ من والاهما وعادِ من عاداهما، ثم قال: يا ابن عباس، كأني به وقد خضبت شيبته من دمه يدعو فلا يجاب ويستنصر فلا يُنصر.

قلت: فمن يفعل يا رسول الله؟

قال: شرار أمتي، ما لهم لا أنالهم الله شفاعتي، ثمّ قال: يا ابن عباس، من زاره عارفاً بحقه كتب له ثواب ألف حجة وألف عمرة، ألا ومن زاره فكأنما زارني، ومن زارني فكأنما زار الله. وحق الزائر على الله أن لا

---

(١) كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر للشيخ أبي القاسم علي بن محمد الخزاز القمي الرازي من علماء القرن الرابع، ص ١٣ ـ ١٤، ط قم، كما رواه الحافظ سليمان القندوزي، الحنفي في ينابيع المودة عن مجاهد عن ابن عباس، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

يعذبه بالنار. ألا وإن الإجابة تحت قبته، والشفاء في تربته والأئمة من ولده.

قلت: يا رسول الله، فكم الأئمة بعدك؟

قال: بعدد حواري عيسى، وأسباط موسى، ونقباء بني إسرائيل.

قلت: يا رسول الله، فكم كانوا؟

قال: كانوا اثني عشر، أولهم علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، فإذا انقضى الحسين فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه محمد، فإذا انقضى محمد فابنه جعفر، فإذا انقضى جعفر فابنه موسى، فإذا انقضى موسى فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه محمد، فإذا انقضى محمد فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه الحسن، فإذا انقضى الحسن فابنه الحجّة.

قال ابن عباس: فقلت: يا رسول الله، أسامي لم أسمع بهن قط، قال لي: يا ابن عباس، هم الأئمة بعدي، وإن قهروا، أُمناء معصومون، نجباء أخيار، يا ابن عباس، من أتى يوم القيامة عارفاً بحقهم أخذت بيده، فأدخلته الجنّة، يا ابن عباس، من أنكرهم أو ردّ واحداً منهم، فكأنما قد أنكرني، وردني، ومن أنكرني، وردني، فكأنما أنكر الله ورده.

يا ابن عباس، سوف يأخذ الناس يميناً وشمالاً، فإذا كان كذلك فاتبع عليّاً وحزبه، فإنه مع الحق والحق معه، ولا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض، يا ابن عباس، ولايتهم ولايتي، وولايتي ولاية الله، وحربهم حربي وحربي حرب الله، وسلمهم سلمي وسلمي سلم الله.

ثمّ قال: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويـأبىٰ الله إلّا أن يتمّ

نوره ولو كره الكافرون ﴾[١].

٣ ـ عن واثلة بن الأصقع بن قرحاب عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: «دخل جندل بن جنادة بن جبير اليهودي على رسول الله (ص) (الحديث طويل نأخذ منه موضع الحاجة) ثمّ قال: أخبرني يا رسول الله عن أوصيائك من بعدك لأتمسك بهم، قال: أوصيائي الاثنا عشر.

قال جندل: هكذا وجدناهم في التوراة، وقال: يا رسول الله، سمِّهم لي فقال: أولهم سيد الأوصياء أبو الأئمة عليّ، ثمّ ابناه الحسن والحسين فاستمسك بهم ولا يغرنّك جهل الجاهلين، فإذا ولد علي بن الحسين زين العابدين يقضي الله عليك، ويكون آخر زادك من الدنيا شربة لبن تشربه» فقال جندل: وجدنا في التوراة وفي كتب الأنبياء (ع) إيليا وشبراً وشبيراً فهذه اسم علي والحسن والحسين، فمن بعد الحسين وما أساميهم؟ قال: «إذا انقضت مدة الحسين فالإمام ابنه علي ويلقب بزين العابدين، فبعده ابنه محمد يلقّب بالباقر، فبعده ابنه جعفر يدعى الصادق، فبعده ابنه موسى يدعى بالكاظم، فبعده ابنه علي يدعى بالرضا، فبعده ابنه محمد يدعى بالتقي والزكي، فبعده ابنه علي يدعى بالنقي والهادي، فبعده ابنه الحسن يدعى بالعسكري، فبعده ابنه محمد يدعى بالمهدي والقائم والحجة، فيغيب، ثم يخرج، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً، وعدلاً

(١) كفايه الأثر للشيخ أبي القاسم علي بن محمد بن علي الخزاز القمي الرازي، من علماء القرن الرابع، ص ١٦ ـ ١٩. سورة التوبة، ٣٢.

كما ملئت جوراً وظلماً، طوبىٰ للصابرين في غيبته، طوبىٰ للمقيمين على محبتهم، اولئك الذين وصفهم الله في كتابه، وقال: ﴿هدىً للمتّقين * الّذين يؤمنون بالغيب﴾ ثمّ قال تعالى: ﴿أُولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم الغالبون﴾ فقال جندل: الحمد لله الذي وفقني لمعرفتهم»[(١)].

٤ ـ أخرج الموفق بن أحمد المكي الحنفي أخطب خوارزم بإسناده قال رسول الله (ص): «أنا واردكم على الحوض، وأنت يا علي الساقي، والحسن الذائد والحسين الآمر، وعلي بن الحسين الفارط، ومحمد بن علي الناشر، وجعفر بن محمد السائق، وموسى بن جعفر محصي المحبين والمبغضين وقامع المنافقين، وعلي بن موسى مزين المؤمنين، ومحمد بن علي منزل أهل الجنّة درجاتهم، وعلي بن محمد خطيب شيعته ومزوّجهم الحور العين، والحسن بن علي سراج أهل الجنة يستضيئون به، والمهدي شفيعهم يوم القيامة حيث لا يأذن الله إلّا لمن يشاء ويرضى»[(٢)].

٥ ـ روى الحر العاملي بأسناده، والكليني في الكافي والشيخ الصدوق في عيون الأخبار والشيخ الطوسي في مجالسه، وغيرهم ما

---

(١) ينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (١٢٢٠ ـ ١٢٩٤ هـ) ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي أخطب خوارزم، ت ٥٦٨، ج ١، و ج ٢، ص ٩٤، ط قم، وأورده السيد بن طاووس الحلّي في طرائفه، ص ١٧٤.

يلي، واللفظ للكليني الرازي محمد بن يعقوب (رحمه الله) بسنده عن أبي عبدالله الصادق (ع) قال: «قال أبي لجابر بن عبدالله الأنصاري: إن لي إليك حاجة فمتى يخف عليك أن أخلوا بك أسألك عنها؟ قال له جابر: أي الأوقات أحببت، فخلا به في بعض الأيام، فقال له: يا جابر، أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يد أُمي فاطمة بنت رسول الله (ص)، وما أخبرتك به أُمي أنه في ذلك اللوح مكتوب، فقال جابر: أشهد بالله أني دخلت على أُمك فاطمة بنت رسول الله (ص)، فهنيتها بولادة الحسين (ع)، ورأيت في يدها لوحاً أخضر فظننت أنه من زمرد، ورأيت فيه كتاباً أبيض شبه نور الشمس، فقلت: بأبي وأُمي يا بنت رسول الله ما هذا اللوح؟ فقالت: هذا اللوح أهداه الله إلى رسول الله (ص)، وفيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني واسم الأوصياء من ولدي، وأعطانيه أبي ليبشرني بذلك. قال جابر: فأعطتنيه أُمك فاطمة، فقرأته واستنسخته، فقال له أبي: فهل لك يا جابر أن تعرضه عليَّ؟ فمشىٰ معه أبي إلى منزل جابر، فأخرج صحيفة من رق، فقال: يا جابر، انظر في كتابك، لأقرأ عليك، فنظر جابر في نسخته فقرأه أبي، فما خالف حرف حرفاً، فقال جابر: أشهد أني هكذا رأيته في اللوح مكتوب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد نبيه، ونوره، وسفيره، وحجابه، ودليله، نزل به الروح الأمين من عند ربّ العالمين: عظّم يا محمد أسمائي، وأشكر نعمائي، ولا تجحد آلائي، إني أنا الله لا إله إلّا أنا قاصم الجبارين، ومديل المظلومين، وديان الدين، إني أنا الله لا إله إلّا

أنا، فمن رجا غير فضلي، أو خاف غير عدلي عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فإياي فأعبد. وعليَّ فتوكل، إني لم أبعث نبياً، فأكملت أيامه، وانقضت مدته إلّا جعلت له وصياً، فضلتك على الأنبياء وفضلت وصيك على الأوصياء وأكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين، فجعلت حسناً معدن علمي بعد انقضاء مدة أبيه، وجعلت حسيناً خازن وحيي وأكرمته بالشهادة وختمت له بالسعادة، فهو أفضل من استشهد، وأرفع الشهداء درجة، جعلت كلمتي التامة معه، وحجتي البالغة عنده، بعترته أثيب وأعاقب، أولهم علي سيد العابدين وزين أوليائي الماضين، وابنه شبه جده المحمود، محمد الباقر علمي والمعدن لحكمتي، سيهلك المرتابون في جعفر، الراد عليه كالراد عليَّ، حق القول منّي لأكرِمنَّ مثوى جعفر، ولأسرنَّه في أشياعه وأنصاره وأوليائه، أتيحت بعده موسى، فتنة عمياء حندس، لأن خيط فرضي لا ينقطع وحجتي لا تخفى، وإن أوليائي يسقون بالكأس الأوفىٰ، من جحد واحداً منهم فقد جحد نعمتي، ومن غيّر آية من كتابي فقد افترىٰ عليَّ، ويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدة موسى، عبدي وحبيبي وخيرتي في علي وليي وناصري، ومن أضعُ عليه أعباء النبوّة وأمتحنه بالاضطلاع بها، يقتله عفريت مستكبر، يدفن في المدينة التي بناها العبد الصالح(١) إلى جنب شر خلقي، حق القول منّي لأسرنه بمحمد ابنه وخليفته من بعده ووارث علمه، فهو معدن علمي وموضع سري وحجتي على خلقي، لا

---

(١) هو ذو القرنين لأن طوس من بنائه كما صرح به في رواية النعماني لهذا الخبر.

يؤمن عبد به إلّا جعلت الجنّة مثواه، وشفّعته في سبعين من أهل بيته، كلّهم قد استوجبوا النار، وأختم بالسعادة لابنه علي وليي وناصري، والشاهد على خلقي وأميني على وحيي، أُخرج منه الداعي إلى سبيلي، والخازن لعلمي الحسن، وأُكمل ذلك بابنه «م ح م د» رحمة للعالمين، عليه كمال موسى، وبهاء عيسى وصبر أيوب، فيذل أوليائي في زمانه، وتتهادىٰ رؤوسهم كما تتهادىٰ رؤوس الترك، والديلم، فيقتلون، ويحرقون، ويكونون خائفين مرعوبين وجلين، تصبغ الأرض بدمائهم، ويفشو الويل والرنة في نسائهم، اولئك أوليائي حقاً، بهم أدفع كل فتنة عمياء حندس، وبهم أكشف الزلازل وأدفع الآصار والأغلال، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون.

قال عبدالرحمن بن سالم: قال أبو بصير: لو لم تسمع في دهرك، إلّا هذا الحديث لكفاك، فصنه إلّا عن أهله»[1].

هذا، ومن الجدير ذكره أنه رغم ادعاء البعض أن بعضاً من هذه الأحاديث ضعيف سنداً، فإن صحة البعض الآخر وسلامته متناً وسنداً، وكثرة هذه الأحاديث وروايتها بأسانيد شتىٰ، يقوي بعضها بعضاً ولا يخدش في متانة حجتها على العباد أبداً، وهذا منطق علماء الرواية، ورواة الحديث.

---

(١) الأصول من الكافي لثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، ١ : ٥٢٧ ـ ٥٢٨، ورواه الحر العاملي في الجواهر السنية، ٢٠١ ـ ٢٠٤، ورواه الشيخ الصدوق بأسناده في عيون أخبار الرضا بطرق عديدة، ٤٠ ـ ٦٩، وغيرهم.

ومن المناسب هنا أن نذكر أسماء أوصياء النبي الخاتم (ص) واحداً بعد الآخر:

١ ـ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي.

٢ ـ سبط النبي الحسن بن علي بن أبي طالب.

٣ ـ سبط النبي الحسين بن علي بن أبي طالب.

٤ ـ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين.

٥ ـ محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالباقر.

٦ ـ جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالصادق.

٧ ـ موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالكاظم.

٨ ـ علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالرضا.

٩ ـ محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالجواد.

١٠ ـ علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالهادي.

١١ ـ الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالعسكري.

١٢ ـ محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالمهدي وهو إمام وقتنا هذا الذي جعله الله حجة على عباده..

٥ ـ أدلة تنزيلية صريحة بولاية العترة الطاهرة بعد النبي (ص)

ولأهمية الدور الذي ينهض به أئمة الحق بعد النبي (ص)، فقد أخذ ربّ العالمين جلّ وعلا على نفسه أن يبلغ المسلمين بأسمائهم وفق خطة تعليمية عالية، ترتفع إلى مستوى إدراكها القلوب الذكية.

وقد اهتم القرآن الكريم باسلوبه المميّز بتكريس هذه الحقيقة في عدد من آياته المباركة، كما اهتم الحديث القدسي وحديث رسول الله (ص) ـ مبلغ عن الله عزّوجلّ ـ بذلك.

ولنأخذ واحدة من الآيات الكريمة التي تعمق خط الإمامة بعد النبي الخاتم (ص):

قال الله تعالى شأنه: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون**﴾ [1].

فقد نزلت هذه الآية الكريمة مؤكدة أن الذين يلون أمر الناس، ويتصرفون بشؤونهم دون سواهم هم: الله جلّ جلاله الذي بيده الخلق والأمر، ثمّ رسول الله (ص)، ثمّ علي بن أبي طالب (ع)، وحزب الله من

---

(١) المائدة، ٥٥ ـ ٥٦.

البشر هم الواقفون تحت رايته دون سواهم، وهم الذين يتولون الله ورسوله وعلي بن أبي طالب.

بقي أن تتوضح مسألتان اثنتان هما:

أ ـ ما الدليل على أن المراد بالذين آمنوا هو علي (ع)، مع أن اللفظة تفيد الجمع ظاهراً؟

ب ـ وما الدليل على أن المراد بالولي هنا هو الذي يلي أمر الناس، ويتصرف في شؤونهم دون غيره، مع أن لفظ الولي لفظ مشترك يحتمل عدة معان؟

وحول المسألة الأولى: نقول: إن نزول الآية في علي بن أبي طالب (ع) أمر مفروغ منه، فقد أجمع المفسرون على أن سائلاً دخل مسجد النبي (ص)، يسأل المسلمين سدَّ فاقته، فأشار علي (ع) للسائل أن ينتزع خاتمه من اصبعه وهو في حالة ركوع، فانتزع السائل خاتم علي (ع) من إصبعه، وهكذا تصدق الإمام (ع) وهو راكع، فنزلت آية الولاية.(١)

(١) تراجع المصادر التالية: صحيح النسائي، أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، والبيضاوي في تفسيره، والطبرسي في تفسيره، وأبو البركات النسفي في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، والنيسابوري في تفسيره، والشبلنجي في نور الأبصار، وابن حجر في صواعقه المحرقة، وأخطب خوارزم الموفق ابن أحمد الحنفي في المناقب، وأعيان الشيعة للسيد الأمين، ج ٢، ق ١، ص ١٣٠، والجمع بين الصحاح الستة في تفسير سورة المائدة، والإمام القوشجي في مبحث الإمامة من شرح التجريد، وغيرهم.

على أن الحادثة المذكورة تحمل معها تفصيلات تباين المفسرون والمؤرخون في نقلها نذكر منها ما يلي:

أخرج الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعلبي، المتوفىٰ عام ٣٣٧ هـ في تفسيره الكبير، عند تفسير هذه الآية بإسناده، إلى أبي ذر الغفاري (رحمه الله) ما يلي:

قال: «سمعت رسول الله (ص) بهاتين وإلّا صُمّتا، ورأيته بهاتين وإلّا عميتا، يقول: علي قائد البررة وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله، أما إني صليت مع رسول الله (ص) ذات يوم، فسأل سائل في المسجد فلم يعطِه أحد شيئاً، وكان علي راكعاً فأومأ بخنصره إليه، وكان يتختم بها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، فتضرع النبي (ص) إلى الله عزّوجلّ يدعوه فقال: **اللّهم إن أخي موسى سألك ﴿قال ربِّ اشرح لي صدري * ويسّر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * أشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً﴾ فأوحيت إليه ﴿قد اوتيتَ سؤلك يا موسى﴾ اللّهم وإني عبدك ونبيك فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أشدد به ظهري.** قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله (ص) الكلمة حتى هبط عليه الأمين جبرائيل بهذه الآية **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم**

الغالبون﴾[١].

أما ما أُشكل حول لفظ (الذين آمنوا) بأنها تطلق على الجمع، فإن اللغة العربية قد ألفت هذا اللون من الإطلاق، فكثيراً ما يطلق لفظ الجمع ويراد به المفرد، تعظيماً لشأن المفرد المذكور، أو تهويلاً لفعله، وفي الكتاب العزيز مصاديق كثيرة لهذه الحالة، نذكر منها:

قال تعالى: **﴿الّذين قال لهم النّاس إن النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**[٢].

فبإجماع المفسرين أن القائل هو نعيم بن مسعود الأشجعي دون غيره، فأطلق الله عزّوجلّ عليه لفظ الناس مع أنه رجل واحد.[٣]

وقال تعالى: **﴿يا أيها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم...﴾**[٤].

وكان الذي بسط يده ليفتك بالنبي (ص) رجلاً واحداً.[٥]

وفي آية المباهلة ما يفيد هذا المعنى: **﴿.. قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾**[٦].

---

(١) المصدر المذكور نقلاً عن المراجعات للسيد شرف الدين بأسناده: ١٦١.

(٢) آل عمران، ١٧٣.

(٣) تفسير السيد عبدالله شبّر، ١٠٤، وبقية التفاسير.

(٤) المائدة، ١١.

(٥) تفسير مجمع البيان، ٦: ١٦٩.

(٦) آل عمران، ٦١.

فقد عبر القرآن بلفظ الجمع عن النساء، مع أن الحاضر من النساء في مباهلة النبي (ص) للنصارى، كانت فاطمة بنت رسول الله (ص) دون سواها.(١)

ب ـ أما كون لفظ الولي مشتركاً فهو صحيح من حيث المبدأ، حيث ترد كلمة الولي بمعنى: المحب، والصديق، والنصير، والحليف، والأَولى بالتصرف، كالحاكم الشرعي، وولي القاصر، وولي المرأة، وغير ذلك، إلّا أن القرائن تفيد أن لفظ الولي في آية الولاية ليس المحب ولا النصير ولا الصديق، ولا أمثال ذلك، وإنما قصدت الآية من الولاية التي حصرتها لله تعالى، ولرسوله (ص)، ولعليّ (ع) دون سواهم هي ولاية شؤون المسلمين والتصرف بأمورهم وليس سوى ذلك.(٢)

فإن النصرة والمحبة والصداقة غير مقصورة على أحد من المؤمنين والمسلمين دون أحد، يقول الله تعالى متحدثاً عن ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، وهي ولاية المحبة والنصرة: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...﴾(٣).

ولذا فإنه بعد تقرير الله تعالى لحالة المودة والنصرة، بين عموم

---

(١) يراجع تفسير الزمخشري، الكاشف، ١ : ٣٦٨، كما يراجع الفخر الرازي، وصحيح مسلم، ومسند أحمد، وغيرهم.

(٢) بحث شيخ الطائفة المرحوم أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (رض) هذا الموضوع من الناحية اللغوية، في ضوء آراء فقهاء اللغة، فليراجع تلخيص الشافي، ٢ : ١٨٢ ـ ٢٠٥.

(٣) التوبة، ٧١.

المؤمنين في آياته وتعليماته، فليس من المعقول أن نفسر آية الولاية بهذا المعنى، لا سيما وإن مطلع الآية قد ارتبط بأداة الحصر (إنما)، ممّا يجعل من غير المناسب في منهج القرآن الكريم ـ وهو معجزة بيانية ـ أن يستعمل أداة الحصر ثمّ يقصد شيئاً بعد إيرادها قد شاءه لعموم المسلمين.

إن مجرد الاحتمال من هذا القبيل يسيء لبلاغة القرآن الكريم ومقاصده الرسالية معاً.

هذا ومن الجدير ذكره أن بعض الأحاديث الشريفة التي حملت لفظ (الولي) تؤكد ما ذهبنا إليه:

فقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن سعيد بن جبير عن بريدة قال: «غزوت مع علي اليمن، فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله (ص) ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله يتغيّر، فقال: يا بريدة، ألست أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه»[١].

وهناك كثير من الأحاديث الشريفة تباشر هذه العملية المباركة، وتجاهر بها!

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٣ : ١١٠، والذهبي في تلخيصه لصحيح مسلم، وصححاه على شرط مسلم، وأخرجه ابن المغازلي الشافعي في مناقبه بعدة طرق معتبرة، ١٦ ـ ٢٦.

٦ ـ كيف يتلقىٰ الأئمة العلم الإلهي؟

الأئمة من آل محمد (ص)، ورثة النبي (ص) في علومه ومعارفه، وحملة سره وأهدافه، وقد أشار رسول الله (ص) إلى هذه الحقيقة، من خلال جملة من أحاديثه الشريفة:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه»(١).

«قسمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي علي تسعة أجزاء، والناس جزءاً واحداً، وهو أعلم بالعشر الباقي»(٢).

وهذه المعرفة الربانية المميّزة، التي حملها الأئمة من أهل البيت (ع) يفرضها حجم المسؤولية التاريخية، التي ينهض الأئمة (ع) بعد النبي (ص) بها في الأمة والرسالة، وقد أشرنا إلى أبعاد هذه المهام الرسالية في بداية الحديث عن مهمة الإمام (ع).

فإذا قدر أنهم لم يحملوا ما حمله النبي (ص) من معارف ربانية شاملة، فلا يتسنىٰ لهم أن ينهضوا بأعباء الخلافة له (ص) في أبعادها الحقيقية أبداً.

ومن أجل هذا وذلك، فإن الأئمة (ع) كشفوا عن مصادر المعرفة التي أُتيحت لهم بإذن الله تعالى ومشيئته، فأوضحوا أن لعلومهم

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير، ١ : ٣٦٤، وأخرجه ابن المغازلي الشافعي في عدة طرق في مناقب علي بن أبي طالب (ع)، ٨٠ ـ ٨٥.

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه، وأحمد بن حنبل في مسنده، والحاكم في المستدرك.

مصدرين اثنين:

أ ـ الوراثة المباشرة عن النبي (ص)، حيث ورثوا علماً مكتوباً بإملاء رسول الله (ص)، وخط علي بن أبي طالب (ع)، فقد تحدث الإمام أبو عبدالله الصادق (ع)، وهو سادس أئمة أهل البيت (ع)، حول هذا الموضوع، حيث أخرج الكليني (رحمه الله) بأسناده عن أبي بصير (رحمه الله) قال: «دخلت على أبي عبدالله (ع) فقلت له: جعلت فداك، إني أسألك عن مسألة.ها هنا أحد يسمع كلامي؟ قال: فرفع أبو عبدالله (ع) ستراً بينه وبين بيت آخر، فأطلع فيه ثمّ قال: يا أبا محمد، سل عمّا بدا لك. قال: قلت: جعلت فداك، إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله (ص)، علَّم عليّاً (ع) باباً يفتح له منه ألف باب، قال: فقال: يا أبا محمد، علَّم رسول الله (ص) عليّاً (ع) ألف باب، يفتح من كل باب ألف باب. قلت: هذا والله العلم، قال: فنكت ساعة في الأرض ثمّ قال: إنه لعلم وماهو بذاك. قال: ثمّ قال: يا أبا محمد، وإن عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة؟ قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله (ص)، وإملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش، وضرب بيده إليَّ فقال: تأذن لي يا أبا محمد؟قال: قلت: جعلت فداك، إنما أنا لك فاصنع ما شئت، قال: فغمزني بيده وقال: حتى أرش هذا ـ كأنه مغضب ـ قال: قلت هذا والله العلم»[١].

---

(١) الأصول من الكافي لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني

ب ـ الإلهام الإلهي: أما العلوم المستجدة، فإن الأئمة من أهل البيت (ع) يلهمونها إلهاماً، ولا نبي بعد محمد (ص)، وقد تحدثوا عن هـذه الظاهرة مراراً، فقال الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم (ع): «مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماضٍ وغابر وحادث، فأما الماضي فمفسر، وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الاسماع، وهو أفضل علمنا، ولا نبي بعد نبينا»[١].

وسئل أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق (ع): «أخبرني عن علم عالمكم؟ قال: قلت: إنّا نتحدث أنه يقذف في قـلوبكم، ويـنكت فـي آذانكم، قال: أَوَ ذاك»[٢].

وروى الكليني عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) قال: «سألته عن علم العالم، فقال لي: يا جابر، إن في الأنـبياء والأوصـياء خـمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوة، وروح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العـرش إلى مـا تـحت الثرىٰ، ثمّ قال: يا جابر، إن هذه الأربعة أرواح يصيبها الحَدَثان، إلّا روح القدس، فإنها لا تلهو ولا تلعب»[٣].

⇐ الرازي (رض)، ج ١، الطبعة الثالثة، ص ٢٣٩. الأرش: الغرامة.

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٤. الغابر: الآتي. والمزبور: المكتوب. القذف والنقر: يعني الإلهام وحديث الملك.

(٢) نفس المصدر، ١ : ٢٦٤. أو ذاك: يكون ذا ويكون ذاك.

(٣) أصول الكافي، ١ : ٢٧٢.

٧ـ المسؤولية تجاه الأئمة (ع)

لم تكتف التعاليم الإلهية بإيضاح موقع الأئمة من آل البيت (ع)، في إطار هذا الدين الإلهي الخاتم، وإنما حددت مكانتهم، ومسؤولية الأمة عبر التاريخ تجاههم في آن واحد. وقد جاء تحديد المسؤولية الرسالية تجاه الأئمة (ع)، من خلال توجيهات وأوامر إلهية أو رسولية، وردت في مناسبات مختلفة وفي صور وأُطر متعددة، نذكر منها ما يلي أمثلةً لا للحصر:

١ ـ آية الولاية: ﴿**إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾[(١)].

فقد ذكرنا في الصفحات السابقة، أن هذه الآية المباركة إنما حصرت ولاية أمر الناس بالله ورسوله وعلي بن أبي طالب دون سواهم، وقد ألقينا الضوء على عوامل استخدام القرآن الكريم للفظة «الذين آمنوا» وما يشابهها من ألفاظ، على أن بعضاً من العلماء من ذوي البصائر، قد رجّح أيضاً أن يكون استعمال لفظ «الذين آمنوا»، قد أراد الله عزّوجلّ من خلاله أن يوحي إلى القلوب الحيّة، أن هناك عدداً من الأولياء سيفرض الله تعالى طاعتهم بعد علي (ع)، وأنهم من صلبه المبارك صلوات الله عليه، وهكذا فإن آية الولاية بقدر ما ترسي قواعد ولاية علي وأولاده (ع)، بعد النبي (ص)، فإنها ترسي قواعد وجوب

---

(١) آل عمران، ٦١.

التمسك بهم، والخضوع لطاعتهم والانقياد لهم.

٢ ـ حديث الغدير: قال رسول الله (ص): **«من كنت مولاه فعلي مولاه...»**[(١)]، فهذا الحديث الصحيح الذي رواه جمهور المحدثين والرواة، من مختلف طبقات الأمة على اختلاف مشاربهم، يكشف بوضوح أن من كان مولاه رسول الله (ص)، في التشريع والتنفيذ والهدى والسلوك، فمولاه علي بن أبي طالب (ع) في كل ذلك، ومن كان مقتداه الرسول (ص)، فإن علي بن أبي طالب (ع) مقتداه بعده في الفكر والعمل.

٣ ـ حديث السفينة: قال رسول الله (ص): **«مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»**[(٢)].

٤ ـ قال رسول الله (ص): **«علي منّي وأنا منه، ولا يؤدي عنّي إلّا علي»**[(٣)].

هذا ومن الجدير ذكره أن القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف، تنطوي على مئات النصوص الكريمة التي تحدد المسؤولية الشرعية،

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ١ : ١١٩، ومجمع الزوائد للهيثمي، ٩ : ١١، والسيوطي في الدّر المنثور، ٣ : ٩، وغيرها.

(٢) الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، ٢ : ٣٤٣، وقال حديث صحيح على شرط مسلم، والهيثمي في مجمع الزوائد، ٩ : ١٧١، والسيوطي في إحياء الميت: ٤٨، حديث ٢٧، وابن حجر في الصواعق.

(٣) سنن ابن ماجة، ج ١، حديث ١١٩ (المقدمة)، ومسند أحمد، ٤ : ١٦٥، مثله، وابن حجر في الصواعق، ص ٨٨، باب ٩، فص ٢، حديث ٦.

تجاه الأئمة من آل النبي (ص)، كحديث الأمان، وحديث المؤاخاة، وحديث مدينة العلم، وحديث حب علي (ع)، وآية أُولي الأمر ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأُولي الأمر منكم﴾، وآية ﴿إنما أنت منذر ولكلّ قوم هاد﴾ وغيرها.

تقويم لمنهج دراسات حياة الأئمة (ع)

إن هذه المحاور المركزية للمنهج الذي يدرس الأئمة، من خلال البناء التحتي لمواقعهم في دنيا الرسالة والأمة، هو الذي يعكس واقع الإمامة، وحقيقة الأئمة (ع)، ومهامهم، وأهدافهم، ويحدد مسؤولية الأمة تجاههم عبر التاريخ.

على أن الملاحظ أن هذا المنهج لم يكن شاملاً في استيعابه للمطلوب، إذ لم يتناول إلّا النادر من الفضائل الظاهرية للأئمة (ع)، كما فعل الشيخ الكليني (رحمه الله) الذي أشار إشارات عابرة إلى مصاديق من البعد المعرفي عند الأئمة (ع)، في أبواب متعددة من الكافي[(١)]، وكما فعل في إشاراته إلى ملبس الإمام (ع) ومطعمه إذا ولي الأمر[(٢)]، فضلاً عن اهتماماته في مواليد الأئمة (ع) ووفياتهم.[(٣)]

وقد اهتم الحر العاملي (رحمه الله) في «إثبات الهداة بالنصوص

---

(١) المجلد الأول منه.

(٢) ن.م: ٤١٠.

(٣) أنظر أبواب التاريخ منه، ٤٣٩ وما بعدها.

والمعجزات» مثلاً بإبراز عدد هائل من كرامات الأئمة (ع) ومعاجزهم[١]، وقد فعل المحدثون من العلماء الآخرين ما يشبه ذلك، كما فعل أبو جعفر محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات، والشيخ الصدوق في «كمال الدين وتمام النعمة»، والفيض الكاشاني في «علم اليقين»، وغيرهم.

صحيح أن «الفضائل الباطنية» ـ في مصطلح علماء الأخلاق ـ هي التي تميز مكانة الإمام (ع) على غيره، إلّا أن استعراض الفضائل الظاهرية للأئمة (ع) إلى جانب الأُولى، حاجة ضرورية لدارسي السيرة وللباحثين عن القدوة، إضافة إلى أن السيرة العملية للأئمة (ع) تشكل ثقافة شعبية يتأمل بها الناس، ويلتمسون حقائق التطبيق لمفاهيم الدين من خلالها، سواء أكانت في مجال التطبيق في حقل النشاط الفردي، أو في مجالات العلاقات الاجتماعية وسواها.

وهكذا فإن المنهج الأفضل لدراسة حياة الأئمة (ع)، أن تجري عملية تلفيقية بين المنهجين، ولقد حاول المرحوم السيد هاشم البحراني (توفي عام ١١٠٩ هـ) أن يتبنى منهجاً وسطاً بين المنهجين، غير أنه لم يكن موفقاً في مهمته بشكل تام، وذلك في كتابه «حلية الأبرار» ولعل السيد ابن طاووس الحلي (رحمه الله) (توفي عام ٦٦٤ هـ) قد كان على هذا الطريق في كتابه «الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف»، والأخيران تناولا موقع أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

---

(١) أبواب المعاجز من الكتاب المذكور.

دون سواه من الأئمة (ع).

على أن أفضل تلك المؤلفات كان كتاب السيد هاشم البحراني (رحمه الله)، لأن منحاه كان أقرب للجمع بين المنهجين، لولا إيجازه الشديد لمواضيع الفضائل الباطنية للأئمة (ع)، غير أن المرحوم الفقيه والمؤرخ السيد محسن الأمين العاملي (رحمه الله)، وهو من المعاصرين، قد وفق توفيقاً منقطع النظير في مشروع كتاباته عن سيرة الإمام علي (ع)[١]، فقد قطع العالم المذكور شوطاً بعيداً في الجمع بين المنهجين اللذين تحدثنا عنهما، وخرج بمنهجية مناسبة لمقام أئمة أهل البيت (ع) ومكانتهم في دنيا الإسلام والمسلمين، إلّا أن طريقته لم تكن شاملة هي الأخرى، وإن كان أفضل من كتب في هذا الباب من ناحية التوفيق بين المنهجين.

هذا ويمكن أن يعلل ظهور المنهجين المذكورين، إلى أن أصحاب الاتجاه الأول قد اهتموا بالسيرة العملية للأئمة (ع) بالدرجة الأُولى، فكانت مؤلفاتهم أقرب إلى المناهج التاريخية، أو الدراسات الرجالية العادية.

وكان اتجاه أصحاب المنهج الآخر قد انصب على إبراز القضية العقائدية ـ أي قضية الإمامة ـ دون غيرها، أي إبراز موقع الإمام (ع) في الرسالة والمسؤولية تجاهه (ع) من قبل الأمة.

على أن المنهج الأفضل لدراسة الأئمة (ع) ـ كما ألمحنا ـ ومعرفة

---

(١) أنظر كتابه القيم (في رحاب أئمة أهل البيت (ع)، ج ١ وج ٢).

موقعهم من قبل الأمة، والمسؤولية تجاههم هو الذي يحدد مكانة كل إمام (ع) في الرسالة، وموقعه من خلال النصوص الصريحة، إضافة إلى سيرته العملية، لأن الدراسة السليمة للأئمة إذا لم تلاحظ هذا المنهج المتصور ستواجه مشكلتين:

المشكلة الأُولى: أن بعض حقائق سيرة البعض من الأئمة (ع) لا يمكن أن تدرك إلّا بفهم الوضع التحتي لها، كسيرة الإمام محمد بن علي الجواد (ع)، الذي آتاه الله الحكم صبياً ـ كما نعلم ـ لأننا لا نستطيع أن ندرك أن نشاطاته العلمية العظيمة، مثلاً، كانت ممكنة لصبي في سنه (ثماني سنوات) إذا لم نفهم حقيقة الإمام، وواقع الإمامة التي آتاه الله تعالى إياها بعد وفاة أبيه علي بن موسى الرضا (ع).

والمشكلة الثانية: أن الاكتفاء بالسيرة العملية لبعض الأئمة (ع) ـ خصوصاً من واجهوا ظروفاً تاريخية قاسية ـ لا تكشف موقعاً مميزاً للإمام (ع) بين الخلق، ولذا نلاحظ أن الإمام علي بن الحسين السجاد (ع) ينبِّه إلى جزء هام من هذه الحقيقة، في الحديث الذي أورده الشيخ الصدوق (رحمه الله) مسنداً عن مولانا الكاظم (ع) عن أبيه عن جده عن السجاد (ع) قال:

«الإمام منّا لا يكون إلّا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلق فيعرف بها، ولذلك لا يكون إلّا منصوصاً، فقيل له: يا ابن رسول الله، فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن، لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عزّوجلّ ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي

أقوم ﴾[١].

وحيث إن المرحلة التي تعيشها الأمة اليوم وغداً تتطلب أن تعرف منابع الخير فيها، وأن تدرك المنهل الذي ترده، لتكون مسيرة الصحوة الإسلامية التي تهز العالم اليوم صحيحة البناء، سليمة الخط، لذا فـإن مما ينبعي أن يفعله المخلصون للحق أن يرشدوا الأمة إلى مصادر الخير والنور فيها بعد رسـول الله (ص)، وهـم عـلي وأولاده الأئـمة الهـداة المعصومون (ع)، وهذا لا يتم إلّا بتبيان مواقع الأئمة التـي أهـلهم الله تعالى لها، إضافة لسيرتهم العملية المطهرة، وبالله التوفيق.

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

---

(١) معاني الأخبار للشيخ الصدوق، باب مـعنى عـصمة الإمـام، ١٣٢، كـما أورده الفيض الكاشاني في (علم اليقين في أصول الدين) ١ : ٣٧٧ / الإسراء، ٩.

المرأة التي زوّجها الله تعالى

«دراسة وثائقية»

مدخل

من خلال متابعات طويلة للسيرة الموروثة المدونة لفاطمة الزهراء بنت رسول الله محمد بن عبدالله (ص)، لاحظت أن المعلومات والروايات والأحداث المدونة حول تلك السيرة مرتبكة جداً، حتى يصل الارتباك عند المؤرخين ورواة السنن إلى حد التناقض والغموض والإساءة.

وقد اتضح لي من خلال المطالعة لتلك المعلومات الموروثة، أن من الأسباب الرئيسة لهذا التناقض هو طريقة الجمع العشوائي لكل ما ورد من معلومات حول هذه السيرة الطاهرة، مادام يحتمل فيه أصحاب هذه الطريقة أنهم يدوّنون فضيلة لأهل بيت النبوّة، وحيث إن هذه الطريقة لم تعتمد ضوابط ـ كما يبدو ـ لما يجمع أو يدوّن، أو ما يستبعد، لهذا جاءت بعض المعلومات عبئاً ثقيلاً على السيرة، يحتاج إلى جهد كبير لكي يماط عن طريق الباحث المنصف. وقد لاحظت أن كثيراً من المعلومات السيئة قد وردت لكتب السيرة أو السنة المتعلقة بأهل البيت (ع)، بواسطة رواة غلاة، أو رواة توفيقيين في خطهم الفكري، فهم يجمعون فضائل أهل البيت (ع)،مع ما نسج من «فضائل» مزعومة لخصومهم في فترات تاريخية مختلفة ـ خصوصاً ما وضعته السياسة أيام الأمويين والعباسيين ـ دون تمييز أو معيار علمي للفصل بين الغث والسمين.

ولقد لاحظت أن العامل الرئيس للتناقض في المعلومات الواردة حول سيرة الصدّيقة المباركة، فاطمة الزهراء (ع) ـ مثلاً ـ في كتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة للمرحوم أبي الفتح الإربلي المتوفي عام ٦٩٣ هـ، وكتاب بحارالأنوار ج ٤٣ للشيخ محمد باقر المجلسي (رحمه الله) المتوفىٰ عام ١١١١ هـ، وغيرهما، إنما يعود أساساً لجمع الروايات من أي مصدر جاءت طالما فيها ذكر لآل البيت (ع) لا يعلن ذلك المصدر العداوة لهم، دون تحقيق في السند، ولا المتن لتلك المعلومات.

إن هذه الدراسة المنصبّة على موضوع اقتران أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصّلاة والسّلام بسيدة نساء العالمين فاطمة بنت الرسول (ص)، لا يهمها أساساً دراسة وعرض تفاصيل ذلك الاقتران المبارك، بقدر ما يهمها أن توفر رؤية صحيحة حول كيفية التعامل مع المعلومات الواردة في السيرة والسنة حول هذا الموضوع؛ لتكون بين أيدي الباحثين في سيرة الزهراء (ع) منهجية سليمة لدراسة السيرة المطهرة يقبلها الشرع والعقل والواقع.

لذا فإن هذه التجربة التي نضعها بين أيدي القراء الكرام، إنما هي أقرب للمنهجية العلمية لدراسة السيرة، بدلاً عن السرد التاريخي المعلوماتي لمجرد الوقائع لسيرة الصدّيقة الزهراء صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها.

الصحابة يخطبون فاطمة الزهراء (ع)

أدرك صحابة رسول الله (ص) المقام الرفيع الذي بلغته الزهراء (ع) في دنيا الرسالة، فتباروا لخطبتها من أبيها طلباً للشرف ورغبة في الكرامة، وحرصاً على التقرّب من رسول الله (ص) وخير خلقه. بيد أن رسول الله (ص) كان يشيح بوجهه الكريم عمن يخطبها من صحابته، معلناً أن أمرها ليس بيده هو، وإنما أمرها إلى الله عزّوجلّ.

ومن الجدير بالذكر أن تاريخ الإنسان لم يحدثنا أن امرأة تولى الله تزويجها دون ولي أمرها، غير فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) ـ كما سيتضح من النصوص بعد قليل ـ، فلأول مرة في التاريخ الإنساني نجد أن الله عزّوجلّ يتدخّل في شأن تزويج امرأة من رجل، فأي دلالة ـ يا ترى ـ ترسمه هذه الحقيقة العظمى على صفحة الوجود وتاريخ الإنسان؟ ثم إن الآثار الصحيحة تؤكد أن زواج فاطمة من علي بن أبي طالب (ع)، قد أُحكمت حلقاته وأُعلن للملأ الأعلى قبل عالم الأرض، وفي عالم الغيب قبل عالم الشهادة ـ كما سنرى ـ.

لقد اهتم صحابة النبي (ص) بشأن فاطمة بنت النبي (ص)، وبالغوا في متابعة أمر خطبتها من أبيها رسول الله (ص)، حتى بدا من بعض الصحابة فظاظة وسوء أدب في ذلك.

فقد حدّث عبدالله بن بريدة حول ذلك بما يلي فقال: «خطب أبو بكر فاطمة، فقال رسول الله (ص): **إنها صغيرة، وإني أنتظر بها القضاء**، فلقيه، عمر فأخبره، فقال: ردك! ثم خطبها عمر، فرده، ثم قال: **إن الله**

أمرني أن أزوج علياً فاطمة...»[١].

ودخل عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان على رسول الله (ص) مرة، فقال عبدالرحمن: يا رسول الله، تزوجني فاطمة ابنتك وقد بذلت لها من الصداق مئة ناقة، وعشرة آلاف دينار؟

وقال عثمان: أنا أبذل ذلك، وأنا أقدم من عبدالرحمن اسلاماً، فغضب رسول الله (ص) من مقالتهما، فتناول كفاً من الحصىٰ فحصب به عبدالرحمن[٢]؛ تعبيراً عن غضبه، واشمئزازه من الطريقة التي عرضا بها الموضوع، بعيداً عن اللياقة، والأسلوب المناسب المتبع في مثل هذه المناسبات.

الله يزوج عليّاً بالزهراء

ولقد أجمعت مصادر المسلمين المختلفة على أن الله عزّوجلّ قد

---

(١) رواه في تذكرة الخواص، العلّامة سبط ابن الجوزي المتوفىٰ عام ٦٥٤ هـ، ص ٢٧٦، ط بيروت، ١٩٨١ م (من علماء الحنفية، له مؤلفات كثيرة، منها شرح الجامع الكبير ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان وغيرها) وروى هذا الحديث عن أنس بن مالك محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري في ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص ٢٩ ـ ٣٠، ط العراق، ١٩٦٧ م، بأسناده. ورواه كثيرون (المحب الطبري شيخ الشافعية في الحجاز توفي عام ٦٩٤ هـ، له مؤلفات كثيرة منها الرياض النضرة في فضائل العشرة، وكتاب السمط الثمين في فضائل أمهات المؤمنين).

(٢) أنظر الاصابة للعسقلاني، ٤ : ٣٦٥.

تولىٰ تزويج فاطمة الزهراء (ع) من علي بن أبي طالب (ع) ـ كما أشرنا ـ، حتى رسول الله (ص) أبوها لم يكن مأذوناً له أن يتدخل في شأن تزويجها، حتى تلقىٰ الأمر الإلهي الخاص بتزويجها بعليّ (ع).

ومن أجل ذلك فإن رسول الله (ص)، كان يصرح لصحابته مراراً كلما ذكروا فاطمة (ع): «**إن أمرها إلى ربّها**» و «**أنتظر بها القضاء**» وما إلى ذلك من ألفاظ معبرة عن أن حق اختيار الزوج لفاطمة (ع) إنما هو منوط بالله عزّوجلّ وحده، ولم يفوض حتى للرسول (ص) بذلك رغم عظمته، وجلالته، وقربه من الله تعالى، وعلاقته الأبوية بابنته فاطمة (ع).

وهذه نُتف من النصوص الشريفة نقطفها من بين عشرات النصوص التي تتناول هذا الموضوع بصراحة لا يشوبها شك.

ـ عن أنس بن مالك قال: «بينما رسول الله (ص) في المسجد، إذ قال لعلي: **هذا جبريل يخبرني أن الله زوجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك...**»(١).

ـ وأخرج ابن المعازلي الشافعي بأسانيده عن جابر قال: «لما تزوج علي فاطمة، زوجه الله إياها من فوق سبع سموات...»(٢).

---

(١) أخرجه المحب الطبري في ذخائر العقبى، ٣٢، وقال: «أخرجه الملّا في سيرته»، كما أخرج أحاديث أخرى، راجع ص ٢٩ ـ ٣٣.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب، الفقيه الحافظ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد ⇐

ـ وأخرج ابن المغازلي بأسانيده حديثاً جاء فيه: «فقال النبي (ص): ما زوجت فاطمة من علي، ولكن الله زوجها عند شجرة طوبىٰ...»[(١)].

ـ وروى الكليني عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن معروف، عن ابن مهزيار عن مخلّد بن موسى، عن إبراهيم بن علي، عن علي بن يحيى اليربوعي، عن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر (ع) قال: «قال رسول الله (ص): إنما أنا بشر مثلكم أتزوج فيكم وأزوجكم، إلّا فاطمة، فإنّ تزويجها نزل من السماء»[(٢)].

ـ وحدث الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق المتوفى عام ٣٨١ هـ، بأسناده عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن آبائه الطاهرين عن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال: «لقد هممت بتزويج فاطمة (ع) ابنة محمد (ص) حيناً، ولم أتجرأ أن أذكر للنبي (ص)، وإن ذلك اختلج في صدري ليلي ونهاري حتى دخلت على رسول الله (ص) فقال: يا علي، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: هل لك في التزويج؟ قلت: رسول الله (ص) أعلم وإذا هو يريد أن يزوجني بعض نساء قريش، وإني لخائف على فوت فاطمة، فما شعرت

⇐ الواسطي الشافعي، الشهير بابن المغازلي المتوفىٰ عام ٤٨٣ هـ، ص ٢٤٣. تراجع مصادر الحديث عن الخطيب البغدادي والخوارزمي وأبي نعيم وغيرهم في هامش الصفحة، ط طهران.

(١) المصدر نفسه: ٣٤٤، وتراجع مصادره في هامش الصفحة المذكورة.

(٢) بحارالأنوار، للعلّامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ) ٤٣ : ١٤٥، ط ٣، بيروت ١٩٨٣ م. ورواه الشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه، ٣: ٢٤٩.

بشيء إذ أتاني رسول رسول الله (ص) فقال لي: أجب النبي واسرع، فما رأينا رسول الله أشد فرحاً منه اليوم. قال: فأتيته مسرعاً فإذا هو في حجرة أم سلمة، فلما نظر إليَّ تهلل وجهه فرحاً وتبسم حتى نظرت إلى بياض أسنانه يبرق، فقال: أبشر يا علي؛ فإن الله عزّوجلّ قد كفاني ما قد كان همّني من أمر تزويجك، فقلت وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: أتاني جبرئيل ومعه من سنبل الجنة وقرنفلها، فناولنيهما فأخذتهما وشممتهما، فقلت: ما سبب هذا السنبل والقرنفل؟ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى أمر سكان الجنان من الملائكة ومن فيها أن يزينوا الجنان كلّها بمغارسها وأشجارها وثمارها وقصورها، وأمر ريحها فهبت بأنواع العطر والطيب، وأمر حور عينها بالقراءة فيها بسورة طه وطور ويس وحمعسق، ثمّ نادى مناد من تحت العرش: ألا إن اليوم يوم وليمة علي بن أبي طالب (ع). ألا إني أشهدكم أني قد زوّجت فاطمة بنت محمد (ص) من علي بن أبي طالب رضى منّي بعضهما لبعض، ثم بعث الله تبارك وتعالى سحابة بيضاء فقطرت عليهم من لؤلؤها وزبرجدها ويواقيتها، وقامت الملائكة فنثرت من سنبل الجنة وقرنفلها هذا مما نثرت الملائكة، ثم أمر الله تبارك وتعالى ملكاً من ملائكة الجنة يقال له راحيل، وليس في الملائكة أبلغ منه، فقال: اخطب يا راحيل، فخطب بخطبة لم يسمع بمثلها أهل السماء ولا أهل الأرض، ثم نادى منادٍ: ألا يا ملائكتي وسكان جنتي، باركوا على علي بن أبي طالب (ع) حبيب محمد (ص) وفاطمة بنت محمد، فقد باركت عليهما، ألا إني زوّجت أحبَّ النساء إليَّ من أحب الرجال إليَّ بعد النبيين والمرسلين، فقال راحيل الملك: يا رب؛

وما بركتك فيهما بأكثر مما رأينا لهما في جنانك ودارك؟ فقال عزّوجلّ: يا راحيل، إن من بركتي عليهما أن أجمعهما على محبتي، وأجعلهما حجة على خلقي. وعزتي وجلالي، لأخلقن منهما خلقاً، ولأنشئن منهما ذرية أجعلهم خزّاني في أرضي، ومعادن لعلمي، ودعاة إلى ديني، بهم أحتجّ على خلقي بعد النبيين والمرسلين، فأبشر يا علي فإن الله عزّوجلّ أكرمك كرامة لم يكرم بمثلها أحداً، وقد زوّجتك ابنتي فاطمة على ما زوّجك الرحمن، وقد رضيت لها بما رضي الله لها، فدونك أهلك فإنك أحق بها منّي، ولقد أخبرني جبرئيل أن الجنة مشتاقة إليكما. ولو أن الله عزّوجلّ قدر أن يخرج منكما ما يتخذه على الخلق حجة، لأجاب فيكما الجنة وأهلها. فنعم الأخ أنت، ونعم الختن أنت، ونعم الصاحب أنت، وكفاك برضا الله رضىً. قال علي (ع): فقلت: يا رسول الله، بلغ من قدري حتى أني ذكرت في الجنة. وزوّجني الله في ملائكته، فقال الرسول (ص): إنّ الله عزّوجلّ إذا أكرم وليه وأحبه، أكرمه بما لا عين رأيت ولا أُذن سمعت فأحباها الله لك يا علي، فقال علي (ع): ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ، فقال رسول الله (ص): آمين»[١].

وفي هذا المضمون وردت نصوص أصيلة عن المعصوم عليه الصلاة والسلام لا تكاد تحصى لكثرتها.[٢]

---

(١) راجع أمالي الصدوق: ٤٤٨، المجلس ٨٣، ح ١، ط ٥، بيروت.

(٢) يراجع ابن المغازلي الشافعي في مناقبه، باب تزويج فاطمة بعلي (ع)، ⇐

اعلان الزواج في عالم الملكوت

قد لا يروق للبعض من محدودي النظرة أن يجري الحديث عن مجريات عالم الغيب والملكوت؛ بسبب عجز أدوات الحس الظاهرية للإنسان عن إدراكه، والإلمام به، أو تصوره، تأثراً بالتربية المعاصرة التي تستبعد الغيب، وما يجري فيه عن المعرفة، والاهتمام الفكري.

ودع عنك ما يجنح إليه الذين لا يعلمون من الحياة إلّا قشرتها الظاهرية أو بعضها ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (١).

فالإسلام الحنيف، وعموم أديان السماء، إنما تستمد معارفها الأساسية من الوحي الإلهي والاتصال بعالم الغيب، إما بتلقي الرسول (ص) من الله العلي الأعلى عزّوجلّ مباشرة، أو بواسطة الملك الموكل بذلك من قبل الله عزّوجلّ، أو نحو ذلك ـ وفي ذلك تفصيل ـ. وقد وردت مجموعة من النصوص الشريفة عن المعصوم (ع) توضح طريق حصول الرسل (ع) على المعرفة، وكيفية تلقيهم لتلك المعرفة القطعية المباركة.

⇐ وبحارالأنوار للشيخ محمد باقر المجلسي (رض)، المجلد ٤٣، وذخائر العقبىٰ للمحب الطبري، باب ذكر أن تزويج فاطمة عليّاً كان بأمر الله عزّوجلّ ووحي منه، وغيرها من المصادر المعتبرة عند المسلمين.

(١) الروم. ٧.

فقد ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ما رواه عبيد بن زُرارة، عن أبيه، قال: «قلت لأبي عبدالله (ع): جعلت فداك، الغشية التي كانت تصيب رسول الله (ص) إذا أُنزل عليه الوحي فقال: ذاك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد. ذاك إذا تجلى الله له. قال: ثم قال: تلك النبوّة يا زُرارة، وأقبل يتخشع»(١).

وهكذا فإن من أوّليات هذا الدين السماوي الخالد اهتمامه بالغيب وشؤونه، من معرفة الله عزّوجلّ، وصفاته الحسنىٰ، والجنة والنار، والحساب، والصراط، والحشر، والبعث، والملائكة، والجن، والحور، والزقوم، وما إلى ذلك من أمور ومجريات.

ومعرفة هذه الحقائق إنما يكون بالتلقي عن الله عزّوجلّ، فهي أمور لا تخضع للمقاييس المادية المألوفة، ولذا فإن أهم محاور الأديان السماوية إنما هي أمور غيبية استوعبها المؤمنون، وآمنوا بها عن طريق سفراء الله تعالى في عباده.

وهكذا فإن في سيرة الأنبياء والأئمة الصادقين من آل الرسول

---

(١) يحتمل أن يكون «أقبل» فعل ماض من الإقبال، وضميره يرجع إلى الإمام (ع)، أي وأقبل إلى الله تعالى حين التكلم بهذا الكلام بحالة التخشع والخضوع، وفي نسخ (د) و (ب) و (و) «يتخشع» على صيغة المضارع، ويحتمل أن يكون فعل أمر من القبول خطاباً لزرارة، أي وأقبل ما قلت لك بقلبك بتخشع وخضوع، إلّا أنه لا يناسب رواية «يتخشع»، وفي نسخة (خ) وحاشية نسخة (و) «وقال بتخشع»، أي وقال زرارة بتخشع الإمام (ع) حين التكلم بهذا الكلام. راجع التوحيد، الشيخ الصدوق، ١١٥، ح ١٥، والهامش نقلناه من المصدر، ط قم، ١٣٩٨ هـ.

عليهم الصلاة والسلام أحداثاً، وأوضاعاً لا يمكن ادراكها إلّا بالإخبار المباشر من المعصوم (ع)، فإذا كان الإخبار وارداً عن المعصومين (ع) بأسانيد صحيحة، فليس أمام المؤمنين إلّا التسليم بصحة وقوع تلك الأحداث المغيبة عن حواس البشر، وقدراتهم العادية: ﴿**الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون**﴾(١).

ومن هذه الأحداث ما نحن الآن بصدده، فقد ورد في سيرة الصدّيقة فاطمة بنت رسول الله (ص) مجموعة من النصوص الشريفة الصحيحة في سندها، حيث أوردها الصادقون من الرواة عن الصادقين من آل البيت (ع) وصحابة النبي (ص)، بعضها يتعلق بتشكيل نطفتها أساساً، وبعضها يتعلق بتكليمها أمها وهي في بطنها، وبعضها تتحدث عن كونها بتولاً لا ترى دماً كماترى النساء أثناء الحيض والنفاس وما إلى ذلك، وغير ذلك من أمور، فكيف يتعامل المسلم مع هذه النصوص، التي تبلغ في متانتها وقوتها من ناحية السند كقوة النصوص المتعلقة بشؤون الفرائض أحياناً؟(٢).

ونذكر على سبيل المثال هنا مسألة احتفاء عالم الملكوت بتزويج

---

(١) البقرة، ١ ـ ٣.

(٢) راجع إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، للمرحوم المحدث الحر العاملي (رض)، مقدمة المجلد الأول حول طبيعة الأحاديث الواردة بخصوص معاجز النبي والأئمة من أهل البيت (ع).

علي بن أبي طالب (ع) من فاطمة بنت النبي (ص)، قبل احتفاء عالم الشهادة بذلك، حتى ورد في السيرة المطهرة أن بين تزويج فاطمة بعلي (ع) في عالم الغيب، وتزويجها في عالم الشهادة أربعين يوماً.[١]

لقد ذكرت السيرة المطهرة جملة نصوص تحكي قصة ذاك الاحتفاء الغيبي المشهود، الذي باشرته الملائكة والحور وغيرها ابتهاجاً بذلك الاقتران المبارك، الذي كانت الرسالة والدعوة والأرض تنتظره ليحقق أمل خاتم النبيين (ص)، وهدف رسالته الخاتمة.

فعن الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري (رض) عن رسول الله (ص) قال: «**إن الله جعل ذرية كل نبي من صلبه، وإن الله عزّ وعلا، جعل ذرية محمد من صلب علي بن أبي طالب (ع)**»[٢].

ويقول رسول الله (ص): «**كل بني أم ينتمون إلى عصبتهم، إلّا ولد فاطمة، فإني أنا أبوهم، وعصبتهم**»[٣].

---

(١) بحارالأنوار، ٤٣ : ١١، ط بيروت، ١٩٨٣ م.

(٢) ابن المغازلي في مناقبه، ٤٩، بأسانيده، وقال: «أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وابن حجر في الصواعق المحرقة، والخطيب البغدادي في تاريخه والذهبي في ميزان الاعتدال وغيرهم».

(٣) أورده النبهاني في الشرف المؤبد، ٥١، ط بيروت، ١٣٠٩ هـ، وقال صاحب اسعاف الراغبين الشيخ عبدالمؤمن الإصبهاني الشافعي: «إن هذه الخصوصية لأولاد فاطمة (ع) فقط دون أولاد بقية أبنائه (ص)، أنه أب لهم، وأنهم بنوه، كما يطلق ذلك على أولاد فاطمة (ع)، نعم يطلق عليهم أنهم من ذريته ونسله وعقبه» هذا وقد روى الحديث الطبراني وغيره بأسانيدهم.

فإن هذا الاقتران الميمون كان أمل النبي (ص؛ لأنه سيثمر الامتداد الطبيعي لخاتم النبيين (ص)، حيث الذرية المباركة ذرية رسول الله (ص) التي تملأ الدنيا خيراً وبركة وخصباً.

فمن الجدير بالذكر أن رسول الله (ص) قد فقد ذريته المباركة كلها دون فاطمة (ع)، وهم دون سن البلوغ؛ إذ لم يبقَ له غير فاطمة الزهراء (ع)، التي كانت أمله، وروحه التي بين جنبيه. وقد وصفها (ص) بـأُم أبيها، وبضعته، وريحانته، والمطهرة من الرجس، وسيدة نساء العالمين (ع).[1]

فجعل الله عزّوجلّ منها ومن علي بن أبي طالب بعلها، الكوثر الذي حباه الله تعالى لمحمد بن عبدالله (ص)، سيد رسله، وخاتم الانبياء، وهو في أوضح معانيه وأعلاها: (الذرية النبوية الصالحة) غرس النبوة من علي وفاطمة عليهما الصلاة والسلام.

ومن هنا فليس من الغرابة في شيء بعد هذه الحقيقة المجسدة، أن يحتفي الملأ الأعلى وسكان الجنان بهذا الاقتران العظيم، الذي يعقد الهدى والخير آماله عليه، حيث كان علي وفاطمة (ع) مصدر الخير والبركة في هذه الأرض بعد رسول الله (ص).

وهذه بعض النصوص الكريمة التي حفظتها السنة الشريفة، وهي تروي قصة الابتهاج الكبير الذي شهده عالم الملائكة والجنان.

حدّث العلّامة ابن المغازلي الشافعي بإسناده عن جابر بن عبدالله

---

(١) في كل هذه النعوت وغيرها نصوص صريحة وصحيحة.

الأنصاري[١] قال: «لما زوج النبي (ص) علياً من فاطمة أتت قريش فقالوا: يا رسول الله، زوّجت فاطمة علياً بمهر خسيس! فقال النبي (ص): ما زوجت فاطمة من علي، ولكن الله زوّجها عند شجرة طوبى، وحضر تزويجها الملائكة، وأمر الله شجرة طوبى لتنثرين ما عليك من الثمار، فنثرت الدرّ والياقوت والزبرجد الأخضر، وابتدر الحور العين يلتقطن، فهنّ يتهادين ويتفاخرنَ به إلى يوم القيامة، ويقُلن: هذا من نثار فاطمة بنت رسول الله (ص)».

وأخرج الحافظ المحب الطبري[٢] في ذخائر العقبى عن أنس بن مالك (رض) قال: «بينما رسول الله (ص) في المسجد إذ قال لعلي: هذا جبريل يخبرني أن الله زوّجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثري عليهم الدر والياقوت، فنثرت عليهم الدر والياقوت، فابتدرت إليه الحور العين يلتقطن في اطباق الدر والياقوت، فهم يتهادونه بينهم إلى يوم القيامة» وقال: «أخرجه الملّا في سيرته».

وأخرج الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي بسنده عن سنان بن شفعلة الأنصاري، قال: «حدثنا رسول الله (ص) قال: حدثني جبرائيل أن الله لما زوّج فاطمة علياً، أمر رضوان بهز شجرة طوبى، فحملت رقاقاً بعدد محبي أهل بيت محمد» وقال: «ورواه الحافظ ابن

---

(١) المناقب، ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق، ٣٢.

مردويه»[١].

إن هذه النصوص الكريمة، وعشرات غيرها مما حملته أسفار قديمة وحديثة، من قبيل مناقب علي بن أبي طالب (ع) للعلّامة الفقيه الحافظ أبي الحسن علي بن محمد بن محمد الواسطي الجلّابي الشافعي المعروف بابن المغازلي، المتوفىٰ عام ٤٨٣ هـ، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى للحافظ محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري شيخ الشافعية، ومحدث الحجاز المتوفى عام ٦٩٤ هـ، وينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي من علماء الحنفية المتوفىٰ عام ١٢٩٤ هـ، وكشف الغمة في معرفة الأئمة للعلّامة أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي المتوفىٰ عام ٦٩٣ هـ، وبحارالأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار للمحدث العلّامة الشيخ محمد باقر المجلسي المتوفىٰ عام ١١١١ هـ، وغيرهم.

ومن الجدير بالذكر أن افهام البشر في هذا العالم عاجزة عن الإحاطة بتفاصيل ما يجري في عالم الغيب، وأن النصوص الكريمة التي تتناول مجريات عالم الغيب تقدم صورة تقريبية للواقع الحقيقي في ذلك العالم بمفردات يفهمها البشر، وإلّا فإن الناس في عالم الشهادة ليس بوسعهم إدراك حقيقة شجرة طوبى، ولا ماهية رضوان، ولا

---

(١) ينابيع المودة، ١٧٧، ط ٨، ١٩٦٦. والحافظ القندوزي من أعلام المذهب الحنفي، توفي عام ١٢٩٤ هـ.

الحور، ولا الملائكة، وكيف احتفلت في هذا الأمر أو غير ذلك من أمور.

تسلل الافتراء

لقد أسهب الرواة والمحدثون في مجريات الأمور، التي اكتنفت عملية تزويج علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام من فاطمة بنت النبي (ص)، حتى بدا شيء من التناقض في بعض الأحداث التفصيلية. وهاكَ أمثلة حول ذلك:

١ ـ فقد حدث البعض أن الصحابة حين تسابقوا لخطبة فاطمة الزهراء (ع)، وكلهم يرجون نيل الشرف والكرامة، ولم يجدوا غير الإعراض من النبي (ص)، وإبلاغهم أن أمرها إلى الله تعالى وليس إلى النبي (ص) ذاته ـ كما أشرنا ـ، قرر جماعة من الصحابة، فيهم أبو بكر وعمر، أن يتسارعوا إلى علي (ع)، ويطلبوا منه أن يخطبها من رسول الله (ص)، فالتفت إلى شيء كان عنه غافلاً ـ كما تصوره الرواية ـ فذهب لخطبتها، وتم الزواج حينذاك.[١]

وهذه الرواية فيها خلل واضح، نكشف عنه بالعبارات الآتية:

أ ـ من المقطوع به أن الرسول (ص) أبلغ خاطبيها جميعاً بأن أمر زواج فاطمة موكول إلى الله تعالى، فكان واضح من حديثه المتكرر بعدة مضامين، أن التكليف هو الانتظار، وليس من حق أحد أن يتدخل

---

(١) راجع الرواية في البحار، ج ٤٣، ص ١٢٤ ـ ١٣٥.

في هذا الموضوع الرباني، ولذا فإقحام الصحابة أنفسهم، واسراعهم إلى علي (ع) بعد اعراض النبي (ص) عنهم، لا مبرر له أصلاً، مادام الصحابة قد بُلّغوا بالتكليف الشرعي الخاص بهذه القضية، لذا فلا صحة لما يقال ان الصحابة دفعوا علياً (ع)، فحققوا بذلك مكسبا كبيراً بإقناع رسول الله (ص)، حيث زاره علي (ع)، وحدثه بذلك الأمر بطريقة مقتضبة خجولة ـ كما تصور الرواية المذكورة ـ.

ب ـ إن هذا الطرح يريد أن يعكس حالة من التوافق بين حركة هؤلاء الصحابة، وارادة الله سبحانه، فإنهم حسب مضمون هذا الخبر تحركوا فجاء الأمر الرباني بالتزويج[١] موافقاً لحركتهم المزعومة.

ولذا فالمقصود أن هذا المقطع المتعلق بالصحابة لا أساس له من الصحة.

٢ ـ إن تلك الرواية تصححها الروايات الصحيحة الواردة عن رسول الله (ص)، والتي تنطق بالحق كرواية أنس بن مالك التي قال فيها: «بينما رسول الله (ص) في المسجد إذ قال لعلي: هذا جبريل يخبرني أن الله زوّجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك...»[٢]

---

(١) أنظر تاريخ الخلفاء / جلال الدين السيوطي «توفي عام ٩١١ هـ» فصل «موافقات عمر»، ص ١٢٢، وسنن الترمذي، باب مناقب عمر، ج ١٣، ص ١٤٣، وج ٥، ص ٢٨.

(٢) أخرجه محب الدين الطبري في ذخائر العقبى، ٣٢، وبين ص ٢٩ وص ٣٣ منه أحاديث أخرى.

وغيرها كثير.

وقد حدّث بعض أن جارية لعليٍّ (ع)، هي التي حرّضته على خطبة فاطمة (ع)، فخطبها، فقد حدّث مجاهد، عن علي (ع) قال: «خطبت فاطمة إلى رسول الله (ص)، فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خُطبت إلى رسول الله (ص)، قلت: لا، قالت: فقد خُطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله (ص) فيزوّجك؟ فقلت: وهل عندي شيء أتزوّج به؟ فقالت: إنك إن جئت إلى رسول الله (ص) زوّجك. فوالله مازالت ترجّيني حتى دخلت على رسول الله (ص)، وكانت له جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أُفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلّم، فقال: ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكتّ، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ قلت: نعم. قال: فهل عندك من شيء تستحلّها به؟ قلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلتْ الدرع التي سلّحتكها؟ فقلت: عندي، والذي نفسي بيده إنها لحُطمية ما ثمنها إلّا أربعمائة درهم. قال: زوّجتكها فابعث بها، فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله (ص)»[١].

وهذه الرواية ـ كما ترىٰ ـ تصر على استبعاد أمر الله تعالى في تزويج الزهراء (ع)، إضافة إلى ابراز حالة الفاقة المزعومة التي تُلصق بعلي (ع) عن قصد باستمرار، حتى بلغ الحال ببعض الرواة أن ادعوا زوراً أن عثمان بن عفان الأموي قد تبرع لعلي (ع) بمهر فاطمة

---

(١) كشف الغمة، ١ : ٣٥٨، والبحار، ٤٣ : ١٣٦، نقلاً عن مناقب الخوارزمي.

(ع).[١]

على أن هذه الرواية والرواية السابقة ورواية عبدالله بن بريدة[٢] عن أبيه، التي تذكر أن نفراً من الأنصار حرض علياً (ع) على التماس فاطمة من رسول الله (ص)، وغيرها من الروايات، كلها حريصة على اظهار علي (ع) ضعيفاً لا رأي له، فمرة توجّهه جارية، ومرة نفر من الأنصار، ومرة نفر من المهاجرين. فما عليك إلّا أن تقرأ الأهداف السياسية التي تختفي وراء هذه الروايات.

هذا ويلاحظ في هذه الروايات وأمثالها أن في سندها رواة منحرفين عن أهل البيت (ع)، فلا يرجىٰ في رواياتهم عدل ولا صدق.

وأقل ما يقال في أكثر اولئك أنهم يعقدون قلوبهم على التولّي لأهل البيت (ع) دون البراءة من خصومهم، وأعدائهم، ومن هنا فليس عجباً أن نجد بعض المحدثين وأصحاب السنن يبذلون جهداً كبيراً لتسطير بعض فضائل أهل البيت (ع)، وإلى جانبها فضائل افتعلتها السياسة لخصومهم الفكريين أو السياسيين.[٣]

---

(١) لاحظ رواية المناقب المروية في كشف الغمة، ١ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩، وتروىٰ كذلك في البحار، ٤٣ : ١٣٠.

(٢) أخرجه الطبراني، ٢ : ٤، والبزار، وابن سعد، ٨ : ٢١، وأحمد في مسنده، وغيرهم.

(٣) ومن هذه النماذج أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي المتوفىٰ عام ٥٦٨ هـ، صاحب كتاب مقتل الحسين (ع)، ومناقب علي بن أبي طالب (ع)، ومناقب أبي حنيفة. وهو من علماء الحنفية، ومثله صاحب ذخائر العقبى، وصاحب تذكرة الخواص ⇐

على أن من المؤسف حقاً أن تتسلل هـذه الروايـات إلى مـؤلفات علماء مدرسة أهل البيت (ع)، بسبب حالة الحرص على جمع أكـبر قدر من الروايات التي يشم منها رائحة فضائل أهل البـيت (ع)، دون تحقيق لأسانيدها ومتونها، لذا دخلت في مؤلفات بعض هؤلاء العلماء أحاديث كثيرة أهل البيت (ع) والمؤمنون في غنىً عنها.

ولقد بلغ ببعض المؤلفين أن أذابوا مؤلفات بأكملها في مؤلفاتهم[١]؛ توخياً لتحقيق ذلك الهدف المرجو، خصوصاً كتب المناقب التي نالها كثير من العبث على أيدي وعاظ السلاطين، الذين اندسوا عبر مراحل التاريخ في صفوف العلماء والرواة والمحدثين والمفسرين وغيرهم.

وقد تبلغ الحالة أن الوضع يكون أحياناً بتزييف كلمات من روايـة صحيحة فتسيء إلى مرماها، أو تضاف كلمات هنا أو تحذف أخـرى هناك، الأمر الذي يمثل أسوأ عمليات الوضع في الحديث النبوي، عن طريق ابتداع أحاديث لم يتفوه بها رسول الله (ص) فكـل ذلك وضـع وتقوّل على الله تعالى ورسوله (ص).

ولو كان هدفنا التحقيق في الروايات، لوقفنا على العناصر المزيفة التي لعبت دوراً قذراً فـي تشـويه الأحـاديث الصـحيحة، أو اخـتلاق سواها، ولكن هدفنا هنا الإشارة والتنبيه للقارئ الكريم.

⟸ وأمثالهم، ممن نقل عنهم العلّامة أبو الفتح الإربلي في كشف الغمة، والشيخ المجلسي في بحارالأنوار، وغيرهما مباشرة أو بالواسطة.

(١) لاحظ كشف الغمة في معرفة الأئمة، ١ : ٣٥٧ ـ ٣٥٨، والبحار، ج ٤٣، وغيرهما.

هل خطب علي فاطمة (ع) ؟

من تتبع واعٍ للوثائق التي تتناول سيرة الزهراء عليها الصلاة والسلام، خصوصاً ما يتعلق من تلك الوثائق بأمر اقترانها بأميرالمؤمنين علي عليه الصلاة والسلام، تبرز جملة حقائق نوجزها بهذه الكلمات:

١ ـ إن أمر اقتران فاطمة (ع) شأن إلهي، ودور رسول الله بشأنها كان دور انتظار وترقب، كما تؤكد ذلك عشرات النصوص الصريحة[١]، وقد ذكرنا مصاديق منها.

٢ ـ لقد تعرض العديد من رجال قريش وشخصيات الصحابة لخطبتها من رسول الله (ص)، حتى وجدوا الصدود وعدم الرضا على وجهه، حتى لقد ظن بعضهم أنه قد هلك لأنه تسبب في أغضاب النبي (ص) وازعاجه، كما هو المشهور عن أبي بكر مثلاً، حيث قال بعد أن رده الرسول (ص) وأعرض عنه: «هلكت، وأهلكت»[٢].

فكان اليأس قد استبد بهم[٣]، وشاع لدى الصحابة أن رسول الله (ص) ينتظر بها أمر الله عزّوجلّ، كما ورد عن عمر، وهو يحدث صاحه

---

(١) لاحظ ينابيع المودة، القندوزي الحنفي، وبحارالأنوار، ج ٤٣، وذخائر العقبى لمحب الدين الطبري، وغيرهم.

(٢) ابن المغازلي، ح ٣٩٩.

(٣) كشف الغمة، ١ : ٣٥٩.

أبا بكر بعد أن أعرض رسول الله (ص) عن خطبته للزهراء (ع).[١]

وحيث بلغ الحال أن الرسول (ص) قد حصب عبدالرحمن بن عوف بالحصىٰ تبرماً وصدوداً عن الإلحاح في هذه المسألة، فقد أصبح واضحاً لدى صحابة النبي (ص) أن هذا الأمر يرتبط بالمشيئة الإلهية، وهي التي تختار لفاطمة (ع) ما تشاء.

٣ ـ تحاول بعض الروايات أن تصوّر علياً (ع) كما لو كان أحد الذين سعوا لخطبة فاطمة بنت النبي (ص)، بعد تحفيز من جاريته، أو من الصحابيين أبي بكر وعمر، أو من بعض الأنصار، فلبىٰ رسول الله (ص) طلبه، وشفع ذلك بقوله: إن الله أمره بتزويجه؛ من أجل أن تطفف هذه الروايات من المكانة الرفيعة التي بلغها علي وفاطمة عليهما الصلاة والسلام.

وليس من المستبعد أن تكون أمثال هذه الروايات تهدف أساساً إلى التشكيك بإعلان النبي (ص)، أن الله تعالى هو الذي زوَّج علياً من فاطمة؛ وذلك لأن قطاعاً من الصحابة يشككون بقيمة الأحاديث النبوية أساساً، ويشيعون في الناس أن رسول الله (ص) يتكلّم في الرضا والغضب، أي يتأثر بوضعه النفسي، فيقول في رضاه غير الذي يقوله في غضبه.

فقد حدّث عبدالله بن عمرو بن العاص فقال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله (ص)، فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كل شيء

(١) نفس المصدر والحديث السابق.

سمعته من رسول الله (ص)، ورسول الله بشر يتكلّم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ باصبعه إلى فيه، وقال: **اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلّا حق»**[١].

٤ ـ ومن مجموع ما مضى، إضافة إلى النظر الفاحص الدقيق في مسيرة الأحداث، التي رافقت عملية اقتران علي بفاطمة عليها الصلاة والسلام، وما دار حولها من روايات كثيرة متضاربة، علاوة على اصرار النبي (ص) على ارساء مفهوم أن أمر اقتران فاطمة (ع) إلى الله تعالى، لا إلى أحد من العباد، نصل إلى القطع أن علي بن أبي طالب (ع) لم يتقدم لخطبة الزهراء (ع) من أبيها رسول الله (ص) على الإطلاق، وإنما أبلغه رسول الله (ص) بأمر الله عزّوجلّ، بشأن ارتضائها له زوجة وشريكة حياة، فما كان من علي (ع) إلّا أن سلّم لأمر الله تعالى، وكان شأن فاطمة كشأن علي (ع) في التسليم لأمر الله وقضائه، وفي ذلك نصوص كثيرة جداً، نذكر منها ما يلي:

١ ـ روى ابن المغازلي بأسناده[٢] عن جابر بن عبدالله قال: **«دخلت أُم أيمن على النبي (ص) وهي تبكي، فقال لها النبي (ص): ما يُبكيك لا أبكىٰ الله عينك؟ قالت: بكيت يا رسول الله لأني دخلت منزل**

(١) سنن الدارمي، ١ : ١٢٥، باب من رخّص في الكتابة، وسنن أبي داود، ٢ : ١٢٦، باب كتابة العلم، ومسند أحمد بن حنبل، ٢ : ١٦٢، و ١٩٢، و ٢٠٧، و ٢١٥، مستدرك الحاكم، ١ : ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) المناقب، ٣٤١.

رجل من الأنصار، وقد زوّج ابنته رجلاً من الأنصار، فنثر على رؤوسهم لوزاً وسكراً، فذكرت تزويجك فاطمة من علي، ولم تنثر عليها شيئاً، فقال النبي (ص): لا تبكي يا أُم أيمن، فوالذي بعثني بالكرامة واستخصّني بالرسالة، ما أنا زوّجته، ولكن الله تبارك وتعالى زوّجه من فوق عرشه، وما رضيت حتى رضي علي، وما رضى علي حتى رضيت، وما رضيت حتى رضيت فاطمة، وما رضيت فاطمة حتى رضي الله ربّ العالمين».

٢ ـ وروى المحدث الكبير الشيخ أبو جعفر الصدوق[1] في عيون أخبار الرضا (ع)، بأسناده عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن أبيه، عن آبائه، عن علي (ع) قال: «قال لي رسول الله (ص): يا علي، لقد عاتبتني رجال من قريش في أمر فاطمة، وقالوا: خطبناها إليك فمنعتنا وزوّجت علياً، فقلت لهم: والله ما أنا منعتكم وزوّجته، بل الله منعكم وزوّجه، فهبط عليَّ جبرئيل فقال: يا محمد، إنّ الله جلّ جلاله يقول: لو لم أخلق علياً لما كان لفاطمة ابنتك كفو على وجه الأرض، آدم فمن دونه».

٣ ـ وحدث أبو الفتح الإربلي (رض) عن أنس بن مالك قال: «كنت عند النبي (ص) فغشيه الوحي، فلما أفاق قال لي: يا أنس، أتدري ما جاءني به جبرئيل من عند صاحب العرش؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أمرني أن أزوّج فاطمة من علي، فانطلق فادع لي أبا بكر وعمر

---

(١) بحارالأنوار، ٤٣ : ٩٢. رواه عن الشيخ الصدوق بطريقين.

وعثمان وعلياً وطلحة والزبير، وبعددهم من الأنصار. قال: فانطلقت فدعوتهم له، فلما أن أخذوا مجالسهم قال رسول الله (ص): الحمد لله المحمود بنعمته، والمعبود بقدرته، والمطاع في سلطانه، المرهوب من عذابه، المرغوب إليه فيما عنده، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد. ثمّ إنّ الله جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وشج بها الأرحام، وألزمها الأنام فقال تبارك اسمه وتعالى جده: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربّك قديراً﴾ (١)، فأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، فلكلّ قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ (٢).

ثم إني أُشهدكم أني قد زوّجت فاطمة من علي على أربعمئة مثقال فضة إن رضي بذلك علي ـ وكان غائباً قد بعثه رسول الله (ص) في حاجة ـ.

ثم أمر رسول الله (ص) بطبق فيه بُسر فوضع بين أيدينا، ثم قال: انتهبوا فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي، فتبسّم إليه رسول الله (ص) ثم قال: يا علي، إنّ الله أمرني أن أزوّجك فاطمة، وقد زوّجتكها على أربعمئة مثقال فضة، أرضيت؟ قال: رضيت يا رسول الله. ثم قام علي

---

(١) الفرقان، ٥٦.

(٢) الرعد، ٣٩.

فخرّ لله ساجداً، فقال النبي (ص): **جعل الله فيكم (الخير) الكثير الطيب، وبارك فيكما**. قال أنس: والله لقد أخرج منها الكثير الطيب»[١].

فمن هذه الأحاديث المباركة وغيرها يتضح أن الخاطب لفاطمة (ع) ومزوجها لعلي (ع) هو الله عزّوجلّ، وكان دور رسول الله (ص) دور التبليغ والتنفيذ، وما روي خلافاً لذلك من أمور فهو إمّا من بغي الحاسدين، أو ظلم الأعداء، أو من التصحيف والاشتباه.

وهكذا نجد التفسير الصحيح لقول رسول الله (ص): «**لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ**»[٢].

«**لولا أن الله تعالى خلق فاطمة لعلي ما كان لها على وجه الأرض** كفؤ آدم فمن دونه»[٣].

تفاصيل في عالم الشهادة

إن تفاصيل اقتران علي بفاطمة (ع) بدأت في عالم الشهادة بشكل غير مألوف في عالم الزواج في المجتمعات البشرية.

فبعد يأس وانقطاع من قبل جميع الخاطبين لبنت الرسول الخاتم (ص)، بعد أن علموا أن أمرها إلى ربها عزّوجلّ يختار لها ما يشاء، وماكان لهم الخيرة في ذلك، لم يبق من هذا الأمر غير أحاديث هنا

---

(١) كشف الغمة، ١ : ٣٥٨ ـ ٣٥٩، وفي البحار، ٤٣ : ١١٩ ـ ١٢٠، مثله.

(٢) بحارالأنوار، ٤٣ : ١٤١، بأسناده، والحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي في ينابيع المودة بأسناده، ١٧٧، وغيرهما.

(٣) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق، ٣ : ٢٤٩.

وهناك تجري بين الصحابة من المهاجرين والأنصار حول ما يؤول إليه أمر فاطمة بنت النبي (ص)، حيث تتصور مجالسهم تصورات حول ذلك لا تملك يقيناً ولا حجة.

وعلى حين فترة يأتي النداء العلوي المقدس: «يا محمد، إن الله تعالى يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إني قد زوّجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملأ الأعلى، فزوّجها منه في الأرض»(١).

ويظهر أن رسول الله (ص) قد دعا ـ بعد هذا التبليغ الإلهي ـ أخاه وابن عمه، وأحب الخلق إليه علي بن أبي طالب (ع)، وأبلغه بما قضاه الله تعالى له ولفاطمة (ع)، كما أبلغ بذلك فاطمة (ع)، وقد سُرَ علي (ع) سروراً عظيماً، فخرّ ساجداً لله عزّوجلّ وهو يقول: «ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ...»، ثم رفع رأسه، والنبي (ص) يخاطبه: «بارك الله عليكما وبارك فيكما، وأسعد جدّكما، وجمع بينكما، وأخرج منكما الكثير الطيب»، ثم أمر بطبق بُسر فوزّع على الحاضرين.(٢)

أما فاطمة (ع) فحين اطلعها الرسول (ص)، وقرأ على وجهها المبارك علامات الرضا والقناعة بما ارتضاه لها الله عزّوجلّ، دون أن تنسج ذلك في كلمات، هتف النبي (ص): «الله أكبر.. سكوتها اقرارها».

ويلاحظ من مجموع الوثائق التاريخية القليلة التي بقيت محفوظة حول هذه المسألة، أن اقتران علي بفاطمة عليها الصلاة والسلام قد

---

(١) مناقب علي بن أبي طالب، للموفق بن أحمد المكي الخوارزمي.

(٢) راجع بحارالأنوار، ٤٣ : ١١٢، باسناده.

احيط به الصحابة خبراً، بحضور علي (ع) على رواية[١]، أو بغيابه على رواية أخرى.[٢]

وقد انتقىٰ النبي (ص) ستة من المهاجرين، وستة من الأنصار، جمعهم عنده، ثم أبلغهم بتزويج الله عزّوجلّ لعلي من فاطمة، واشهدهم أنه سلَّم لما قضاه الله تعالى وأمر به، الأمر الذي يكوّن انطباعاً لدى أي متتبع أن لهذا الزواج غاياتٍ وأهدافاً لا مثيل لها، تقتضي هذا اللون من الفعاليات والتحركات الفريدة. وهذه نماذج من الروايات بهذا الصدد:

حدث أنس بن مالك عن رسول الله (ص) أنه كان عند النبي (ص) فغشيه الوحي، فلما أفاق قال له: «**يا أنس، أتدري ما جاءني به جبرئيل من عند صاحب العرش؟** قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **أمرني أن أزوّج فاطمة من علي**» فانطلق فادعُ لي أبا بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير، وبعددهم من الأنصار. قال: فانطلقت فدعوتهم له، فلما أن أخذوا مجالسهم قال رسول الله (ص)... الخطبة، ومنها: **ثم إني أُشهدكم أني قد زوّجت فاطمة من علي...**»[٣].

---

(١) ذخائر العقبىٰ عن أنس بن مالك، ٣١.

(٢) نفسه: ٣٠، عن أنس. وفي رواية البحار ورد اسم علي (ع) بدلاً من عبدالرحمن بن عوف، وفي آخر الرواية إشارة إلى عدم وجوده مع الحاضرين، ثم حضر في آخر اجتماعهم. والصحيح أنه لم يكن حاضراً في الاجتماع في بدايته، والالتباس من الرواة، ولذا لم يرد اسمه كذلك في صدر الرواية في ينابيع المودة، ١٧٥، فراجع.

(٣) ذخائر العقبى، ٣٠، وبحارالأنوار، ٤٣ : ١١٩، وكشف الغمة نقلاً للحديث من هذه المصادر مختصراً.

ورغم أن اقتران فاطمة بعلي (ع) كان ذا نمط خاص، وطبيعة مميزة، فإن رسول الله (ص) أراد أن يسنَّ للمجتمعات عبر التاريخ سنة صالحة من خلاله، تتلخص بأهمية اقرار حرية الرجل والمرأة معاً في اختيار كل منهما لشريك حياته، دون فرض أو إكراه، وهكذا كان.

ومن الجدير ذكره أن ما يذكره بعض المحدثين، من أن أسماء بنت عميس كان لها دور ما في تفاصيل اقتران فاطمة بعلي (ع)، لا نصيب له من الصحة أبداً؛ فإن أسماء بنت عميس كانت آنذاك مع زوجها جعفر بن أبي طالب (ع) مهاجرة في الحبشة، ولم ترَ المدينة المنوّرة إلّا في السنة السابعة من الهجرة، في أيام فتح خيبر، بينما كانت عملية اقتران علي (ع) من فاطمة (ع) قد جرت في نهاية السنة الثانية من الهجرة.

ومن الراجح أن تكون أختها سلمىٰ بنت عميس هي التي حضرت تفاصيل الزواج، وقد كانت زوجاً لحمزة بن عبدالمطلب (ع). ويبدو أن الالتباس وقع من الرواة؛ لأن أسماء أشهر من أختها سلمىٰ عند المؤرخين والرواة[١]، يجري اسمها على أقلامهم دون أختها.

وقد أكد رسول الله (ص) أهمية المهر وحقوق المرأة المالية عند الزواج، فطلب من علي (ع) مهراً لفاطمة (ع)، فخصص لها علي (ع) خمسمائة درهم ـ بناء على أصح الروايات ـ.

فقسمه النبي (ص) أقساماً، بعضه أعطاه للنساء لابتياع ما يرينهُ

(١) كشف الغمة، ١ : ٣٧٦.

مناسباً للمرأة، وبعضه أُعطي للرجال لابتياع الحاجات الضرورية للمنزل.

وقد ذكرت الروايات اسم أم سلمة، وهي ليست أم سلمة زوج النبي (ص) المعروفة، وإنما هي أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع الأنصارية، وتكنّى باسم أم سلمة أيضاً وهي خطيبة النساء.

ويبدو أن الخلط في الروايات بين اسم أسماء بنت عميس التي كانت يومذاك في الحبشة، واسم أم سلمة زوج النبي (ص) التي لم تكن قد تزوجها رسول الله (ص)، إلّا بعد سنة من زواج علي (ع) بفاطمة (ع)، أقول: إن هذا الخلط إنما جاء بسبب الهوية الشخصية لأسماء بنت يزيد الأنصارية التي حضرت بعض تفاصيل زواج فاطمة من علي (ع).(١)

وتشير الأخبار إلى أن عمار بن ياسر والمقداد وبلالاً وسلمان الفارسي وغيرهم، قد ساهموا في ابتياع جزء من الأثاث، حيث جاؤوا به، فكان قوامه الخزف، ليعبر عن حقيقة الدنيا وواقعها، فقلبه النبي (ص) بيديه الكريمتين، وقال: «**اللهم بارك لقوم جلّ آنيتهم الخزف**»(٢).

أما أثاث علي وفاطمة عليهما الصلاة والسلام فكان ـ جمعاً بين الروايات ـ ما يلي:

١ ـ فراشاً من خيش مصر محشواً بالصوف.

---

(١) لاحظ هامش ص ١٣٤، من البحار، ج ٤٣، ط بيروت، ١٩٨٣ م.

(٢) كشف الغمة، ١: ٣٦٩، والبحار، ٤٣ : ١٣٠.

٢ ـ وسادة من أَدم حشوها من ليف النخيل أو إذخِر[١].

٣ ـ عباءة خيبرية.

٤ ـ قربة للماء.

٥ ـ كيزان للماء.

٦ ـ جرّتان من خزف.

٧ ـ مطهرة للماء.

٨ ـ ستر صوف رقيق.

٩ ـ سرير مشروط.

١٠ ـ حصير هجري.

١١ ـ مخضب نحاس.

١٢ ـ قعب للّبن.

١٣ ـ قميص.

١٤ ـ شن للماء.

١٥ ـ منخل.

١٦ ـ رحىً.

١٧ ـ قدر نحاس، ونحو ذلك.

أما داخل الدار فقد فرش برمل جيء به من البطحاء.

وهكذا كان أثاث دار علي وفاطمة (ع)، مثالاً للبساطة ونموذجاً

---

(١) الإذخر: حشيش طيب الرائحة. والأَدم: اسم جمع للأديم، وهو الجلد، ويُجمع على أُدم.

للزهد في الحياة وشوطها القصير؛ ليكونا وذريتهما المباركة بذلك أئمة للذين استضعفوا في الأرض، وليكونوا الوارثين للخير والمعروف، والبركة والخصب في نهاية المطاف.

ومن المفيد جداً أن نذكر بعض الوثائق التاريخية التي تتحدث عن ذلك المتاع الزهيد، الكبير في معناه ودلالاته.

قالت أسماء: «لقد جهزت فاطمة بنت رسول الله (ص) إلى علي بن أبي طالب، وما كان حشو فراشهما، ووسائدهما إلّا ليف»[1]، أخرجه الدولابي.

وعن علي قال: «**جهّز رسول الله (ص) فاطمة في خميلة وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف**»[2] أخرجه أحمد في المناقب.

وعن عامر قال: «قال علي (ع): **لقد تزوّجت فاطمة ومالي لها فراش غير جلد كبش، ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار، ومالي ولها خادم غيرها**»[3].

وقال أحمد في الفضائل: «حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن أبي زيد المدني قال: لما أهديت فاطمة إلى علي (ع)، لم تجد عنده إلّا رملاً مبسوطاً ووسادة وكوزاً وجرة».

وعن عطاء بن السائب عن أبيه عن علي (ع) قال: «**جهّز رسول الله**

---

(١) ذخائر العقبى، ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي الحنفي، ٢٧٦، ط بيروت، ١٩٨١ م.

(ص) فاطمة في خميل[١] وقربة ووسادة حشوها أذخر».

وفي رواية أخرى عنه (ع): «أن رسول الله (ص) لما زوجه فاطمة، بعث معها بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين»[٢].

وعن ابن عباس (رض) قال: «لما زوّج رسول الله (ص) فاطمة من علي، كان فيما أهدى معها سريراً مشروطاً[٣]، ووسادة من أدم حشوها ليف، وقربة. قال: وجاؤوا ببطحاء الرمل فبسطوه في البيت...»[٤].

مراسيم الزواج

تفيد بعض الوثائق أن عقد القران بين علي وفاطمة (ع)، قد جرىٰ في الأسبوع الأخير من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة[٥]،

---

(١) الخميل: القطيفة.

(٢) إسناده صحيح. وأخرجه أحمد في المسند، ١ : ١٤، والبيهقي في دلائل النبوة، ٣ : ١٦١.

(٣) وفي رواية «مشروطاً» والشريط: خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه. القاموس ٢ : ٣٦٨.

(٤) أخرج الحديث ابن سعد في الطبقات، ٨ : ٢٤، والنسائي في الخصائص، ١٣٨، والحاكم في المستدرك، ٣ : ١٥٧، وصحّحه.

(٥) حديث جابر بن سعد يذكره البحار، ٤٣ : ١٣٩، نقلاً عن كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب (ع)، لمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي.

أي بعد معركة بدر[١] بأسبوع واحد، إلّا أن الزواج المبارك لم يجرِ إلّا في الأسبوع الأول من ذي الحجة من نفس العام.

بيد أن الوثائق التاريخية لم تذكر أسباب هذا التأخير، أي مضى أكثر من شهرين على عقد القران، وغاية ما تذكره أن علياً عليه الصلاة والسلام قد غلبه الحياء، وهو عذر لا يصلح أن يكون تبريراً كافياً لذلك، وإنما الذي اعتقده أن مهام بناء الدولة، وإرساء قواعدها، وتوفير الاستعدادات الكفيلة لصد عدوان المشركين، كانت وراء هذا التأخير، فإن البيت النبوي كانت هذه المهام الكبرى شغله الشاغل، وكان وزير النبوة علي بن أبي طالب (ع) أكثر الناس انشغالاً بهذه المسائل الكبرى؛ لأن النبي (ص) كان ينتدبه لكل أمر معضل، سواء أكان ذلك داخل العاصمة أو فيما يجاورها، وسواء أكان الأمر يتعلق بشؤون عسكرية، أو تبليغ رسالة، أو قضاء أمر خاص بالنبوة والرسالة الكبرى.

وبين حسم معركة بدر الظافرة وزواج علي من فاطمة (ع) سبعون يوماً فحسب، وكانت مشركة قريش لاتزال ترتدي السواد حزناً على قتلاها في بدر، وهي تخطط للثأر من الإسلام ورسوله، وجبهته، حيث أعدّت عدتها فعلاً لمعركة أحد، التي نفّذت قريش عدوانها من خلالها بعد انتهاء معركة بدر بسنة وأيام، وذلك في نهاية الأسبوع الأول من شوال عام ٣ هـ.

وتتحدث الوثائق التاريخية أحاديث مختلفة حول مجريات الزواج ومراسيمه، ونحاول هنا أن نثبت ما يطمئن إليه العقل والمنطق بعيداً عن

---

(١) أنظر أمالي الشيخ الطوسي، ٤٢.

عبث التزييف، الذي أدخل ـ لأغراض سياسية وعقائدية ـ أسماء وأحداثاً لا علاقة لها بأهل البيت (ع)، وشؤونهم، وأهدافهم العالية.

فبعد نزول الأمر الإلهي بتزويج فاطمة (ع) من علي عليه الصلاة والسلام، وإعلان رسول الله (ص) ذلك في جمع من المهاجرين والأنصار، كما تقطع الوثائق التاريخية[١]، أرسل الرسول (ص) بعض صحابته خلف علي (ع) وكان غائباً. فلما مثل بين يديه، تبسّم رسول الله (ص) وتهلل وجهه فرحاً، حتى رأوا بياض أسنانه يبرق، ثم قال لعلي (ع): «**يا علي، إن الله أمرني أن أزوّجك فاطمة، وإني قد زوّجتكها...**»[٢].

فقال علي (ع): «**قد رضيتها يا رسول الله**» ثم خرّ علي ساجداً لله تعالى شاكراً لآلائه.

وتشير بعض الروايات إلى أن الزواج لم يتم إلّا بعد أن مضى أكثر من شهرين ـ كما أشرنا ـ على عقد القران، وكان لعقيل بن أبي طالب (رض) وأُم أيمن دور يذكر في مكالمة النبي (ص) بشأن ادخال فاطمة على علي (ع).[٣]

فلما كانت الليلة التي أدخلت فاطمة على علي (ع) فيها، أمر النبي (ص) أزواجه أن يزيّن فاطمة (ع) كما هي عادة النساء في مثل هذه المناسبة.

---

(١) ينابيع المودة، ١٧٥، وغيره.

(٢) نفس المصدر والصفحة، برواية أنس.

(٣) كشف الغمة، ١ : ٢٦٩ ـ ٣٧٠.

وهكذا جمعت هذه المرأة الجليلة بين علو المنزلة، وسمو المقام، وبين متطلبات الحالة الواقعية للإنسان السوي في ممارسة متطلبات الوضع الطبيعي.

وتشير بعض الآثار أن النبي (ص) أمر عليّاً (ع) أن يقيم وليمة ويدعو المسلمين إليها قائلاً: «**علينا اللحم والخبز، وعليك التمر والسمن**».

وكان رسول الله (ص) قد أشرف بنفسه على إعداد الطعام، حيث أعد من التمر والسمن حيساً، وأمر بكبش فذبح، وأعدت نساؤه خبزاً كثيراً.

ثم إن رسول الله (ص) أمر علياً أن يدعو من أحب إلى طعام آل محمد (ص)، فأتىٰ مسجد رسول الله (ص) وكان غاصاً بالصحابة، فاستحيا أن يدعو قوماً دون قوم، فرفع صوته بدعوة من حضر دون استثناء.

وهكذا جاء الناس زرافات ووحداناً لتناول طعام أهل البيت (ع). يقول علي (ع): «**فاستحييت من كثرة الناس وقلّة الطعام، فعلم رسول الله (ص) ما تداخلني فقال: سأدعو بالبركة**».

وهكذا صدر الجميع بعد أن طعموا حتى شبعوا من طعام علي (ع)، وشربوا من شرابه، وفضل من الطعام شيء كثير، فملئت الصحاف ووجّهت إلى منازل أزواج النبي (ص). ثم إن النبي (ص) دعا بصحفة، وجعل فيها طعاماً، وقال: «**هذا لفاطمة وبعلها**»[١].

---

(١) استفدنا هذه المعلومات من أمالي الشيخ أبي جعفر الطوسي (رض)، ٤٠، ط قم،

وعند الغروب دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة عليهما الصلاة والسلام، فلما وقفا بين يديه أخذ رسول الله (ص) يد فاطمة ووضعها في يد علي (ع)، ثم تحدث بهذه الكلمات: «**بارك الله لك في ابنة رسول الله يا علي، نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة نعم البعل علي، انطلقا إلى منزلكما...**»[١].

وتشير المعلومات التاريخية المتوافرة لدى المسلمين اليوم، أن هناك مراسيم خاصة قد جرت في ذلك اليوم بمناسبة الزفاف، شارك فيها النبي (ص) والأصحاب، حيث تحركت مسيرة تهتف بالتكبير والتهليل لله عزّوجلّ، كما اجتمعت النسوة، واستمعن إلى منظومات شعرية رائعة من وحي المناسبة، وقد شاركت في القاء الشعر بعض من أُمهات المؤمنين.

وتشير مصادر التاريخ إلى أن عاصمة النبوّة لم تشهد عرساً كعرس علي (ع)، فقد صرح الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري (رض): «حضرنا عرس علي، فما رأيت عرساً كان أحسن منه»[٢]، كما تحدثت بعض من أُمهات المؤمنين عن ذلك، فأعطت انطباعاً متميزاً عن تلك المناسبة الجليلة من ناحية طهرها، وجلالها، وما جرى فيها من فعاليات طاهرة نقية.

⇐ وبحارالأنوار، ٤٣ : ٩٤، وما بعدها.

(١) البحار، ٤٣ : ٩٦، نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة، للسيد الفيروزآبادي.

الفهرس